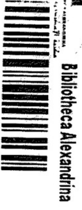
نورمان ج . فنكلستين

صعود وأفول فلسطين

رواية شخصيّة لسنوات الانتفاضة





ترجمة: أيمن حنّا حدّاد

صعود وأفول فلسطين

العنوان الأصلي للكتاب :

The Rise and Fall of Palestine

Apersonal Account of The Intifada Years

نُشر في عام 1996

نورمان جـ . فنكلستين

صعود وأُفول فلسطين

رواية شخصية لسنوات الانتفاضة

ترجمة : أيمن حنا حدّاد

صعود وأفول فلسطين

د. نورمان فنكلستين

ترجمة: أيمن حنّا حداد

الناشر: دار كنعان
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق – ص. ب 443 هاتف 2134433
رقم موافقة وزارة الإعلام: 49071

الطبعة الأولى: 2000 / 1000

التنفيذ: دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح

إنه لشيء نادر هذا الكتاب الذي يتصدى لتجربة إنسانية عبر بحث تاريخي رصين وتحليل سياسي مفصّل على نحو مذهل وحكمة استثنائية. أنا لا أعرف كتاباً آخر من حيث التعامل مع المآزق المأساوية للوضع الفلسطيني بكل هذه الحميمية وكل هذا الوضوح.

إدوارد سعيد
جامعة كولومبيا

«**صعود وأفول فلسطين**» كتاب مهم ذو مضمون كاشف، بل فريد في الواقع بامتلاكه الهيكل الفني من التاريخ المعاصر والماضي والذي استعرضه فنكلستين وسلّط الضوء كأحسن ما يكون وبسبب من ذلك النسيج للتجارب الشخصية التي تتميز بعمق الرؤية (المتحولة باستمرار) كذلك هذه النظرة الاستثنائية لفنكلستين التي تختلف بشدة عن تلك النظرات التي تسيطر على النقاشات حول الوضع في فلسطين.

نعوم تشومسكي
معهد ماساشوستيس التكنولوجي

هذا الوصف المحكم يسرد وقائع فصل استثنائي من التاريخ الفلسطيني المعاصر، الثورة على الاحتلال الإسرائيلي والمعروفة بالانتفاضة، من البداية المتألقة إلى الهزيمة المرّة. ويركز نورمان فنكلستين (وهو يهودي أمريكي ووالداه ناجيان من معسكرات الموت النازية) على الحياة اليومية للفلسطينيين، وقد أصبح قريباً منهم أثناء الوقت الذي أمضاه في الشرق الأوسط. فنكلستين يعرض أوضاع عائلتين فلسطينيتين مختلفتين أشد الاختلاف، واحدة من بيت ساحور المسيحية الواقعة بالقرب من بيت لحم، والثانية من مخيم الفوار بالقرب من الخليل. وعلى مدار هذا الكتاب يطرح فنكلستين فهماً فريداً لأسماء ووجوه مشتبكة في النزاع وللخسائر الإنسانية التي وقعت للوصول إلى التسوية التي يتمّ التفاوض عليها.

إهداء المؤلف :

إلى سميرة وموسى

نورمان فنكلستين : بروفسور وباحث في العلوم السياسية، عمِل في عدة جامعات أمريكية، يعمل حالياً مدرّساً في جامعة هانتر في نيويورك

حصل على درجة دكتوراه في العام 1988 في جامعة بيرنيسون

صدرت له المؤلفات التالية:

1- **«الحقيقة والخيال في صراع إسرائيل»** - فلسطين 1995 عن دار نشر فيرسو لندن.

2- **«صعود وأفول فلسطين»** -رواية شخصية عن الانتفاضة- دار نشر جامعة ميتسوتا 1996.

3- **«أمة تحت المحاكمة»** عن دار نشر هنري هولت نيويورك 1988.

وقد شارك في تأليف هذا الكتاب الباحثة روث بيناتابرن.

4- **«صناعة الهولكست»** عن دار نشر فيرسو لندن.

تنويه المترجم

أمل زكي، زينب استريادي

فداء عديلي - زوجتي - فراس محمد

شكراً جزيلاً لجهودكم.. وتعاونكم

أيمن

تعريف بالشخصيات الواردة في الكتاب

سميرة ميخائيل: معلمة لغة إنجليزية من بيت ساحور.

ستيفان، رنا، ريتا، باسل: هم، بالترتيب، زوج سميرة وأطفالها الثلاثة.

موسى أبو حشاش: معلم لغة إنجليزية من مخيم الفوار.

عفاف، مروة، عروة، أروى: هم، بالترتيب، زوجة موسى وأطفاله الثلاثة.

جورج حنا ونديم عيسى: شباب من بيت ساحور.

اسماعيل أبو حشاش: معلم رياضيات من مخيم الفوار.

كايد الجنزوري: مهندس زراعي من مخيم الفوار.

كما في الأيام الأخيرة في بومبي، كان هناك تفسّخ، كبت، واستباحة للمحرمات.. كنت أعرف عن أشخاص فاسدين ولم أُدِنهم دائماً لأن المبدأ المقبول كان: «كل واشرب وامرح، لأننا في الغد سنموت..» ومع ذلك كان هناك أمثلة عن السمو الأخلاقي، كما كان هناك أناس يبحثون عن طريق للوصول إلينا وتقديم المساعدة لنا. مواطنون دون أية انتماءات سياسية.. والكثير من الأمثلة على السلوك الرفيع، تعبيراً عن التضامن مع الناس البسطاء الذين لم يكونوا أعضاء في أية حركات.. عندما كنا نتعرض للخطر، كنا دائماً نجد من نلجأ إليهم.. كان هناك طبقة من الناس في الجيتو، عاشت الحياة الرغيدة في كل الأوقات، وهؤلاء كانوا المهربين والمتعاونين الاقتصاديين، ليس المتعاونين، بل الأوغاد، عملاء الجستابو، هؤلاء المهربون والمتعاونون الاقتصاديون يشكّلون مستوى آخر من المتعاونين. ربما نستطيع القول (بدون أسى أو مرارة) إن هذه الفئة تتضمن أيضاً قيادة أحزابنا السياسية: لقد امتلكوا الكثير من المال الذي حصلوا عليه من مصادر مختلفة.. في كل الأحوال، فهم لم يجوعوا قط.

يتسحاق زوكرمان،
فيض من الذاكرة:
وقائع انتفاضة جيتو وارسو.

التسلسل الزمني للوقائع

كانون الأول 1987: بدء الانتفاضة، إذ ثار الفلسطينيون في الضفة الغربية وغزة ضد الاحتلال الإسرائيلي الذي امتد لعشرين عاماً.

تشرين الثاني 1988: اجتمع المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر وأقرّ رسمياً قبول تسوية للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني على أساس قيام دولتين.

آب 1990: العراق يجتاح الكويت.

كانون الثاني 1991: بدء الهجوم على العراق بقيادة الولايات المتحدة.

شباط 1991: العراق ينسحب من الكويت.

تشرين الأول 1991: انعقاد محادثات السلام في مدريد لحل الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

أيلول 1993: إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية يوقعان اتفاق أوسلو.

تنويهات

عبر السنوات السبع الماضية، استفدتُ من كرَم أشخاص عديدين؛ ليس هناك كلمات تستطيع إيصال امتناني بصورة وافية. وأريد على الأخص أن أشكر، نبيل ابراهام، رودولف بالديو، جوناثان بوريان، روان كاري، كارول تشومسكي، كارولين فيالكو، سميرة حاج، جوان كوسلوفسكي، إيلين ماستروموناكو، آلان نايرن، إديل أولتمان، إيال برس، نوال راغب، فرانك شيد، شيفرا ستيرن، وسايروس فيسر.

ما لم نُشِر إلى غير ذلك، فإن الاقتباسات من الدوريات الصادرة باللغة العبرية، هي من ترجمة إسرائيل شاحاك النفيسة من الصحافة العبرية. بينما كنت أُجهّز مخطوطة هذا الكتاب للنشر، فإن أمي وأبي -وكلاهما ناجيان من جيتو وارسو ومعسكرات الاعتقال النازية- قد وافاهما الأجل. إن حزني لا يمكن التعبير عنه، كما امتناني لهما كذلك.

ملاحظة المؤلف

سافرتُ إلى فلسطين لأول مرة في شهر آب من العام 1988 كعضو في وفد لمراقبة حقوق الإنسان عن اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة العنصرية (ADC) . سنحت لي فرصتان لمصادفة –سميرة ميخائيل من بيت ساحور وموسى أبو حشاش من مخيم الفوار– وتطورت المصادفتين إلى صداقة مستمرة ، إذ عاودت زيارة فلسطين خلال سنوات متعاقبة بناءً على دعوتهما . لقد وثق بي موسى وسميرة كي أدخل حياتهما وأختبر فلسطين بوضوح ودون خلفيات غائمة ، وكل ما أراداه في مقابل ذلك ، هو أن أنشر حقيقة ما شهدتُه . وقد فعلتُ ذلك على أحسن ما أستطيع ، وآمل بانني لم أخيّب رجاءهما . وما يتبع في هذا الكتاب هو وصف لوقائع تلك الزيارات والمأساة التي تخللتها في الخليج .

تمت كتابة الفصول 1 ، 2 ، 4 ، وفصل الختام بعد رحلاتي إلى فلسطين وهي على التوالي في : آب 1988 ، آب 1989 ، آب 1991 ، وكانون الأول 1993 . أمِا الفصل الثالث فقد تمت كتابته عشية «حرب» الخليج في كانون الأول 1990 (الملحق الأول في كانون الثاني 1992 والملحق الثاني في تشرين الثاني 1992) . إلى جانب الإضافات الثانوية ، فإنني قررت القيام بإعادة كتابة المخطوطة الأصلية بدون تغيير يذكر ، وذلك للحفاظ على روح تلك الأوقات الاستثنائية .

الفصل الأول

الحقيقة من داخل فلسطين ، زيارة ثانية

منذ قرابة قرن مضى، علّق الكاتب الصهيوني آحاد هاعام في مقالته الكلاسيكية: «الحقيقة من داخل فلسطين» وقال: إن الحركة الصهيونية أخفقت في القبض على مفهوم التحدي المتمثل بسكان فلسطين الأصليين:

> **نحن نميل إلى الاعتقاد في الخارج، أن العرب هم برابرة صحراويون، أناس بُلَهاء لا يرون أو يفهمون ما يدور حولهم. وهذا خطأ أساسي. فالعرب، مثل كل الساميين، لهم أذهان متوقدة ويتحلون بالبراعة.. العرب.. يفهمون جيداً ماذا نريد وماذا نفعل بالبلد؛ ولكنهم يتصرفون وكأنهم لا يلاحظون ذلك، لأنهم حالياً لا يرون أي خطر على أنفسهم أو على مستقبلهم مما نقوم بعمله.. ولكن عندما يأتي ذلك اليوم، عندما تتطور حياة شعبنا في أرض إسرائيل إلى درجة بحيث أنهم سيدفعون قليلاً أو كثيراً بالسكان الأصليين خارجاً، عندئذٍ لن يتنازلوا عن مكانهم بسهولة[1].**

وبما يتعلق بالاعتقاد السائد بين المستوطنين الصهاينة بأن «اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي القوة» فإن آحاد هاعام يذهب للتحذير:

> **هناك شيء يجب أن نكون قد تعلمناه من ماضينا ومن تاريخنا المعاصر، وهو أن لا نخلق الغضب لدى السكان المحليين ضدنا.. يجب علينا أن نعامل السكان المحليين بالحب والاحترام، بالعدل والصواب. ولكن ماذا يفعل إخوتنا في أرض إسرائيل؟ العكس تماماً!.. إنهم يتصرفون مع العرب بعداء وقسوة، يتعدون على حدودهم، يضربونهم، ويا للخجل بدون سبب، حتى أنهم يتبجحون بذلك. إن إخوتنا يصيبون بالقول إن العرب يحترمون فقط هؤلاء الذين يُظهرون الشجاعة والجَلَد؛ ولكن هذا صحيح فقط عندما يشعرون أن الجانب الآخر يمتلك الحق إلى جانبه، ولكن الأمر يختلف تماماً عندما يعتقد العرب أن تصرفات خصمهم باغية وجائرة، ففي هذه الحالة يستطيع العربي أن يحتفظ بغضبه لزمن طويل، لكن الغضب سوف يسكن قلبه، وفي المدى البعيد سيثبت نفسه كمنتقم ومليء برغبة الثأر[2].**

I

كنّا نقف في شرفة بيت في حي تل الزعتر في بيت ساحور (وقد أعيدت تسمية الحي تخليداً لشهداء مخيم لاجئين في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية) عندما انسلت سميرة ميخائيل خارجاً لتنضم إلينا، ومثلنا جميعاً، فقد أدارت رأسها فوراً نحو الطقس المهيب الذي يتجلى أمامنا على بعد نحو خمسين خطوة.

حتى في أكثر معايير الانتفاضة صرامة، تمتعت بيت ساحور (بلدة فلسطينية مسيحية إلى الجنوب من بيت لحم) بسمعة كفاحية غير عادية، فلدى بدء الانتفاضة في كانون الأول من العام 1987، كانت بيت ساحور التجمع الفلسطيني الأول الذي توقّف عن دفع الضرائب لسلطات الاحتلال كما أنها اتخذت خطوات مثيرة تجاه الإدارة الشعبية الذاتية والاستقلال الاقتصادي.

هذا الأحد صباحاً، تناقلت الأقوال أنه رداً على الأمر الإسرائيلي بإبعاد خمسة وعشرين آخرين من سكان غزّة، سيكون هناك (عمل) في بيت ساحور بعد أداء الصلاة، وكنت قد وصلت مبكراً مع صديق مصوّر، ولكن مع أن وقت الظهر كان يقترب بسرعة، إلا أننا لم نرَ أي شيء غير عادي حتى الآن. وفجأة بدأ عدة أولاد - متوسط العمر لطلائع الانتفاضة لا يمكن أن يزيد عن اثني عشر عاماً لأن (الجيل الأكبر) من اليافعين والفتيان كانوا في ذلك الوقت إما في السجن أو مختبئين- بدأوا بتكويم الحجارة في الشارع، وبالخبرة من المرّات السابقة، كان الكل يتوقع بأن الجيش سيتصدى لهم في سيارات الجيب، وسيندلع الجحيم بكامله.

إن «متراس» الحجارة الذي أقيم في شارع جانبي في داخل البلدة كان إيماءة رمزية محضة للدفاع ولإثبات الوجود، ولهذا السبب بالذات يمكن توقع ردة فعل إسرائيلية قاسية على ذلك، مصممين -كما هو مصرَّح رسمياً- على «زرع الخوف من الموت» في قلوبهم و«مسح البسمة» عن وجوههم.

في الحقيقة، إن كل تعبير عن «العنف» الفلسطيني مما شهدته أثناء إقامتي في المناطق المحتلة، كان أكثر قليلاً من رمزي. ولكن ذلك

لا يمكن أن يقال عن القوة التي تستخدم في إخماده. في إحدى المرات، وكان ذلك في مخيم الجلزون للاّجئين، كان الأطفال يحرقون إطار سيارة على جانب طريق رئيسي في داخل المخيم عندما توقفت سيارة (تحمل لوحات زرقاء تخص الفلسطينيين(*)) بجانب الأطفال، وانفتحت أبوابها فجأة، وقفز منها أربعة رجال (إما أنهم مستوطنون أو أنهم جنود بملابس مدنية)، وأخذوا يطلقون الرصاص بارتجال وبكل الاتجاهات. أصيب الطفل الذي بجواري برصاصة في ظهره اخترقته من سرّته.

وحالاً تركّز جنود جيش الدفاع الإسرائيلي خارج المخيم، ومالبثوا أن دخلوه وفرضوا حظر التجول. وفي اليوم التالي، نشرت صحيفة الجيروسالم بوست: إن الجيش أطلق النار في حالة دفاع عن النفس.

بالطبع، فإن الجيش عادة لا ينتظر ذريعة ليضرب، بل إن أبرز ملامح الاحتلال الإسرائيلي كانت عدم القدرة على توقع الرعب وعدم قانونيته، فلفترات ممتدة من الوقت، كان إيقاع حياة الفلسطينيين يترك بدون إزعاج، عندها يكون الرعب مخيماً ولكنه دفين، إنه يبطّن الحياة اليومية دون أن يحل محلها. مع ذلك، وفي وقت غير بعيد فإن الرعب يحل بيد ثقيلة -أو كما يطلق عليه الإسرائيليون، «القبضة الحديدية»-. إن شكل العنف الأكثر شيوعاً واستخداماً ضد المخيمات هو المذابح المنظَّمة(**). فلدى دخولهم المخيمات بعد الغسق، فإن

(*) في المناطق المحتلة، أُصدرت لوحات زرقاء لسيارات الفلسطينيين في حين أن اليهود قد أُصدرت لهم لوحات صفراء. - المؤلف.

(**) المذابح المنظمة في مقابل (Pogroms) وهي هجمات مفاجئة يذهب ضحيتها الآمنون عادةً، وهي كلمة ترد بكثرة في أدبيات المحرقة النازية. - المترجم.

الجنود أو المستوطنين يرشون الناس بالرصاص والغاز المسيل للدموع، يقرعون الأبواب بعنف ويكسرون الزجاج وخلايا الطاقة الشمسية على السطوح، يقتحمون البيوت، ثم يقومون بانسحاب خاطف (يرافقهم بالعادة رهينة أو رهينتان). قبل ليلتين من رجوعي إلى الولايات المتحدة، حاصر الجيش مخيم الجلزون في حلكة الليل، وفرَض حظر التجول، ثم أُمر سكان ثلاثة بيوت بالإخلاء وإخراج أمتعتهم منها خلال خمس عشرة دقيقة (تم منع الجيران من تقديم المساعدة لهم)، بعدئذ دمّروا بيوتهم الحجرية، بدون أي تحذير مسبق وبدون أي توضيح للأسباب، وبدون أي أمر قانوني. وفي الصباح التالي، وخلال دقائق من دخولهم المخيم، أُمر الوفد الذي أسافر معه (اللجنة الأميركية العربية لمناهضة العنصرية) بمغادرة المخيم، إذ دوّت مكبرات الصوت من أعلى التلة بلغة إنجليزية ركيكة بأن مخيم الجلزون قد فُرض عليه حظر التجول (مما يعني أن المخيم بالكامل قد أصبح رهينة)، ولم يكن هناك حتى ادّعاء بوجود سبب. تم إغلاق المخيم، وبدا واضحاً أنه سيتعرض لحقبة جديدة من الرعب- وهو العقاب المعتاد لإظهار الجانب السفلي من «إسرائيل الجميلة» للعالم الخارجي. (حتى أنه في اليوم السابق لذلك لم يُسمح لوفد زائر من الكونغرس بدخول المخيم). مع ذلك، فإن اللاجئين في المخيم قد رفضوا بعناد قبول مفهوم أن القمع الوحشي الإسرائيلي ليس من شأن أحد.

لم ينجُ أي مظهر من مظاهر حياة الفلسطينيين من استبداد القانون الإسرائيلي. في القدس الشرقية(*)، رأيت الشرطة تأمر الفتيان برمي خضراواتهم الطازجة في صفائح الزبالة، وبالقرب منهم

(*) احتلت إسرائيل القدس الشرقية خلال حرب عام 1967، وبعد ذلك بوقت قصير ضمتها بشكل غير قانوني. - المؤلف.

كانت هناك امرأة عجوز فلسطينية تكافح لتمنع ضابط شرطة من أن يقلب لها سلتها المليئة بالحاجيات، مما حدا بضابط شرطة آخر يركب فرساً بأن يركلها بقسوة على جبينها. ورفض أحد سكان الخليل أن يقول عن عرفات (عاهر) فضُرب بالهَراوي على كاحليه. وعلى جسر النّبي الذي يربط الضفة الغربية مع الأردن، فإن الإسرائيليين يضايقون العرب ويمنعونهم من الدخول بعد أن يقطعوا آلاف الأميال للقيام بزيارة أحبائهم. وربما ليس العرب فقط، أنا أيضاً مُنعتُ من دخول إسرائيل. (وإذا أمكن تصديق وزارة الخارجية (الأمريكية) فيمكنني ادّعاء الامتياز العجيب بأنني اليهودي الأول على الإطلاق الذي يُمنع من دخول إسرائيل، مع ذلك فقد قمت أخيراً بالدخول عن طريق اليونان). وكل ذلك بدون تبرير، بدون حتى فرصة لمواجهة الضابط الذي قلب إبهاميه وأصدر أمراً بمنع دخولي. وفيما كان أحد الجنود الإسرائيليين يرافقني لإعادتي إلى الحدود الأردنية، فقد عرض علي مع ذلك نصيحة مجانية وقال «في المرة القادمة، اذهب للمعبد وصلِّ، وخصوصاً في يوم الغفران». وهذه هي الإجراءات المحيِّرة لإسرائيل (العلمانية) الديمقراطية!

II أقام قرويو بيت ساحور في الشارع الجانبي الذي أُقيم به متراساً من الحجارة، وأدخلوني أنا وصديقي إلى بيوتهم، وأرادوا أن يوفِّروا لصديقي المصوِّر بشكل خاص، أحسن موقع ممكن لتصوير الأحداث. إن الوعي الإعلامي مرتفع جداً في المناطق المحتلة، وكان يبدو وكأن الجميع مقتنعون بأن نجاح الانتفاضة يتوقف بشكل حاسم على الرأي العام العالمي، فكلما تحدثتُ مع أحد، فإن السؤال الذي يوجه إليّ وبشكل دائم هو ماذا يفكر الشعب الأمريكي بما يتعلق بالانتفاضة في فلسطين. وكان الاعتقاد الظاهر أنه لو

انتشرت الحقيقة، فسيتم فرض ضغط خارجي على إسرائيل. كما أن الفلسطينيين تأملوا بأن الإعلام سيحدّ من الرعب. يدرك المرء بشكل حاد بأنه إذا اختفت الكاميرات، فقد تلجأ إسرائيل لاقتراف «حمّام دم ضد مظاهرة أو اثنتين» لكي تُخمد العصيان. ولقد أراد الفلسطينيون، بدافع من الكرامة الشخصية ببساطة، أن يُظهروا ما يحدث للعالم الخارجي مباشرة. وتقريباً فإن كل قصص الرعب التي رُويت لي كانت تُقطع من حين إلى آخر بلازمة «وهم يقولون عنا إرهابيون!» أو «وهم يدّعون الديمقراطية!».

مررنا بشكل سريع من بيت لآخر، ثم توقفنا في موقع مشرف بين راشقي الحجارة الأطفال والمراهقين -الشجعان- من المتمردين على السلطة، وكانوا ينتظرون سيارات الجيب أن تهدر (كان الجيش يتمركز خارج كل قرية ومخيم، وعادة على قمم التلال الوعرة، لكي يرصدوا ويقمعوا أي تعبير عن «العصيان»). وطرحت أسئلتي المعتادة على الجمع المحتشد، فتطوعَتْ سميرة بأن تقوم بالترجمة وأن تكون المُحادث الرئيسي. وبسبب تدقيقها بالإجابات وبذلها جهداً للتركيز على اختلاف الآراء، شكّكتُ بأن سميرة تتقلد منصباً سياسياً، كما أنها تتحدث لغة إنجليزية دقيقة. وفي الواقع، فإن الكثير من الفلسطينيين يتحدثون الإنجليزية بطلاقة (وبما يتعلق بهذا الأمر، فإن عرفات، بإنجليزيته التي بالكاد مترابطة، ليس أحسن ممثل للسكان في المناطق المحتلة). كما أن الكثير من الفلسطينيين يتقنون لغة ثالثة أيضاً، لكن لغة سميرة الإنجليزية كانت، إذا أمكنني القول ببساطة، معبّرة بشكل فريد.

وسألتُ، «كم عدد الفلسطينيين من بيت ساحور الذين تم سجنهم؟» فأجابت: «ليس أكثر من 200 وليس أقل من 150» (قبل ذلك سألتُ بعض القرويين وقالوا أن الرقم يبلغ 300). «ما هو رأيك

بمنظمة التحرير؟» ترددتْ سميرة لتستشعر أولاً توجهاتي، ثم أعطتْ إجابة حذرة: «سأقرر ذلك بعد أن يلتقي المجلس الوطني الفلسطيني. إن الانتفاضة تشبه النهر، وهي بحاجة لمنظمة التحرير لكي تقوده، وإذا لم تصل المنظمة لإجماع في الاجتماع القادم، سأغلق أبوابي بوجه الانتفاضة». وكان الاهتمام (والقلق) فيما يتعلق بالاجتماع المقرر للمجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني 1988 ملموساً في كل الضفة الغربية.

عموماً، لم تبدُ أسهم المنظمة مرتفعة في الضفة الغربية، فقد كان التذمر من فسادها وعدم كفاءتها شديداً، ولقد أخبرني سكان المخيم بأن أموال المنظمة المخصصة لهم لم تصلهم قط، وزعموا أن البرجوازية الفلسطينية هي المستفيد الوحيد من صندوق المنظمة المحجوز لغرض إعطاء القروض لبناء المساكن. استشهد أحد الفلسطينيين بتقرير حديث للإذاعة الإسرائيلية مفاده أن عرفات مليونير، وأن عرفات لم ينكر ذلك، بل ادّعى فقط بأنه كان مليونيراً قبل انضمامه لمنظمة التحرير. (من الواضح أن ما نُسب لعرفات غير صحيح). ويشير سكان الضفة الغربية لاعتراف عرفات بأنهم قدّموا «للثورة الفلسطينية» خلال ثمانية أشهر، أكثر مما قدّمت المنظمة بعشرين عاماً. أصرّ أحد الفلسطينيين، وهو يعيش في الأردن، على القول بأن الفلسطينيين «يكرهون» عرفات. ولكن حفنة قليلة فقط من الفلسطينيين الذين قابلتهم استخدموا عبارات شديدة كهذه؛ وأحدهم زعم بأنه «غبي قليلاً». ولكن ما كان مؤكداً، هو أن هذا الشخص الذي من معارفي ينفر من عرفات، وحتى لحيتَه، يزعم هذا الشخص، بأن عرفات قد أطلقها لكي يسترضي الإسلاميين (من الواضح أن مظهر عرفات غير المحبب يزعج الكثير من الفلسطينيين).

حتى الآن، لم يقترح أحد ممن قابلتهم أن القضية الفلسطينية يمكن أن تُحل بدون منظمة التحرير. «إنها التنظيم الوحيد لدينا» قال موسى أبو حشاش، مضيفي الشيوعي في الخليل. وعلّق رفيق دراستي القديم باستسلام، والذي يدرِّس الآن في جامعة بير زيت «نحن عالقون بها». في الواقع حتى رئيس بلدية الخليل المقوت بشكل واسع، والذي عيّنته إسرائيل والذي أكّد أنه «100٪ من الفلسطينيين يريدون في أعماق قلوبهم، الملك حسين كقائد لهم»، كما صرّح بأنه لا أحد يستطيع أن يفاوض بالنيابة عن الفلسطينيين إلا منظمة التحرير.

يسود الاعتقاد هنا أن قطع الحسين لصلاته مع المناطق المحتلة، كان وإلى حد بعيد بسبب الخوف من أن الفلسطينيين قد أصبحوا «جامحين» بشكل كبير بحيث أنهم لن يخضعوا لحكمه الملكي ثانية. في الواقع، لقد أظهر الفلسطينيون، ومع انطلاقة الانتفاضة، نزعة صحية للتشكك بكل السلطات السياسية، فما عادوا يرغبون بعد أن «يمثَّلوا» بواسطة أيٍ كان. لقد كانت خبرتهم التاريخية مع القادة المفوّضة -أو بتدقيق أكثر القيادة المصادرة- في غاية الشقاء، لذلك أراد الفلسطينيون أن يمثِّلوا أنفسهم مباشرةً. ومما لا شك فيه أن المراقبين والنقاد سيرفضون هذه الرؤية بوصفها فوضوية ساذجة، ولكنها ربما تكون عهد النضوج السياسي لأي سلطة من الكبار، وهذه حقيقة يسلّم الكثير من الفلسطينيين بأنها مشكلة).

فضّل كل الفلسطينيين الذين قابلتهم ومن ضمنهم اللاجئون من حرب عام 1948 بشكل كاسح -ولكن ليس بإجماع- تسوية للنزاع على أساس قيام دولتين. وفي الواقع فإن العديد من أهل الضفة الغربية تمنوا بأن تُصدر منظمة التحرير بياناً بهذا الصدد في الاجتماع المقرر للمجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني[3] سألتُ موسى إذا كان

سيتقبل دولة منزوعة من السلاح، فقال: «من حيث المبدأ لا، ولكن من حيث الواقع العملي نعم، سأتقبل ذلك، فإسرائيل تستخدم (الأمن) لتحرمنا من حقوقنا، ولا أريد أن أبقى أُلعوبة بين أيديهم».

III

أثناء وقوفها معي في شرفة أحد بيوت بيت ساحور، أشارت سميرة إلى قمة التلة المجاورة، فقد استولى الجيش على سيارة مدنية ثم نزل بها الجنود إلى البلدة. احتدمت المعركة، أخذ الأطفال بمطاردة السيارة، وعلى الفور تركت سميرة مكانها من على الشرفة لمتابعة الحدث من مكان أقرب، في الواقع من أمام الجنود مباشرة، أما أنا فقد اختبأت داخل البيت وأخذت أختلس النظر من خلال ستائر النافذة ومن خلال باب تُرك موارباً قليلاً. انتهى الحدث بالسرعة التي بدأ بها، جُرح أحد الأطفال في رجله، وتم أسر طفل آخر، وتبيّن أن السيارة المصادرة كانت عبارة عن شرك، فلقد انسل جنود جيش الدفاع من الخلف بينما الأطفال يطاردون السيارة، وتم توقيف نساء مسنّات في الطريق وأمر الجنود الجمع بإزالة الحجارة من الشارع.

عندما عادت سميرة مسرعة لتحضّر طعام الغداء لأطفالها، سألتها إذا كان من الممكن أن نستمر بالحديث، فوافقت ثم طلبت من ريتا، ابنتها ذات العشرة أعوام، أن تقود صديقي المصور إلى سيارته، ثم تقودني إلى بيتهم. وفي الطريق إلى البيت، مرّت بنا سيارة جيب عسكرية، فانكمش وجه ريتا من الخوف، وكانت تلك هي المرة الوحيدة أثناء إقامتي التي أشهد بها فلسطينياً من أي عمر يظهر خوفاً من الجيش.

كان بيت سميرة، حتى بالمقاييس الأمريكية، مريحاً تماماً: أثاث

جميل وأحدث الأجهزة والأدوات، الاستثناء الأساسي كان الخلو من جهاز الهاتف، وبما يتعلق بهذا الأمر، فالبيت نموذج يمثل بالفعل المساكن خارج مخيمات اللاجئين. (حتى مساكن المخيمات في الضفة الغربية على أية حال، كانت أبنية متينة، نظيفة بشكل كبير، وليس بدون مرافق حديثة، وإن كانت مزدحمة بشكل مروع. وما يجعل المخيمات فظيعة هو البيئة القذرة: مجارٍ مكشوفة، شوارع غير معبدة، وازدحام يصعب وصفه. وقد عبر أحد معارفي من الفلسطينيين عن ذلك بإحكام إذ قال: «ليس هناك حياة في المخيمات»، حتى هذه الملاحظة، مع ذلك، بحاجة لبرهان. إن الفلسطينيين الذين قابلتهم والذين خرجوا من المخيمات واستقروا «بالضواحي»، تألموا لفقد الحياة الاجتماعية الغنية في المخيمات، والتشتت الذي يميز حياتهم الحالية)، إن مقياسي الشخصي «لمستوى المعيشة» هو امتلاك جهاز التلفزيون، ففي كثير من بيوت الفلسطينيين التي دخلتها، كان حيزاً مهماً من البيوت مشغولاً بتلفزيون ملون ذي شاشة كبيرة من أحدث الطرز، والذي يكلف أكثر بعدة مرات مما يكلف بالولايات المتحدة. ولكن التلفزيون كان التسلية الوحيدة للفلسطينيين، وهذا قد يعلل الإنفاق الهائل لشراء أحسن التلفزيونات. على أية حال، علمت لاحقاً أن السينما الوحيدة في بيت لحم قد أُغلقت مؤخراً، وليس بسبب الانتفاضة كما افترضت لأول وهلة، لكن بسبب «أن الجميع الآن يملكون أجهزة فيديو!»

تعيش سميرة مع أطفالها الثلاثة ومع أهلها، ويقوم زوجها، ستيفان، والذي اضطر لأن يسعى للعمل في أبو ظبي، بزيارتهم في مناسبات نادرة. كان اثنان من إخوة سميرة، وصهرها وأحد

أبناء عمومتها في السجن، وشقيقاها محكومان بالسجن لمدة عشر سنوات، لم أسأل عن السبب، ولكنها لمحت إلى أن التهمة سياسية. (إن الاعتقال اعتباطي مثلما هو الرعب في المناطق المحتلة، ولقد تم اعتقال موسى سابقاً، والسبب كما قال ساخراً هو أنه رفض الانخراط بفتح، فلد قام أخوه بجهد أخرق لتجنيده بفتح بواسطة المراسلة من الأردن، ولكن موسى كان مع ذلك شيوعياً ملتزماً، وينتقد بشدة التيار الأساسي في منظمة التحرير ممثلاً بفتح، وقد ائتمنني في إحدى المرات وأسرّ لي أن عرفات كان «كارثة» على الشعب الفلسطيني. المهم، أن توسلات شقيق موسى وقعت على آذان صمّاء، ولكن هذا، مع ذلك، لم يردع السلطات الإسرائيلية من إيداع موسى في معتقل الظاهرية سيء الصيت، وهو معسكر للمعتقلين الذين سيتم ترحيلهم -ولكي يدخل كان عليه أن يمر عبر ممر مشكّل من حراس يلوحون بهراواتهم، وفي الخروج كان عليه أن يمشي على أربع وأن ينبح كالكلب- ومن ثم رُحِّل إلى المعتقل الذي له سوء الصيت ذاته، كيتزيوت). لا تستطيع شقيقة زوج سميرة، والتي تعيش في البيرو منذ عدة سنوات، العودة إلى وطنها، لأن السلطات الإسرائيلية أصدرت قراراً بأنها لم تعد فلسطينية.

تخرّجت سميرة من جامعة بيت لحم، وكان ترتيبها السابعة على دفعتها، وتحمل شهادة بالأدب الإنجليزي. وإذ أصبحنا أصدقاء سألتها مستغرباً: لماذا لم تكن الأولى على الدفعة؟ أجابت سميرة أنه كان من الصعب الانخراط في الكلية وتربية ثلاثة أطفال في الوقت ذاته. وبسبب اعتقال أخويها لم تستطع الحصول على وظيفة في التدريس، حتى الصليب الأحمر الدولي رفض أن تعمل لديهم، وكانت

سميرة تخطط لتدريس أطفال الحي في بيتها، إذ أن الإسرائيليين أغلقوا المدرسة في بيت ساحور -رسمياً: بسبب امتناع البلدة عن دفع الضرائب. وتعطي سميرة دروساً يومية لأطفالها، وتلصق لهم نجوماً ملونة على كل صفحة يتمونها بنجاح لغرض «التشجيع».

في إحدى المرات سألتُ سميرة عما إذا كان يهم الأمريكيين أن يعرفوا طبيعة تطور أحاسيسها تجاه الإسرائيليين، فأجبتها «بالتأكيد». ومن الحديث الذي تبع ذلك، كان واضحاً أنها بذلت كثيراً من التفكير بالصراع الفلسطيني، وأنها تعيد التفكير في معانيه في كل مرحلة حاسمة من هذا الصراع. وبكل صراحة، فأنا لم أكن أنتظر أفكاراً معقّمة متتابعة من الفلسطينيين، فقد كنت أتوقع لقاء أناس محترمين من العامة البسطاء ممن يثيرون تعاطفي، أكثر مما أتوقع لقاء أفراد يمكنني أن أتطابق معهم تماماً، ناهيك عن أولئك الذين كان علي أن أُذعن لوجهة نظرهم في بعض النواحي (وأستثني ما يتعلق بما يخص «الشجاعة»). وفي الواقع كانت توقعاتي في محلها عموماً، فبقدر ما كان الفلسطينيون مماثلين للطبقة العاملة العادية في كل مكان، فليسوا كلهم كذلك، فإنني قابلت فلسطينيين مكّنتهم رقة أحاسيسهم وقدراتهم الذهنية من الإعراب عن رؤى خاصة لظروف الإنسان المتعرّض للاحتلال. وإن يكن هذا فظيعاً، فلا شيء يعمّق الحكمة ويبني الشخصية، كما يفعل ذلك أن تكون شاهداً شخصياً على الشر. إن موسى، الذي قاسى من التعذيب والإذلال في معتقلَي الظاهرية وكينزويت يطالب -وتصرفاته تؤكد ذلك تماماً- بعدم إضمار أي مرارة أو حقد تجاه الإسرائيليين، ويقول موسى «الكراهية هي عاطفة ضائعة».

IV بدأت سميرة حديث الذكريات عن حرب حزيران عام 1967 عندما كانت تبلغ من العمر عشر سنوات:

عندما دخلت إسرائيل الضفة الغربية، أصيبت جدتي بالهلع، خوفاً من تكرار أحداث حرب عام 1948 وما رافقها من مذابح وحمامات دم، ولقد عرضت أن تعطينا كل المال الذي وفرته في حياتها حتى نتمكن من الهرب إلى الأردن، ولكن عائلتي قررت ألا تبرح المكان. ومنذ تلك اللحظة مع ذلك، امتلأتُ بخوف جارف من الحرب والعنف.

بعد الاحتلال بقليل، أضحيتُ ودودة جداً مع ثلاث عائلات يهودية، ثم دفعتني هذه الصداقات للتفكير بالصراع العربي الإسرائيلي. لماذا لا يكون هناك سلام بيننا؟ لماذا لا نستطيع العيش معاً، وتوصلتُ إلى قناعة بأن الصداقة والسلام بين العرب واليهود ممكنان.

بدأتْ الأمور تتغير أثناء الحرب اللبنانية،فلقد ذهب أحد أعضاء العائلات التي صادقتها للقتال هناك، وعندما عاد سألته كيف يمكنه فعل شيء كهذا، وكيف يستطيع أن يدعونا بالأصدقاء ومع ذلك يذهب لقتل الفلسطينيين؟ فأجاب بأنني لا أستطيع استيعاب أن إسرائيل في حرب مع الفلسطينيين، والحرب حقيقة لا يستطيع هو تغييرها، وسواء رغبنا بها أو لم نرغب، علينا أن نتقبل هذه الحقيقة. قد دفعني للتفكير، ربما كان على صواب، ربما كنت أعيش في عالم من الأحلام، وقد يكون السلام بيننا مستحيلاً. وبدأت حينذاك أقرأ أكثر

من ذي قبل. لماذا كان على زوجي أن يسعى في مكان بعيد جداً طلباً للعمل؟ لماذا لا يسمح لشقيقة زوجي بأن تعيش في الأرض التي وُلِدتْ فيها؟

في العام 1985، أتى الجنود الإسرائيليون إلى بيتي، وأخذوا أخويَّ الاثنين بعيداً. وعند بدء الانتفاضة، حطّم الجنود بيتي، كسروا الزجاج وحطموا كل الأثاث، لقد كان الضابط المسؤول حينذاك وحشاً، وحشاً. وقلت له، لقد علمكم النازيون كيف تصبحوا متوحشين، والآن أنتم تعلموننا، ولكننا عندما سنصبح أقوياء بما يكفي ونغير على بيوتكم، لن نكسر لكم الزجاج ونحطم الأثاث فقط، ولكن سنكسِّر عظامكم وجماجمكم.

كثيراً ما أرى ذلك الضابط في السوق، وكلما رأيته أتمنى أن يكون معي كرة حديدية (تصف شكل الكرة بيدها)، ولو أنني امتلكتها، فسأقتله حينئذٍ. فعلاً سأقتله، سأهشم جمجمته فعلاً. أنا أحاول جاهدة أن أتحكم بالوحش الذي نشأ في داخلي، ولكنني تقريباً جاهزة لأن أتناول سلاحاً وأن أبدأ بالقتل، أنا أعني ذلك، وأنا قادرة على الفعل.

تساءلتْ سميرة عما إذا استطعت أن أتفهم مشاعرها، عندئذٍ خاطرتُ، وقررتُ أن أمسك بهذه الفرصة وأُفشي لها بأنني يهودي. منذ اللحظة التي انضممت بها لوفد اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة العنصرية، كان توجهي أنه لا معنى لذهابي إذا لم أفشِ لمضيفيَّ الفلسطينيِّين بأنني يهودي، وكان ذلك قراراً شخصياً بحتاً. لقد أخفى الأعضاء اليهود في الوفود السابقة خلفياتهم، ولقد اعتبرت ذلك غير

معقول، مع ذلك. لقد كنت أعلم بأن أول ما سيريد الناس معرفته في بلدي هو عما إذا كنت قد أظهرت بأنني يهودي؟ وكيف كان ردّ فعل الفلسطينيين؟

في معظم الرحلة، كانت يهوديتي نعمة لي في الواقع، إذ أن إسرائيل قد أعلنت بشكل واسع حقيقة منع دخولي. ولذلك أصبحت بطلاً شعبياً على الفور، وأصبحت «شهيد القضية» في المناطق المحتلة، وأينما ذهبت، يعلن الفلسطينيون -بأكثر مما هو لمسة من المبالغة- بأنني الآن أعرف ما هي طبيعة أن يكون المرء فلسطينياً. في الواقع، بقدر ما كانت إسرائيل تسيء لي، كان الفلسطينيون يفترضون بأنني لابد أن أكون إلى جانبهم، وذلك كان هو الشيء المهم.

في إحدى المرات، سمّى القائد الاشتراكي الديمقراطي الألماني أوغست بيبل اللاسامية بـ«اشتراكية الحمقى». وكانت ترفاً للحمقى كذلك. لكن الفلسطينيين الذين قابلتهم لم يكونوا حمقى، وكانت حالتهم السائدة من الإحباط بحيث أنه لا يمكنهم الانغماس بهكذا ترف. لقد كان اليهود مكروهين ليس لأنهم يهود، ولكن لأنهم يمارسون القمع. فكل الفلسطينيين الذين تحدثت إليهم قد عبّروا عن استعدادهم لأن يعيشوا بسلام مع اليهود، أصرّ الكثير منهم بأن تاريخ النزاع بين الشعبين بدأ مع وصول الصهاينة. لم أكن قادراً على الحكم على نزاهة تلك الشهادات، ولكنها بالتأكيد كانت تبدو أصيلة. وأفاد أحد سكان المخيمات فقال: «نحن لا نريد أن ندفع الإسرائيليين للبحر، لكننا كذلك لا نريدهم أن يدفعونا للصحراء». من غير شك، كان الإسلاميون في غزة سيسببون لي كثيراً من العناء، ولكني لم أتمكن من الذهاب إلى هناك (كانت غزة تتعرض لهجوم إسرائيلي مستمر أو حظر تجول طوال إقامتي). لقد أمضيت عدة أمسيات مع

إسلاميين من الخليل، نتناقش عن الله وعن الدين، ولكن ذلك لم يكن تبادلاً مثمراً للآراء. (وهل كانت النقاشات عن الله بين المؤمنين وغير المؤمنين يوماً ما مثمرة)، لكن لم يكن هناك أي عداء بيننا، إذ أن الشرط المسبق لأي حوار متحضر في المناطق المحتلة كان إدانة الاحتلال، وماعدا ذلك، فكل شيء قابل للحوار.

عند الإلحاح عليهم، فإن الفلسطينيين البالغين يعترفون عادة بأنهم عرفوا يوماً ما يهودياً محترماً واحداً على الأقل، وروى لي فلسطينيون يافعون قصصاً عن علاقات ودية مع يهود على شواطىء تل أبيب، وارتأى أحد المراهقين أن اليهود يصبحون وحوشاً فقط عندما يرتدُون زي الجيش، كان الفلسطينيون يعرفون عن «حركة السلام» في إسرائيل، مع ذلك بدا القليل منهم مبهورين بها. وكان ذلك هو موقفي تقريباً. في إحدى المرات، رجعت مما وصف مظاهرة إسرائيلية للكفاح من أجل السلام قرب معتقل كيتزوييت، وسألني أحد الفلسطينيين «كيف كانت، (نزهة)؟» ويا للحسرة، فإنه لم يكن بعيداً في وصفه- إذ كانت حقاً نزهة صغيرة.

التقيت مع امرأة فلسطينية مناوئة لليهود في العادة، (ولم تكن منتمية لتيار سياسي) وكانت تعمل في تل أبيب، وسألتها، هل عبّر أي إسرائيلي عن أسفه الشخصي بصدد ما تفعله الحكومة؟ فأجابت لا. هل سيكون لهكذا اعتذار أي أثر لديها؟ فأجابت «بالطبع».

الفئة الوحيدة من المجتمع الفلسطيني التي كانت ترى اليهود كأشخاص بغيضين متماثلين هم الأطفال. أخبِرْ صبياً، أو الأسوأ من ذلك، مجموعة من الصبيان بأنك يهودي، وسيكون الاحتمال بأن تُرجم أكبر من احتمال أن تُترك بحال سبيلك. لقد عرف الأطفال نوعاً

واحداً فقط من اليهود: الجيش (أو المستوطنين، فلم يكن هناك فرق بينهم). في الواقع، فإنه بالنسبة للفلسطينيين تحت سن معينة، فإن اليهودي والإسرائيلي والجندي عبارة عن مترادفات، وأن تحاول أن تجعلهم يفرقوا بينهم فذلك انخراط في تجريد لا معنى له، إذ أن تبادلية الأسماء كانت تعكس واقع خبرتهم.

إن الوقائع معرّضة للتبدل، فقد انتشر خبر بشكل سريع في الحي الخليلي حيث كنت أقيم، مفاده أن يهودياً طيباً يعيش هناك، وفي الصباح حيّاني الأطفال بتحية «شالوم». وفي إحدى المرات، أخذ صبي في السابعة من عمره بالتحديق المركّز بي بعد نهوضي من إغفاءة، فاتجهتُ إليه كي ألمسه، فسأل متفحصاً: «جيش؟». لم تكن شخصيتي مفهومة لديه، من الواضح أن أحداً أخبره بأنني يهودي، ولكنني لم أكن جندياً ولا أتصرف كالجنود. أخبرني رفيق دراستي القديم الفلسطيني بأن ابنته رأت عرفات باللباس العسكري على شاشة التلفزيون فأشارت إلى الشاشة وهتفت «يهود»، ثم أضاف: لم يحيّرها شيء بقدر أن تعرف أن الناس خارج قريتها والذين يرتدون اللباس المدني هم من اليهود. بعد رجوعي إلى الولايات المتحدة بوقت قصير، تلقيتُ من سميرة رسالة مؤثرة قالت فيها إن عائلتها وجيرانهم يعتقدون أنني «ألطف يهودي قابلوه على الإطلاق».

كان موسى يرجوني أن أبقى لفترة أطول وذلك لأنني يهودي، فكوني «يهودياً محترماً» مثّل برهاناً حياً على عقيدة «أممية البروليتاريا». وكان متشوقاً أن يعرضني على أصدقائه وأقاربه، الذين كانوا متشككين بأن مخلوقاً كهذا موجود فعلاً. لم أبحْ لكل عائلة قابلتها بأنني يهودي. وليس ذلك بسبب خوفي من تدفق اللاسامية، لكن التوقيت والظروف لم يكونا دائماً مناسبين. أحياناً كان يبدو ذلك

كتشويش للأمور، فلماذا أعقّد اللحظة وأحمّلها عبء «السؤال اليهودي»؟ وعلى كل حال لم يكن هذا هو السبب الأساسي لي كي أمارس الحصافة، فلقد كان الفلسطينيون قلقين -ولهم كل الأسباب لكي يكونوا كذلك- من أن يتم خداعهم بواسطة العملاء. هل كان علي أن أصرح وَسَطَ مقابلة (كانت واحدة من مهامي أن آخذ شهادات عن انتهاكات حقوق الإنسان) بأنني يهودي، لو فعلت ذلك سيشتبه الشخص الذي أتحدث إليه بأن هناك خللاً ما. ومن ناحية ثانية، لم يكن باستطاعتي الدخول إلى بيت فلسطيني معلناً أنني يهودي. ولم تكن الأمور بحيث أنه ليس لدى الفلسطينيين قضية بديهية تماماً كي لا يثقوا باليهود.

V أخبرتُ سميرة، بأنه ليس صعباً علي كيهودي، أن أفهم غضبها. لقد انقضت أربعون سنة كاملة لتجاوز والديَّ المحرقة النازية، وللآن لم تهدأ مرارتهما أبداً. الكشف عن كوني يهودي أصاب سميرة كالصاعقة. سألتْ: لماذا لم تقل لي من قبل؟ «لو قلت لك من البداية أنني يهودي، أشك بأنك كنتِ ستأمنين جانبي» وقد سلّمَتْ بأنني كنت على صواب. وتابعتُ كلامي، لم أستطع إخفاء الحقيقة أطول من ذلك «أنا مدين لكِ بأن أكون صادقاً تماماً معكِ كما أنتِ صادقة معي». وفي كل الأحوال، رغم أنني لم أقل لها ذلك، كنت أشعر بداخلي التزاماً شخصياً -سياسياً- لأن أواجهها بـ«يهوديتي».

طلبت من سميرة أن لا تترجم اعترافي لعائلتها، الذي كانوا يتابعون حوارنا بانتباه، فرفضتْ ذلك قائلة بأنه لا يمكن لها حتى التفكير بإخفاء أي شيء عنهم. كان رد فعل حماها الانصعاق وعدم التصديق، وكان يشير إلي بحيرة ممسكاً بورقة مجعدة في يده.

كي أتنصّل من المسؤولية لأنني يهودي، أخذت أقول أنني يهودي لأن والديَّ يهوديان فحسب، بالضبط كما هي فلسطينية لأن والديها فلسطينيان، لقد كان ذلك قدري وليس خياري. وكما أنني لا آخذ فضلاً عن عبقرية ألبرت أينشتاين، فإنني أرفض أن أتحمل المسؤولية عن حرب لبنان. في الواقع، إنني لم أكن مقتنعاً تماماً بالحجج التي قدمتها أنا نفسي. فأنا، كيهودي، قد استحق اللوم عمّا تفعله إسرائيل بالفلسطينيين. لقد اكتسبتْ إسرائيل التعاطف، وقنّعت انتهاكاتها المنظّمة لحقوق الإنسان بشكل غير يسير عبر استغلال ذكرى استشهاد الشعب اليهودي. ولكي تُخْرس النقد، ادّعت أنها تتصرف باسمنا وباسم مأساتنا. وكثير من الناس الجيدين، يهود وغير يهود، خضعوا لذلك الادّعاء وتغاضوا عن معاناة الفلسطينيين. لذلك فإن اليهود الذين اختاروا الصمت، هم متعاونون سلبيون في الجرائم الإسرائيلية، لأن صمتهم ترك إسرائيل من دون تحدٍّ وخارج موضع الاتهام.

من ناحية ثانية، فإنني أعترف بأنني لم استطع لوم سميرة على كرهها لليهود، ولأنها ضمتني بشكل تجريدي لمضطهِديها. إن والديَّ، وكلاهما ناجيان من جيتو وارسو ومن معسكرات الموت، كرِها الألمان، وقد رفضا من حيث المبدأ أن يميزوهم عن النازيين، (في الواقع، كان أبي في إحدى المرات يشيد بكتاب عن الحرب العالمية الثانية، لا لسبب إلا لأن مؤلِّفه الروسي لم يضع تمييزاً كهذا). إن الألمان الذين عرفوهم واقعياً كانوا نازيين، واليهود الذين عرَفتهم سميرة واقعياً كانوا مضطهِدين (بكسر الهاء). فهل أستطيع أن أطلب منها ما لم أطلبه من أمي وأبي؟. إنهم شخصيات استثائية من يستطيعون أن يضعوا التمييز الفلسفي «اللائق»، (وقد ظهر أن موسى يمتلك هذه الروح)، لكن

معظم البشر لا يتمكنون من ذلك. وأيضاً أَلَمْ تؤكد دولة إسرائيل بأنه ليس هناك فرق بينها وبين الشعب اليهودي؟ وبأن إسرائيل هي «دولة اليهود»؟ أَلَمْ يقرر اليهود ذاتهم بأن كون المرء يهودياً يعني أنه صهيوني؟ وإن كون المرء يهودياً يعني فوق كل ذلك دعم دولة إسرائيل؟ إذا كانت إسرائيل والشعب اليهودي رفضوا هذا التمييز، فكيف أستطيع أن أكون ساخطاً عندما يأخذهم الفلسطينيون من كلامهم؟ وعدا عن هذا التحديد النظري للصهاينة والإسرائيليين واليهود، فإن اليهود قد دعموا بشكل كاسح - أو رفضوا أن يعارضوا بشكل علني- الحرب الإسرائيلية الرهيبة ضد الفلسطينيين، ويتراجعون عن ذلك فقط عندما يكون ذلك محرجاً حتماً.

من الواضح أن اعترافي وضع سميرة وعائلتها في موقف حرج. وسألتهم إذا كانوا يريدون مني أن أغادر، وكان الوقت عندئذٍ ملائماً لإبراز الرسالة المعطاة من اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة العنصرية لكل أعضاء وفدها، والتي تبيّن بالتفصيل مهامنا وتطلب تقديم كل مساعدة ومجاملة ممكنة. أصرّ عم سميرة، الذي كان على معرفة باللجنة الأمريكية العربية، على أن أبقى، وكذلك فعل والد زوجها عندما عرف أنني كنت يهودياً «طيباً» قبل كل شيء، «مثل الإسرائيليين في حركة السلام الآن»[*]. شرحتْ سميرة، وقد كان واضحاً أنها مسرورة من النتيجة، أنه كان عليها أن تنتظر موافقتهم، والتي تشكل أهمية حاسمة في البيوت الفلسطينية. لكي يظهروا أن ترحيبهم ليس مجرد شكليات، أقامت العائلة وليمة فاخرة على شرفي. لم يكنْ حمو سميرة ليدعني أذهب بدون أن أتناول حصتين أو ثلاثة زيادة من الطعام. لم أكن قادراً، مع ذلك، على أن أرتفع إلى

[*] السلام الآن، هي المنظمة الإسرائيلية الرئيسية لداعية للسلام. - المؤلف.

مستوى المناسبة البهيجة، غرقت في صمت مفجع وخليط من الخجل والارتباك وفي تبادل غريب للأدوار، حاولتْ سميرة أن ترفع معنويات ضيفها اليهودي بطرائف الانتفاضة. وتروي إحدى «الطرائف» كيف قام عدة فلسطينيين بإلصاق علم فلسطين على رأس حمار وعلم إسرائيلي على مؤخرة الحمار. وعند رؤيتهم للحمار، حاول الجنود جاهدين أن يفهموا المغزى، ولم يحالفهم النجاح، أخيراً أطلقوا النار عليه وقتلوه. وفي الصباح التالي، نشرت صحيفة عربية صورة للحمار المقتول، وفوق الصورة تعليق «إصابة أخرى في الانتفاضة».

VI

بينما كنا واقفين نتحدث، أشارت سميرة إلى الجيش من خلال النافذة، كانوا يجبرون صبياً على تكرار ذلك الطقس المذلّ بإنزال العلم الفلسطيني الذي رفعه المتظاهرون أثناء العمل، ركضت سميرة إلى الشرفة وصاحت «بوسُه، بوسُه» بصوت متحدّ قريب من التوحش. وقفتُ مصعوقاً، واثقاً أن الجنود سيفتحون النار باتجاهها، ولا شك أن سميرة أحسّت بالخطر. وبالرغم من خوفها -وهي الوحيدة من الذين قابلتهم ذلك الصيف التي اعترفت بأنها خائفة- فإن سميرة بدت فزعة من الموت أقل من فزعها من التعرض للإذلال على أيدي الإسرائيليين، لم تعتبر نفسها شجاعة، مع أنها بمقاييسي شجاعة بالتأكيد، لقد أحست بالخوف ولكنها انتصرت عليه.

لقد شهدت هذه الشجاعة الخالية من التظاهر أينما ذهبت، فعندما أعلن الإسرائيليون عن نيّتهم بسجن قادة كل اللجان الشعبية، أصبح إسماعيل، معلم الرياضيات الذي يبدو عليه التهيب والذي يرأس اتحاد معلمي مخيم الفوار، قلقاً بشكل واضح. فاقترحت عليه (نصف مازح) بأن يستقيل من الاتحاد، فهمس «لا، لا، أنا لا أستطيع

أن أفعل ذلك مطلقاً» وفي مخيم الجلزون، وبينما كنا نفرّ من رشقة طلقات، توقفت صبية لوقت قصير لتساعد المصوّر الذي سقط على الأرض. وعندما أخذ الصبي الذي بجانبي يصرخ بلوعة قابضاً على جرحه، أسرعت النساء المسنات من بيوتهن لإنقاذه. (وقفتُ أنا منحنياً خلف جدار، وجامداً). موسى، والذي يواجه إمكانية اعتقال آخر، أخبرني بدون تبجّح «دعهم يقتلونني». سألتُ رجلاً من بيت ساحور، كم من السنين يستطيع أن يحتمل القمع أكثر مما احتمل، فأجاب بحركة مسرحية ساخرة «إلى آخره وإلى آخره وإلى آخره». لقد كنت أرى في كل يوم، أطفالاً يواجهون الجيش عارفين تماماً أن أحدهم قد يصاب بعيار ناري وربما قد يموت، ومع ذلك لم يردعهم ما هو متوقع. ومن سخرية الأقدار، أن الاحتلال الإسرائيلي يدرب الفلسطينيين على المقاومة من المهد تقريباً. فبينما كنت أمشي في الطريق في صباح أحد الأيام مع موسى وابنه عروة الذي يبلغ سنة ونصف من العمر، مرت بنا سيارة جيب، فصرخ عروة «جيش» في الوقت الذي التقط به حجراً ورماه باتجاه السيارة.

كما كانت بطولة الفلسطينيين متأججة، كان تصميمهم ضارياً بأن يواصلوا السبيل حتى النهاية. كان من المستحيل التنبؤ كم من الوقت أكثر من ذلك يستطيع الفلسطينيون الاستمرار بتحمل الرعب الإسرائيلي. كما أن إسرائيل، وبالتأكيد، تحتفظ بالكثير من الأوراق التي لم تستخدمها بعد. وما كان أكيداً هو أن الفلسطينيين لن يذعنوا للهزيمة بسهولة. ففي المقام الأول (وكان هذا أحد مظاهر الانتفاضة الذي بقي بدون تغطية إعلامية في الولايات المتحدة) فإن الحالة التي سبقت الوضع الراهن، كان لا يطاق، بحيث أن أكثر الفلسطينيين لا يمكنهم حتى الرجوع إليه، وكما وصف أحد القرويين ذلك «نحن نعرف

كيف كان الماضي، لكن المستقبل ما يزال مفتوحاً، ونحن سنراهن على المستقبل.» وثانياً، كان هناك توجسٌ منتشرٌ، بأن الرجوع للوضع السابق، ما عاد حتى احتمالاً ممكناً. وكان الهاجس أن الإسرائيليين أصبحوا ساخطين بشدة على تمرد الفلسطينيين بحيث أنه لو انتهت الانتفاضة، فإن المحتلين سينتزعون منهم ضريبة فظيعة كعقاب. كما أن هناك حاجزاً نفسياً يمنع الرجوع للماضي. فإسرائيل لم تهدف للسيطرة على الفلسطينيين واستغلالهم فحسب، بل هدفت أيضاً لإذلالهم وتجريدهم من حقوقهم القومية. في الواقع، فإن ما يرافق الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة، هو الجهد المستمر لثني الشعب المحاصر. وأخيراً، فإن عظام ظهور الفلسطينيين قد استقامت، أخيراً، امتلكوا الجرأة لأن ينظروا مباشرة في أعين الجنود الإسرائيليين. هذا الشعور المتجدد باحترام الذات كان «المكسب» الأبرز للانتفاضة. كان من الصعب تصور الفلسطينيين وقد انحنت ظهورهم وأشاحوا بنظراتهم ثانية. ولكن كان ظاهراً أن إسرائيل لن تقبل بأقل من ذلك.

مع ذلك، كان من الواضح أن مستوى الالتزام بالانتفاضة غير متساوٍ، فقد تم تفجير (فيلاً) رحبة في بيت لحم، لأن مالكها رفض إغلاق أعماله في أيام الإضراب العام. كما أن الضيق المادي المفروض من الإسرائيليين قد أقنع عائلات عديدة بأن تفكر بالهجرة. أحد معارفي من بيت لحم، وهو شاب في الثامنة عشر من عمره، ويجيد عدة لغات، ويتصور نفسه إلفيس بريسلي الثاني، يخطط للرحيل إلى أستراليا. وأحد أسباب هذا العزم هو أنه حتى أكثر الناس احتراساً في الضفة الغربية، لم يكونوا آمنيين بالضرورة. كان الابن الأكبر، الفارع القامة، لأحد العائلات العربية الناجحة في القدس الشرقية قد

احترم التماسات زملاء صفّه واختيارهم واحداً منهم بشكل اعتباطي وإشباعه ضرباً على مرأى من الناس.

إن أحد أخطاء إسرائيل الكبيرة في المناطق المحتلة هو نسيانها أن الفلسطينيين بشر أيضاً، وأنهم يعتزّون بالكرامة. إن إنسانية الفلسطينيين تعبر عن نفسها بطرق بسيطة وبطرق واضحة أيضاً. في إحدى المرات، وبينما هم يقفون أمام الكاميرا التي تخصّني، وقف رجال فلسطينيون مسنون وقاماتهم منتصبة تماماً، كما لو أن الفخر الذي يحملونه يعوّضهم عن حياة الإذلال التي أطبقتْ عليهم. ومع ذلك، فإن إسرائيل تؤمن -أو على أية حال تتصرف- وكما لو أنه ليس هناك حدود للمدى الذي تدفع الفلسطينيين إليه. كانوا الآن يحصدون الزوبعة، فلقد تم دفع الفلسطينيين من فوق الهاوية. وكما وصف أحد الجيران ذلك «إذا بقيتَ تصب الماء في كأس، عند نقطة ما لابدّ أن تفيض» ولغاية التأكيد، فإن جميع من قابلتهم، ومن ضمنهم الناشطين، قد عبّروا عن دهشتهم لنوع الانضباط الجماعي، والشجاعة، وكبح الذات الذي يفوق طاقة البشر، والذي أظهره الفلسطينيون في التسعة أشهر المنصرمة. وقد سلّم الجميع بأن ذلك كان مفاجأة تامة.

عندما ثار مقاتلو جيتو وارسو، على العكس من أي حساب عقلاني، ضد مضطهديهم الألمان، سجّل التاريخ أنهم إنما فعلوا ذلك بدافع من الشرف واحترام الذات. وعندما ثار الفلسطينيون، على العكس من أي حساب عقلاني، ضد مضطهديهم الإسرائيليين، نبذ الكاتب الإسرائيلي ميرون بينيفنستي ونقاد آخرون ذلك بوصفه «نشوة». إن بعض الناس لا يطيقون أن يروا الفلسطينيين يملكون نبالة الروح الإنسانية ذاتها كما اليهود: ولابدّ أن الفلسطيني الذي يحمل الاعتزاز يعاني من اختلال نفسي!.

VII

بينما كنت أتجهز لمغادرة الضفة الغربية، ألحّت علي سميرة بأن أبقى على اتصال، وأرادت خصوصاً أن تعرف عن جهودي في الولايات المتحدة بما يخص الفلسطينيين. إن قرار صديقها اليهودي بالقتال في لبنان قد سبب لها جرحاً دائماً؛ ومن الواضح أنها أحسّت بذلك كخيانة شخصية عميقة. لكنني اشتبهتُ بأنها لا تزال تريد بقوة أن تصدّق بأن ليس كل اليهود أشراراً. وكانت تنتظر مني أن أزودها بالدليل على ذلك.

إن دليلاً كهذا لن يكون وشيكاً في الضفة الغربية. فإلى جانب الجنود، فاليهود الذين يراهم الناس كانوا من المستوطنين، وكان من السهل تمييزهم، إذ يحملون بنادق تتدلى على ظهورهم. في إحدى المرات، وقف أحد المستوطنين بجانبي في سوق الخليل، حاملاً أكياساً ثقيلة بيديه الاثنتين، كان يمكن لأي طفل يبلغ الخامسة بأن يختطف سلاحه، فالغرض الوحيد من حمل السلاح كان نفسياً، ليؤكد قدرته وسلطته في مقابل عجز الفلسطينيين. لم يكن كل الثمانين ألف مستوطن، متدينين متعصبين مع ذلك، فثلاثة أرباعهم، كما قيل لي، كانوا غيروا مكان إقامتهم إلى الضفة الغربية لأسباب اقتصادية محضة وبالتحديد، بسبب المنازل الرخيصة المدعومة من الدولة والمتوفرة هناك. لقد صادق موسى اثنين من هؤلاء الإسرائيليين، يعيشان في مستوطنة كريات أربع بجانب الخليل، ولكن اعتقاله، مع ذلك، قد أصابهما بخوف شديد، فقطعا علاقتهما معه بشكل مفاجىء.

المستوطنون في بيت حداش، سجنوا أنفسهم في صف واحد من المنازل ناتىء كخنجر في قلب الخليل. سألتُ يوماً صديقاً فلسطينياً عما إذا كان يستطيع أن يفهم ما الذي يجعل المستوطنين

يتصرفون هكذا، فأجاب: «كيف لي أن أفهمهم إذا كانوا هم لا يفهمون أنفسهم». إن رقماً كبيراً وغير طبيعي من هؤلاء «المستوطنين العقائديين» وفدوا حديثاً من الولايات المتحدة. لقد علّقت محامية الحقوق المدنية الإسرائيلية، ليئا تسيميل، مرة لجمهور من الأمريكيين: «يجب أن تعرفوا بأنه بعد الأعتدة الحربية، فإن ثاني أكبر شيء تصدّرونه إلى إسرائيل هو اليهود المخبولون».

تتمدد المستوطنات اليهودية على قمم التلال في الضفة الغربية، كما هي القلاع في القرون الوسطى، مشكلة زوائد شاذة على المناظر الطبيعية[4]. وقد تظهر المستوطنات وكأنها علب من غرف النوم المكتظة في الضواحي، إلا أنها لا يمكن أن تندغم بأي مدينة بشكل مألوف. أثناء مرورنا بالسيارة بمحاذاة مستوطنة من تلك المستوطنات، علق أحد الفلسطينيين ممن يحملون الفكرة المألوفة عن التجمعات الحضرية فقال: «بلا معامل، لن تكون هناك وظائف».

إذا تركنا جانباً مخافر المستوطنين المتناثرة، تبقى الضفة الغربية فلسطينية متجانسة، لقد توقعتُ أن يكون التأثير «اليهودي» منتشراً في المناطق، ولكن وبأي مقياس واقعي، فمن الواضح أن الأمر لم يكن كذلك. كان من الصعب الفهم، كيف يعتقد أي يهودي عاقل بأن الضفة الغربية جزء من إسرائيل. إذ أن الكثير من اليهود يؤمنون فعلاً بأن المناطق المحتلة تتبع لهم بـ«الحق التاريخي» -وأن اليهود «من» الأرض في حين أن الفلسطينيين «على» الأرض فحسب، كما عبّر أحد الفلسطينيين عن الحالة اليهودية بدقة- وهذا الوهم يكشف أن هؤلاء اليهود يعانون من انفصال مروّع عن الواقع.

في صباح أحد الأيام، أتى ممثل عن الحركة التقدمية للحقوق

المدنية ليحاضر في وفدنا عن اللجنة الأمريكية العربية لمناهضة العنصرية. سياسياً، داعماً نشوء دولة فلسطينية، ومبدأ التفاوض مع منظمة التحرير. وحتى خفّض المعونة الأمريكية الداعمة لإسرائيل. ولكنه مع ذلك، وبما يتعلق بالأسئلة العقائدية، كان أقل اقتراباً بكثير. وفي الواقع كان محتاراً من حقيقة أن الكثير من الأمريكيين يسلمون ببساطة بأن الغزو الأوروبي للعالم الجديد قد ارتكب ظلماً فادحاً بحق السكان الأصليين -هذا شيء لا يمكن جعله وكأنه لم يحدث، ولكنه مع ذلك ظلم فادح. ولقد آكد أنه نظراً لأن ما يقارب عشرة آلاف يهودي قد عاشوا في فلسطين بغير انقطاع، فإن الصهاينة لهم «حق تاريخي» لتأسيس دولة هناك. فأجبته مفنداً هذا الزعم أنه إذا كان عشرة آلاف يهودي معظمهم ضد الصهيونية يثبتون شرعية الادّعاءات الصهيونية في فلسطين في العام 1880، فإن ثمانين ألفاً من اليهود -تعصّبهم للصهيونية ليس قليلاً- يثبتون شرعية الادّعاءات الصهيونية بصدد المناطق المحتلة، مع ذلك ألم يكن حزبه يجادل تلك الادّعاءات بالتحديد؟ كما أنه قد أعلن عن نيّته لأن يحاضر في الولايات المتحدة في الشهر التالي تحت رعاية مؤسسة إسرائيل الجديدة، والتي «تجمع المال للمشاريع الخيرية، مثل المستوطنات الزراعية». وقد طرحت، أنه لابد أن يكون هناك شيء في غير مكانه، إذا كان اقتصاد الدولة متأزّماً دائماً وتحت الإعانة، مع ذلك فإن سُبُعَ السكان -أي، خمسمائة ألف إسرائيلي- يسافرون للخارج في إجازات سنوياً. سألتُ ناشطة مخضرمة من حركة السلام في إسرائيل، ماذا سيحدث إذا حاولت الولايات المتحدة فرض تسوية تتضمن إنشاء دولتين في إسرائيل بواسطة قطع الإعانات المالية الضخمة؟ فأجابتْ: «ستفاجأ من سرعة موافقة وانضباط الناس عندما لا يجدون زبدة يدهنون بها خبزهم».

VIII

كان الصراع الذي يفصل طرفي الخط الأخضر (حدود ما قبل حزيران عام 1967) هائلاً، بحيث أنه لدى اجتيازه يشعر المرء بنفسه كالخائن. إلى جانب المشاركة في تظاهره بقرب معتقل كيتزويت في النقب، فإن اتصالي الجسدي الوحيد مع إسرائيل كان جولة على طول شارع بن ياهوداه في القدس الغربية. ما رأيته يشابه تماماً المشهد في (جرينتش فيلج) في مدينة نيويورك، بكل ثرثرات المقاهي المتبطلة والمعارض الفنية، المراهقون يتغازلون.. بَعْدَ تركي لنظام الرعب الذي كنت أشهده قبيل لحظات على بعد بضعة مئات من الأمتار، ربما كنت سأسامَح بأن أندمج ببهجة شارع بن يهوداه وفُحشه.

بغض النظر عمّا كان من الممكن للإسرائيليين أن يفعلوه على طول شارع بن يهوداه، فإن شيئاً واحداً لم يكونوا ليفعلوه بالتأكيد، وهو المعاناة. إن الحكمة المقبولة بأن الاحتلال هو «مأساة لكلا الشعبين» مطمئنة أخلاقياً، ولكنها فعلياً عبارة عن سخافة. أين كان حظر التجول، المذابح، الحصار في شارع بن يهوداه؟ صحيح أن العوزي كان حاضراً في كل مكان، ولكن ذلك ليس لأن الأمن اليهودي مهدَّداً، إذ أن عدد الإسرائيليين الذين قُتلوا على أيدي فلسطينيين في إسرائيل والمناطق المحتلة ما بين عامي 1982 و1986 زاد قليلاً عن ثلاثين شخصاً. وهذا المجموع يساوي تقريباً عدد جرائم القتل في مدينة نيويورك خلال أي أسبوع، مع أنه ليس هنالك واحد من كل عشرة أشخاص في (جرينتش فيلج) يحمل مسدساً آلياً. في حضارة ذكورية عميقة كما هو الحال في إسرائيل، فإن حمل الأسلحة في العلن ربما كان يشبع حافزاً نفسياً عميقاً. ولغرض الحكومة بأن تتلاعب بلهفة مواطنيها للأمن، فإن التلويح بالأذرع يخدم ويعزز عقلية الحصار.

ولكن، هناك مفهوم واحد فقط مؤهل لأن يجعل النزاع الفلسطيني مأساة للشعب اليهودي، وكما أن الألمان ولأجيال عديدة آتية سيكون عليهم عبء النازية؛ لذلك فإن اليهود ولأجيال عديدة آتية سيكون عليهم حمل عبء الاعتداء القاسي ضد الشعب الفلسطيني. وتماماً كما هو اسم ألمانيا مرتبط بلا فكاك، ليس فقط باسم بيتهوفن وبريخت، ولكن مع اسم هتلر وهملر، فإن اسم الشعب اليهودي سيرتبط بلا فكاك ليس فقط مع اسم ماركس ومينهاين، ولكن أيضاً مع اسم شارون وشامير. كما أن الحرب الإرهابية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين قد لطخت أيضاً ذكرى الستة ملايين شهيد يهودي، وهذه جريمة وليست مأساة.



بعد أن تجهزتُ للمغادرة، أخبرتُ سميرة كم كنت متلهفاً للرجوع إلى الولايات المتحدة، كي أضع هذه الوقائع الكابوسية خلفي. فردّتْ برقة ولكن بتهكم: «عندما ترجع إلى بلدك، تستطيع أن تستريح، وكل ما كنت شاهداً عليه هنا سيبدو كحلم مزعج، ولكن أين عليّ أنا أن أذهب؟ متى سأجد السلام؟».

ملاحظات الفصل الأول

(1) Shlomo Avineri, The Making of Modern Zlonism, (New York, 1981), 123.

(2) Ibid., 123-24.

(3) لقد حدث ذلك، بما يتعلق باجتماع تشرين الثاني من العام 1988 للمجلس الوطني الفلسطيني، راجع:

Norman G. Finkelstein, «Israel and the (Scourge) of Palestinion Moderation», New Politics (summer 1989).

(4) في الحقيقة، لقد استدلّ عضو البرلمان البريطاني، إيان جلمور، من هذه المنشآت الشائهة على عبرة مشؤومة: «في بشاعتها وشذوذها، فإن وجودها يذهلك في بلد يتصف بتنظيمه الفني الحاذق. إنها تظهر وكأنها تقول: «نحن نعرف بأننا دخلاء، ولكننا لا نهتم لأننا مصممون على تحطيم ليس فقط الفلسطينيين، ولكن مشهد أرضهم أيضاً» إنهم قد نجحوا في ذلك، ولكن أكثر من اللازم».

(London Review of Books. «Diary», 23 May 1996).

الفصل الثاني

العادي، والفظيع، والسامي

I على بعد عشرة دقائق بالسيارة من بيت لحم، تقع بلدة بيت ساحور، وهي متاهة من الأبنية الحجرية الحديثة، تنهض من وادٍ عميق محاط بالتلال. سكانها الخمسة عشر ألفاً، ومعظمهم من المسيحيين، يقطنون عالماً يتوازن بين التقاليد والحداثة، ومع ذلك فالاتزان يميل تقريباً باتجاه الحداثة. مازال يُنتظر من المرأة المتزوجة لأن تنضمّ وتعيش مع عائلة زوجها، لكن الزيجات لم تكن مرتّبة سلفاً، ولا ينتظر من المرأة أن تتزوج حتى أوائل العشرينات من العمر، بينما كان يتم تزويج النساء من الجيل السابق بعد سن الثالثة عشر، أصيب حمو سميرة بدهشة واضحة عندما علم بأنني ما أزال أعزباً، وأنني لا أعيش مع والديّ أيضاً، وسأل مستغرباً «ولكن من يصنع لهم طعام الإفطار في الصباح؟». ما تزال عناية الأسرة هي المسؤولية الأساسية للمرأة، ولكن النساء المتزوجات ينخرطن أكثر فأكثر في قوى العمل، كما هو الحال للنساء العازبات. في إحدى الليالي، عندما رآني ابن سميرة، باسل ذو الستة أعوام، أقوم بغسل

الصحون، علّق قائلاً إنها «خطيئة» أن يقوم الرجال بأعمال المنزل (على أية حال، هكذا قالت جدته)، ولكن في أيام تنظيف البيت فإنه ينضم بسعادة إلى أمه وأخواته. يحمل الفتيان والفتيات اليافعون الذين في صف اللغة الإنجليزية الذي أقوم بتدريسه الطموح ذاته تقريباً، بما يتعلق بمهنة المستقبل (لأن يصبحوا أطباء أو محامين أو مهندسين)، ولكن جميع الفتيات قلن أن على زوج المستقبل أن يساعد في الأعمال المنزلية، واتّفقَ معهن نصف الفتيان، ولكن قلة من آبائهم كانت تساعد فعلاً في أعمال المنزل.

تلبس النساء البكيني على الشواطىء، ولكن أزواجهن يراقبون بقلق أي نظرات خفية مختلسة من الغرباء. لم يكن يبدو أنه مجتمع مغالٍ في الشهوانيات، ولكنه ليس مجتمعاً مكبوتاً أيضاً. يلبس الرجال والنساء أحدث الموضات، إن لم يكن أكثرها أناقة. ولم يكن الرجال يرمقون النساء بوله، ولم تكن النساء تتبرج للرجال. يشعّ اليافعون بهالة من البراءة السليمة، ولكن لم يكن يبدو عليهم الاستحواذ الجنسي والإنهاك. الزوج الذي يعمل في الخارج يسمح لرجل أعزب بأن يحل ضيفاً على أسرته، ولكن لا يمكن لزوجته أن تمضي ليلة واحدة خارج البيت بدون الحصول على إذنه. موسى، صديقي الشيوعي من مخيم الفوار في الخليل، لا يكل أبداً عن ندب «تخلف» العلاقات الاجتماعية بين أهل بلدته (وخصوصاً بين الجنسين) لدى مقارنته ذلك مع الغرب. ولقد كنت مصراً على أنه يحمل صورة مثالية عن الحياة في الغرب (ولا شك أنها متأثرة بفكرة ماركسية مبسطة عن «التقدم») إذ أنه يرى التأثير التحرري للحداثة ولكنه لا يرى الانهيار القيمي، الوحدة، الزيجات المحطمة، البيوت التي يعيلها أحد الوالدين منفرداً، الشبق، العنف، إساءة استخدام المادة، الإساءة

للأطفال، وكل ذلك مما رافق الحداثة. وعندما قلت بأن مجتمعاً ينصِّب أجهزة للكشف عن الأسلحة في المدارس لا يمكن أن يُعتبر «حراً»، ردّ قائلاً: «الحرية لها ثمن»، مع ذلك لا يمكن اتهام موسى بالنفاق، ففي إحدى الليالي كان موسى وعائلته في بيت سميرة للزيارة وتناول العشاء، فأخذ ابنه وابنته على الفور يقلبان محتويات المنزل رأساً على عقب، مما دفع باسل للبكاء («لم أستطيع أن ألعب معهم، إنهم مجانين») وكل هذا قاد حما سميرة لفورة من الغضب. ولكن موسى، بالطبع، لا يؤمن بضبط الأطفال. (لم أستطع إلا أن أستدعي ذلك المشهد من مذكرات أ. س. نيل في كتابه «سمر هيل»، إذ امتلأت الأم زهواً عندما أخذت ابنتها تدب بقدميها على البيانو الكبير ثم قفزت على الأريكة، وصاحت بابتهاج «طفلة مثالية من آل نيل» بينما وقف السيد نيل مصعوقاً) ومما أثار فزع عائلة سميرة، الذين لم يروا من قبل زوجة توبّخ زوجها في العلن، فإن زوجة موسى، عفاف، أخذت تنتقد فلسفته «المتحررة» بشدة خلال العشاء. وطوال الوقت كان موسى يترجم لي انتقاداتها بكل صدق وحيادية، مما يجعله، بنظري، رجلاً متحرراً بشكل استثنائي، حتى بأكثر المعايير الأمريكية صرامة.

خلال السنوات الأولى من الاحتلال، شهدت بيت ساحور ازدهاراً اقتصادياً غير مسبوق. وكان كثير من السكان ينظرون للماضي بلهفة وحزن، إلى تلك الأيام حين كان المال والغذاء وفيرين، وكانت الأعراس مُترفة تقام في أحسن فنادق بيت لحم، وكانت عطل نهاية الأسبوع تُمضى في نزهات عائلية إلى البحر الميت أو بحيرة طبريا. وكان الشبان اليافعون يفضلون قضاء الأوقات على شواطىء تل أبيب أو في النوادي الليلية في القدس، كانت السياسة شأناً سرياً ميدانه طلاب الجامعات والمثقفون. وتتذكر سميرة بحسرة كيف كان

الفلسطينيون في العام 1982 وخلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، يشاهدون المذابح في نشرات أخبار المساء ويبكون دموعاً مرة، ولكن بدون فعل أي شيء. من الصحيح أن عدة عشرات من سكان بيت ساحور كانوا قد اعتقلوا من قبل الإسرائيليين بسبب النشاطات السياسية في العام 1985، ومن الصحيح أيضاً أن البعض مازالوا يتذكرون بمرارة حضور الاضطهاد الإسرائيلي، ويقول شقيق سميرة بتأمل «أنا لا أتذكر أبداً أنني شعرت بسعادة خالصة في أي وقت تحت الاحتلال الإسرائيلي، الاحتلال يعني أن لا حرية». ولكن على العموم، لم يكن أحد يهتم كثيراً بما يفعله عرفات، ودعْ جانباً ما كان يفعله الراديكاليون مثل جورج حبش قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (بعد ذلك، أصبح حبش ربما أكثر شعبية من عرفات في بيت ساحور).

في منتصف السبعينات، وخصوصاً بعد أن تقلد تكتل الليكود مقاليد الحكم في العام 1977، بدأت الأمور تسوء في بيت ساحور، إذ قد بدأت إسرائيل تتابع بقوة أكبر استراتيجيتها المزدوجة «الترحيل البطيء» (باستمالة الصفوة المتعلمة والمتخصصين للمغادرة) و«التفقير» (بتحويل الباقين إلى جيش احتياطي من العمال لاقتصاد إسرائيل). وبالرغم من تلك السياسات، فإن سجل إسرائيل بانتهاكات حقوق الإنسان، ومن ضمن ذلك، هدم البيوت، الإبعاد، والتعذيب قد سجل تحسناً في الواقع، تحت حكم رئيس الوزراء بيغن. وعلى أية حال، وبالنسبة لإسرائيل، فإن أوراق حساباتهم كان مشجعة، إذ يهاجر ما يبلغ عشرين ألف فلسطيني سنوياً بسبب الضغط الإسرائيلي والركود الاقتصادي العام، الذي حل في بداية الثمانينات في الضفة الغربية وغزة. ولكن عندما قلّت الفرص في دول الخليج، ووضع الأردن

تحديدات صارمة على السفر، بدأت الهجرة بالانكماش، وبدأت إسرائيل حينئذٍ بشد البراغي بشكل أكبر في الضفة الغربية وغزة، بهدف خنق الاستقلال الاقتصادي الذاتي للفلسطينيين، والذي تعرّض مؤخراً لضربة قاسية بسبب الركود الاقتصادي وخسارة الحوالات المالية القادمة من الخليج. في بيت ساحور، أخذ الاعتداء أساساً شكل تصعيد هائل للضرائب.

كانت بداية تحوُّل تحصيل الضرائب إلى قضية في منتصف السبعينات عندما قدّمت إسرائيل، بما يخالف القانون الدولي بشكل واضح (رغم أن المحكمة الإسرائيلية العليا قد قضت بغير ذلك) ضريبة جديدة للقيمة المضافة في الضفة الغربية وغزة. ولم يطبَّق قانون تحصيل الضرائب بقسوة إلا بعد مرور عقد من الزمن، وذلك عندما قررت إسرائيل استغلال السياسة الضريبية لمنفعة سياسية. ولنورد مثالاً، فإن صاحب معمل يعيش في البيت المجاور لبيت سميرة قد وُجّه إليه أمر في العام 1985 بأن يدفع مائة ألف دولار عن ضرائب متأخرة -وهذا المجموع، يقول صاحب المعمل، أكبر من الإيراد الإجمالي لكل العقد السابق. ولقد رأى الفلسطينيون أن سياسة إسرائيل ظالمة، ليس فقط بسبب قيمة التخمين الفاحشة للضرائب، ولكن أيضاً بسبب ضآلة الخدمات المقدمة لهم في المقابل. كانت المدارس الحكومية متداعية، والعناية الصحية فظيعة، وبما يتعلق بالمرافق «المدنيّة» كانت بيت ساحور قاحلة كالأرض القفر. إذ يبحث المرء بدون طائل عن حديقة عامة، مكتبة عامة، متحف، بركة سباحة عامة. كلما شاهد باسل ذو الستة أعوام إعلاناً تجارياً في التلفزيون الأردني يعلن عن حديقة ألعاب وملاهٍ، ينتابه الوجوم. أخبرتني سميرة أن كل الأهالي في بيت ساحور يواجهون نفس المشكلة. وتقول سميرة،

بعد تحقيق الدولة، سيكون الأمر الأول والأهم إنشاء مركز ترفيه للأطفال.

وافق الكل تقريباً في بيت ساحور على أن قانون الضرائب قد سبب الانتفاضة، وقال جاري مؤكداً «لو بقيت سياسة الضرائب كما كانت حتى عام 1985، لما كان هناك انتفاضة حتى مائة عام قادمة». عندما طلب من أحد الشبان أن يحدد أكثر مظاهر الاحتلال عدائية، أجاب بسرعة «الضرائب» في الواقع، كان إيقاف دفعات الضريبة من أكثر أعمال الانتفاضة شعبية في بيت ساحور. (وبالقدر الذي كانت فيه هذه الخطوة قد اتُّخذت بدون أن تأخذ إسرائيل في الاعتبار قدرتها على فرض الإذعان لها، فلقد تبين أن ذلك كان خطأً سياسياً جزئياً). وأبدى أحد السكان رأياً بأنه لو خفضت إسرائيل عبء الضرائب، فستنتهي الانتفاضة على الفور.

ربما لم يكن هذا صحيحاً، ففي حركة ليست مألوفة للتلاميذ الدارسين لتاريخ الولايات المتحدة، تحولت المناداة بـــ«لا ضرائب من غير تمثيل» تحولاً جذرياً إلى المطالبة الأوسع بتقرير المصير وتأسيس الدولة. فبسيطرته على مخيلة جميع الفلسطينيين في بيت ساحور تقريباً، أخذ هذا المطلب يمتلك حياة خاصة به. وأصبح الوعي السياسي والمشاركة، منذ الانتفاضة، ينتشران بين قطاعات كانت سابقاً غير ناشطة أو مُسيَّسة من سكان بيت ساحور. وكما وصف ذلك جورج حنا، الفيزيائي من جامعة بيرزيت، «قبل الانتفاضة شرع المثاليون فقط بالنضال، وقد أعطوا كل ما في وسعهم، ولكن ذلك لم يراكم شيئاً مهماً. والآن فإن كل شخص يعطي شيئاً قليلاً فقط، ولكن النتيجة أكثر تأثيراً بكثير.

II

في آب 1989، علَّق كل من تحدثت إليهم في بيت ساحور عند نقطة معينة من حديثهم، على كيفية اختلاف الأمور عما كانت عليه لدى زيارتي السابقة قبل سنة بالضبط. لقد كان شبه غياب، الاحتجاجات العامة الحاشدة هو التغيير الأشد وضوحاً، ففي الشهور الأولى من الانتفاضة كانت المظاهرات الضخمة والتي انضمت فيها الأمهات إلى أطفالهن، كما يتذكر ذلك موسى بحنين، عند المتاريس يغنين الأغنيات الوطنية ويرجمن الجنود، كانت تلك المظاهرات، ولو رمزياً على الأقل، هي قلب العصيان. تأخذ المواجهات الآن في بيت ساحور، بصورة أساسية شكل الكمائن، إذ يرمي الشباب الحجارة على الجنود والمستوطنين، دسته من المرات أو ما يقارب ذلك في كل يوم من أسطح المنازل.

إن قلة الاحتجاجات العامة الحاشدة في بيت ساحور لم تكن علامة بذاتها على أزمة الانتفاضة، إذ نزعت الانتفاضة من البداية للتطور بصورة غير متساوية. على سبيل المثال، كانت بيت لحم في وقت مبكر تنظر إلى بيت ساحور لتأخذ الإلهام، لكن الأدوار قد انعكست، إذ أصبحت بيت لحم أكثر وأكثر موقعاً للمواجهات العنيفة الحاشدة مع الجيش. وتحرك مركز إعصار الانتفاضة إلى الشمال، عندما أخذت مدن طولكرم، جنين، ونابلس بتوجيه أشد للمقاومة «الفعّالة» (إلى جانب غزة بالطبع).

الأمر الأهم، أنها في شكلها الأصلي، ما كانت الانتفاضة لتستطيع أن تحتمل طويلاً. ولكي تستمر بالبقاء، كان عليها أن تجد شكلاً بحيث تسمح للحياة اليومية بأن تستمر، فالمظاهرات الحاشدة غير المنقطعة لا تسمح بحدوث ذلك. ولأسباب مشابهة، ما عاد الفلسطينيون يهرعون خارجاً لمعرفة ما يحدث كلما سمعوا صوت

إطلاق نار، كانوا ينتظرون بصبر وصول الأخبار من الأقارب والأصدقاء أن من نشرة أخبار ما بعد الظهر من إذاعة القدس، والتي كانت تعدد كل أحداث اليوم السابق. مازال الاهتمام والتشوق موجودين، ولكن من دون إيقاع متوتر.

بالإضافة إلى ذلك، فمع تزايد القمع أصبحت الكمائن أكثر الخيارات التكتيكية منطقية. ففي الأشهر المبكرة للانتفاضة، لم تكن مواجهة الجيش بشكل مكشوف تعني سعياً مؤكداً للموت، إذ كان الجنود يطلقون أحياناً طلقات تحذيرية، أو أنهم كانوا يطلقون ليسببوا الجراح، والآن فإنهم يطلقون بقصد القتل. كما أن الكمائن المتعددة سببت تقريباً الثمن ذاته لإسرائيل كما كانت تسبب المظاهرات الحاشدة السابقة. وأخيراً، فإن المقاومة «السلبية» يمكن أن تكون نضالية، كما هو الحال تماماً بالمواجهات «الفعالة» -وتتطلب أيضاً المخاطر ذاتها تقريباً، وإن يكن من نوع آخر.

إذا أخذنا مقاومة الضرائب بالاعتبار، فإن ما يزيد عن تسعين بالمئة من القرويين في بيت ساحور، مازالوا يرفضون دفع الضرائب، مع أن النسبة في الضفة الغربية قد انخفضت بالمجمل إلى ما يقارب الخمسين بالمئة. لقد وضعت إسرائيل كامل ثقل جهازها القسري على كاهل الناس لكي تكسر الإضراب عن دفع الضرائب، ولكن بدون جدوى تقريباً. تم أمر أحد الصيادلة بوضع كامل موجودات محله، والتي تبلغ قيمتها 150.000 دولار، في الشمس حتى فسدت، كما تمت مصادرة أفران أحد الخبازين. أحد المقاولين، وبعد أن رفض خيار عدم دفع الضريبة، ورفض فقط أن يوقع وثيقة تقول بأنه دفعها، تلقى حكماً بالاعتقال الإداري لمدة ستة أشهر. وبناءً على ذلك فإن البروفسور حنا من جامعة بيرزيت يستنتج أن الانتفاضة لم تكن تمر

بأزمة ولكنها قد أُخضعت للروتين، ربما أنها الآن أقل روعة وأكثر ركاكة، ولكن الانتفاضة الآن قد استجمعت شكلاً سيمكنّها من الاحتمال لسنوات، ويعتقد حنا أنه لابد لها من ذلك لكي ينجح الفلسطينيون.

ولكن بالرغم من منطقية الاستراتيجية الجديدة، لم يكن من الممكن الإنكار بأن المعنويات قد هبطت، فقبل سنة من ذلك أظهر الفلسطينيون حماساً وتفاؤلاً أكثر، والآن فإنهم يظهرون يأساً وتوجساً أكبر. وهناك عوامل متعددة تفسر هذا الهبوط بالمعنويات.

أ- الفوضى الاقتصادية: مر الوضع الاقتصادي للضفة الغربية وغزة في أوقات عصيبة جداً، وقد تلقى الفلسطينيون ضربة شديدة جرّاء الانخفاض السريع في قيمة الدينار الأردني، فقفزت كمية الخمسين كيلوغرام من السكر والتي كانت تكلف خمسة دنانير قبل سنتين من ذلك، إلى ثلاثين ديناراً. وكان الآلاف من كاسبي لقمة العيش يرزخون في السجن، وحلّقت نسبة البطالة إلى ثلاثين بالمئة. وبسبب غموض المستقبل، فإن الرساميل الأخرى قد جفّت. كما أنه بحلول العمالة المحلية مكان العمال الفلسطينيين في دول الخليج، فقد قلّت فرص العمل في الخليج. وأصبح على الفلسطينيين ممن يحملون الدرجات العلمية أن يعملوا بالأعمال اليدوية أو أن يبقوا بدون عمل، كذلك فإن الحوالات المالية من الخارج قد انخفضت انخفاضاً حاداً. أُجبر والد سميرة على العودة بعد اعتقال ولديه مما سبب له خسارة عمل مربح في مهنة المقاولات في الخليج. وإذ أصبح المال المتوفر بالكاد يكفي لتغطية الاحتياجات الأساسية، فقد انخفض مستوى المعيشة إلى رتابة طاحنة من الفقر. قال واحد من بيت ساحور شاكياً «كل ما نفعله هو أن نأكل، ننام، ونعمل. لا صالات سينما، لا رحلات».

ومن ناحية أخرى، ففي الوقت الذي أخذ به الفلسطينيون وباضطراد ينتجون الحاجات الأساسية بأنفسهم، فإن مقاطعة المنتجات الإسرائيلية قد استمرت، يعرض أهالي بيت ساحور بفخر حليباً للبيع أنتج في أريحا، ويدير موسى الآن مزرعة دجاج مجهزة بثلاث حاضنات تفريخ في الباحة الأمامية لبيته.

ب- المشاحنات السياسية: أصبح الميدان السياسي ذو معالم متفتتة -بل معادية- أكثر بكثير من ذي قبل، وأصبح الإجماع بين الحركات الفلسطينية يظهر علامات توتر. لم تعد القيادة الشعبية الموحدة موحدة تماماً، ومؤخراً أخذ أحد التنظيمات المكونة لها، وهو الجهاد الإسلامي، يصدر نشرات منفصلة. وقد أثار عرض من الحكومة الإسرائيلية بإجراء انتخابات محلية يتحدث بدستة من الأصوات المتضادة. أصبحت اللجان الشعبية المحلية في أماكن كثيرة مفتتة حسب الخطوط الحزبية لأعضائها. وأخذت الحركة الإسلامية حماس تكتسب الأرض بثبات. وقد تبدّد الكثير من الطاقة الشعبية للانتفاضة بسبب «المبادرات السياسية» لمنظمة التحرير. وبينما أخذت فتح، وحتى الحزب الشيوعي يركزون على المفاوضات في تونس، فإنهم أصبحوا يقومون أقل فأقل بالعمل التنظيمي بالأوساط الشعبية، (استقال موسى مؤخراً من الحزب الشيوعي باشمئزاز، والسبب كما قال «كل ما يفعلوه هو انتظار الشباب بأن يلقوا الحجارة»). في الواقع، يعترف الفلسطينيون عموماً بأنهم كانوا يحاولون كسب الوقت لدى الشروع «بالحوار» بين منظمة التحرير والولايات المتحدة -أو الذي تم الإيهام بالشروع به- كان الجهد الذي يبذله عرفات لإخضاع كافة القيادات الفلسطينية لحكمه قد قوّض الخاصية الديمقراطية العفوية للانتفاضة. ومع كل هذا، ولنا أن نؤكد

علـى هـذه النقطـة، بقيـت المنظمـة تُعتبر، وبشـكل كاسـح، المؤسسـة الوحيدة التـي تمثّل الوطنيـة الفلسـطينية، وتشـبث بـها الفلسـطينيون بيأس واعتبروا أنها الوحيدة فقط التي ستسلّمهم الدولة.

ج- **تذبذب المزاج العام:** فـي أيام الانتفاضـة الأولـى والمشـحونة بالأثر، كان الكثير من الفلسطينيين يعتقدون أن الدولة المستقلة على بُعد بضعة أشهر علـى الأكـثر. لقـد تمّت الاسـتهانة بشـدة بمقـدرة المجتمع الإسرائيلي على العوم في التيار، ثم أطلق ما سمي بالحوار مع الولايات المتحدة شحنة ثانية من التفاؤل. يتذكر موسى، وقد كان في السجن في ذلك الوقت، أن معظم السجناء السياسيين معه، توقعوا إطلاق سـراح وشيك. عموماً، لـم يفـهم الفلسـطينيون جيـداً الأسـس الحقيقية «للشراكة الاستراتيجية» بين أمريكا وإسرائيل (باستثناء الأحزاب اليسارية التي كانت أقل تفاؤلاً بكثير بخصوص المحادثات في تونس). لقد تم انتقاد حكومة الولايات المتحدة بقسوة على النفاق، التناقض، التردد، تملق اليهود -ولكن ليس على سلوكهم بوعي ذاتي من دافع إدراكهم لمصالحهم الخاصة. في الواقع، لقد ارتاح الفلسطينيون للوهم القائل بأن ليس لدى الولايات المتحدة رهاناً حقيقياً على حلفها مـع إسـرائيل. كمـا أن الوصـف السـاذج الـذي أطلقـه عرفـات علـى إسرائيل بكونها «الطفل المدلل» للولايات المتحدة لم يساعد الأمور كثيراً (ألم يكن شاه إيران «طفلاً مدللاً» كذلك الأمر؟). ولـم يساعد الأمور أيضاً توقعه السخيف والذي كان يتكرر بانتظامٍ بليد بأن الأمور فـي «الربـع سـاعة الأخـيرة قبـل انتصـاف الليـل». لقـد احتـاج الفلسطينيون، وعندهم ما يكفي من الحذق السياسي، لأن يتعاملوا مع الحقـائق القاسـية. ولـم يحتـاجوا، ولديـهم مـا يكفـي مـن الدهـاء السياسي، لصانعي الخرافات الأبوية. على المرء أن يقارن فقط بين

نصوص أغاني الانتفاضة بما تحمله من ذكاء وقفشات هادفة تسخر من الولايات المتحدة، الرابطة الإسلامية، وإلى آخره، مع الأناشيد الأقدم بما فيها من كلشيهات مبتذلة، لكي يعرف كم أصبح الفلسطينيون ناضجين أكثر، حتى ولو مازالوا يضمرون وهماً بخصوص الولايات المتحدة.

على كل الأحوال، بدأ البترول يتأرجح الآن في الاتجاه المعاكس، إذ خضع الفلسطينيون للتشاؤم، وإدراكاً منهم لانعزالهم السياسي واقعياً، فإنهم أخذوا ينظرون إلى المستقبل بتشكك، طالما أن ميزان القوى الإقليمي لم يتغير، وكذلك فإنهم خمّنوا -مصيبين- بأن الانتفاضة لم تعد تضع كثيراً من الضغط على المجتمع الإسرائيلي. علق جاري في إحدى الليالي، ملتقطاً المزاج العام، تعليقاً طريفاً فقال «لقد استغرقت مصر وإسرائيل ما يزيد على العشرة سنوات لحل نزاع طابا، ومن يكترث بطابا؟ هل تتصور كم سيستغرق من الوقت حل مشكلة القدس؟[*]»

د- القمع: النقطة الأولى التي علينا أن نظهرها هي كم كان القمع الإسرائيلي وحشياً وبلا هوادة. وعلى العكس من، فلنقل، الولايات المتحدة أثناء حرب الهند الصينية أو فرنسا أثناء حرب الجزائر، فإن إسرائيل لم تتظاهر -ولا حتى بإيماءة فاترة أو رمزية- برغبتها باستمالة «قلوب وعقول» الفلسطينيين. إن ترسانة إسرائيل لا تحتوي جَزَراً، إنها تحتوي فقط على عصي. في الواقع، إذا أمكننا وصفها بأي شيء، فإن إسرائيل نفّذت بلا مسوّغ جرعات من العنف والإذلال بكثرة، بحيث بدت سياساتها دائماً وكأنها على حافة

---

[*] طابا هي شريط ضيق من الرمال (تبلغ مساحته أقل من كيلو متر مربع) يقع على رأس خليج العقبة، وكانت طابا موضوع مفاوضات مكثفة وعسيرة تبعت كامب ديفيد. - المؤلف.

اللامعقول. وباعتبار أن كسر مقاومة الفلسطينيين وإعادة تأسيس السيطرة على المناطق المحتلة كانتا الأولوية الأولى لدى إسرائيل، فإن تكتيكات إسرائيل بالعادة كانت تعطي نتائج عكسية، فبفرضها عقوبات ضربت بشدة الطبقتين الوسطى والغنية (منها تحديد التنقل والاتصالات الهاتفية الدولية) فإن إسرائيل مهّدت في الواقع للوحدة الوطنية الفلسطينية.

مع ذلك، وكما وصف ذلك البروفسور حنا قائلاً «إن الإسرائيليين، وإن لم يكسروا الانتفاضة، فلقد تعلموا أن يتعاملوا معها». وفي الوقت الذي أصبحت فيه قيادات الأوساط الشعبية تقود كوادر أقل قدرة، بسبب الاعتقالات الجماعية، فقد أصبح الكثير من اللجان الشعبية تعاني نقصاً في الحيوية والاندفاع. في العام 1989، السنة الثانية من الانتفاضة، كان ما يقارب الخمسة عشر ألفاً معتقلين من قبَل السلطات الإسرائيلية، وبكلمات أحد الضباط الإسرائيليين «لقد قمنا باعتقال الضباط وتركنا الجنرالات أحراراً». كان من النادر في الواقع أن تجد عائلة لم يسجن أحد أفرادها. ما يزال شقيقَي سميرة يمضيان فترة اعتقالهما. (بعد أن اختطفت إسرائيل رجل دين إسلامي في جنوب لبنان، انتشرت شائعة بأن شقيقَي سميرة ستتم مقايضتهما في تبادل للأسرى. عندئذٍ أخذت سميرة تعد للاحتفال بإطلاق سراحهما، ولكن في الليلة التي سبقت مغادرتي إلى بلدي، علمنا أن أحد شقيقيها قد تم ضربه بوحشية من حراس السجن، وقد تم وضعه في الحبس الانفرادي). في الواقع، لقد أمضى الكثير من الناس فترات سجن متعددة، فموسى قد «زار» كما يصف ذلك الفلسطينيون، معتقل كيتزويت ثلاث مرات، والظاهرية مرة واحدة، كما أن إخوة موسى الثلاث مازالوا محتجزين من قِبل إسرائيل، مما

يسبب حزناً لا ينتهي لأمه «التي تهرم بسرعة». بطاقة الهوية الخضراء كانت أحدث أداة إسرائيلية لتحديد تحركات الفلسطينيين، وكل شخص من الستة آلاف أو ما يقارب ذلك حتى الآن من «الأشقياء» الذين أُصدرت لهم هذه البطاقة، لا يستطيع السفر خارج قريته أو أقرب بلدة له.

مع كل هذا، لم يكن الفلسطينيون، في كل الأوقات وفي كل الأماكن مسكونين بالخوف. والسؤال المعقول هنا، لماذا لم يكونوا كذلك؟ لقد تركني تواتر ممارسات الاحتلال بحالة شديدة من الارتباك، حتى أنني في البداية كنت أفزع من العودة إلى البيت كل يوم من، تليثه كومي، المدرسة التي كنت أدرّس بها اللغة الإنجليزية، وهي مرتفعة بعيداً في خلوة جبلية، وكما يظهر فإنها انتقلت بعيداً عن قسوة الاحتلال، ولقد بدت -تليثه كومي- نوعاً من الملاذ للحالة السوية. لقد ذهبت إلى بيت ساحوز لاختبار الحقائق اليومية للاحتلال، ومع هذا فقد أصبحت بعد فترة وجيزة أتمسك بكل فرصة تجنبني إياهم. كان الخوف، بالطبع، كامناً دائماً في الخلفية، وكان الحقيقة المخيّمة على كل فلسطيني، الخوف مما يحمله المستقبل (أو ما لا يحمله)، والخوف على العائلة.

كانت سميرة تشتكي من كوابيس متكررة ترى فيها أن أطفالها قد سُلبوا بعيداً عنها بواسطة الجنود. لم يتغلب الفلسطينيون على هذه المخاوف، ولكنهم تعلّموا تقريباً أن يسيطروا عليها. والخوف الذي انتصر عليه كل الفلسطينيين كان الخوف من الجنود الإسرائيليين، إن لم يكن من بنادقهم. لم يعد الفلسطينيون يجبنوا أمام «السوبرمان» الإسرائيلي. فقد وجهت الانتفاضة ضربة كاسرة وربما قاتلة للصورة المهيبة لجيش الدفاع الإسرائيلي.

لقد حوصر الخوف حتى أصبح في نقطة ما حقيقة مجردة. كالخوف، مثلاً، الذي شعرت به ريتا ابنة سميرة ذات العشرة أعوام، عندما طاردها الجنود مع أصحابها في الشارع والبنادق موجهة نحوهم لأنهم غنّوا أناشيد وطنية. والخوف الذي شعر به موسى عندما وُضع في الحبس الانفرادي لمدة ثمانية عشر يوماً، وتخيّل أن السجانين قد نسوا أمره. أو الخوف الذي شعرت أنا به عندما اقتحم شقتي اثنا عشر جندياً مدججين بالسلاح في الساعة الثانية صباحاً، وفي الليلة التالية بالكاد استطعت النوم، ففي كل مرة كنت أنسلّ إلى مرحلة الحلم كنت «أسمع» طرق الجنود العنيف على بابي، فأظل أهبّ من فراشي صائحاً «أُدخل! أُدخل!». الخوف الأكثر قرباً، كان يتعلق بالمتعاونين. كان «قسم الخدع القذرة» لإسرائيل يعمل وقتاً إضافياً لبذر النزاع في المناطق المحتلة. في قرية مجاورة لبيت ساحور، خُدّرت امرأة وجُرّدت عارية ثم تم تصويرها بواسطة أحد المتعاونين والذي هدّدها لاحقاً بتوزيع الصور إذا لم تتعاون. أخبرتْ المرأة عائلتها عمّا حدث بشجاعة، فقاموا بقتل المتعاون، ولكن ليس قبل قيامهم بقتلها غسلاً للعار. لم تكن سميرة لتذهب وحيدة إلى أي مكان -لا إلى طبيب الأسنان، ولا لمحل تصفيف الشعر، ولا حتى لبيوت معارفها- وفيما يتعلق بهذا الأمر، فإن «قادة» الانتفاضة، من الذين لم يكن لهم رصيد وطني أصيل في الماضي، قد أثاروا الارتياب أيضاً، إن لم نقل الاشمئزاز بين الفلسطينيين. لقد أثار العنف الموجه ضد المتعاونين، رأفة أقل بكثير في المناطق المحتلة مما عليه الحال في إسرائيل والولايات المتحدة. لقد ذكّر إسرائيل شاحاك، الذي يحمل شهادة دكتوراة فخرية من الجامعة العبرية، القرّاء في المجلات الدورية الإسرائيلية بأنه لا هو ولا رفاقه اليهود في جيتو وارسو قد أضمروا

أي ندم -بل أبعد ما يكون عن الندم- عندما قامت المنظمات اليهودية المقاتلة «بقتل كل يهودي متعاون استطاعت أن تجده» عشية الاضطرابات. لقد وزّعت القيادة الشعبية الموحدة للانتفاضة منشورات نبّهت الفلسطينيين لأخذ جانب الاحتراز في معالجة أمر المتعاونين. مما لا شك فيه أنه كان هناك ضحايا أبرياء، ولكن هكذا كانت الحالة تماماً في جيتو وارسو. في مقابلة صحفية، صدرت قبل بضعة سنوات، مع والدتي، وهي أيضاً ناجية من جيتو وارسو، تتذكر أمي بهلع تصفية حتى «المشتبه بهم» كخائنين: «أي شخص كان يحمل مسدساً، كان من الممكن له أن يَقتُل أو يُقتَل بدون محاكمة، كان هناك أشياء فظيعة، لا يمكن لك أن تتصور ما كان يحدث»[1].

حتى الآن لم يتغلب الخوف على اللياقة. سألتُ يوماً، ماذا عليّ أن أفعل إذا جاء أحد الشباب يطلب الالتجاء بشقتي ليلاً؟ «بالطبع عليك أن تُدْخِله» أجابت حماة سميرة «نحن الفلسطينيين لن نغلق الأبواب أبداً بوجه أطفالنا»، ولا بوجه غريب بالغ -إذا شكلت تجربتي أي مؤشر-، في إحدى الليالي ضللت طريقي إلى البيت، كانت الدنيا سواداً دامساً في الخارج، لم أكن أعرف اللغة العربية وكان من الممكن أن أُعتبَر بالخطأ إسرائيلياً. ولكن، وباليأس الذي كنت فيه، سألت عائلة فلسطينية يجلسون في شرفة بيتهم عما إذا كانوا يعرفون أين يعيش آل ميخائيل، لكن لم يحالفني الحظ، ثم نادوا على جيرانهم، فنشأ هرج ومرج إذ أخذوا يتجمعون، وأخيراً، ميزّ أحدهم الاسم، وأخذت امرأة تشير إلى الطريق، ولكنني لم أستطع أن أتابع إرشاداتها، فلقد كانت المسافة بعيدة نوعاً ما، فما كان منها إلا أن أرسلت طفليها (لم يكن يبدو أنهما تجاوزا سن السابعة والثمانية سنوات) ليرشدا هذا الغريب ليلاً إلى وجهته سالماً.

في الواقع، لم يشل الخوف الحياة اليومية، ولكن هناك استثناءات بالطبع. فعندما انتشر خبر مفاده أن البيوت في حيّنا ستُفتش بحثاً عن أسلحة، أخذ شقيق زوج سميرة يذرع الغرفة الأمامية بعصبية، (الهدف الوحيد من تلك التفتيشات المزعومة كان زرع الرعب، فلقد صدر تحذير واسع لكل القاطنين في الحي وعرف الجنود بذلك، وهذا لم يمنعهم من تقنيب البيوت) لقد قام الجيش بتعريضه للخزي علناً قبل سنة من ذلك، ومنذ ذلك الحين وهو يعيش بهلع قاتل من تكرار ذلك المشهد المذلّ. بعد ذلك بعدة أيام، حدث له أن شهد مذبحة شنيعة بشكل استثنائي في بيت لحم، فقام بجرجرة سيارته من المرآب، وقادها بحالة أشبه ما تكون بالجنون، كان من الواضح أن الاحتلال قد أخذ ينال منه ومن طفلته، ففي كل مرة يسمعان بها إطلاق نار، ينفجران بنشيج هستيري ولا يهدأان إلا بعد أن يواسيهم أحد ما.

بالرغم من جدلية القمع والمقاومة التي كانت تدور أمام عتبات البيوت، إلا أن الحياة قد استمرت عموماً بتيارها. بينما كان الجنود في الأسفل يطلقون النار على الشباب المراوغين، كان نديم عيسى ذو الخمسة عشر عاماً يتجاذب معي أطراف الحديث بلا مبالاة على سطح المنزل. وفي المطبخ، كانت سميرة تعدّ العشاء متناسية الطلقات التي تنفجر بالقرب من النافذة الكبيرة. وفي الوقت الذي أقام به الشباب متراساً على بعد خطوات قليلة من المنزل، تجمع عنده ما يزيد عن عشرة من الجيران وأخذوا يأكلون الفلافل بهدوء وينتظرون هجوم الجنود، لم ينحنِ أحد منهم ولم يركض بحثاً عن مكان للاختباء.

أساساً لقد استمرت الحياة كما هي لسببين، أولاً استمرت بسبب البطولة المحضة للفلسطينيين، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية

بسبب الحدود الضمنية -إن لم تكن الثابتة- للقمع الإسرائيلي. في إحدى الليالي، عندما بدأ الجنود بطرق باب بيت سميرة بعنف طالبين الدخول في الليل المدلهم، قالت بسخرية باردة للضابط المسؤول «أنت بالطبع على أتم الرحب والسعة، ولكن لا تسببوا كثيراً من الجلبة لأن أطفالي سيخافون». إن السخرية التي نطقت بها كلمة «أتمّ» كانت مثل برم خنجر بالقلب. انسحب الضابط، واعترفت سميرة لاحقاً أنها كانت خائفة بشدة إذ أنها كانت تتخيل الليالي التي تم خلالها أخذ شقيقها بعيداً، وكيف تم حينها قلب المنزل رأساً على عقب، وإذ كانت تعرف، بالرغم من ذلك، أن الجنود يستغلون أي علامة على الضعف، فلقد تعلمت سميرة أن تحافظ على رباطة الجأش. شجاعة؟.. نعم. ولكن الجنود أيضاً لم يقتحموا البيت عنوة.

في مناسبة ثانية، احتجّت حماة سميرة بصوت مرتفع على حرس الحدود سيئي الصيت، إذ كانوا يضربون شاباً فلسطينياً بوحشية، فقط لأنه يحمل بطاقة هوية خضراء. ردّ عليها الجنود بأنهم ليسوا مجرد جنود احتياط، ولكنهم جنود أقوياء حقيقيون، فصاحت بهم «لا أحد أقوى من الله». شجاعة؟ نعم. لكن حرس الحدود لم يطلقوا عليها النار بسبب سلاطة لسانها. بكلمة واحدة، فإن حدود القمع كانت مُراقبة. وغنيّ عن القول أن الإذلال والعنف كانا أيضاً يُسددان بعشوائية. أجبر الجنود طبيباً نفسياً متعلماً في أميريكا، بعد أن تم إيقافه في طريقه إلى عمله، على أن يشرب الماء الموجود في مضخة السيارة ليثبت أنه ليس بنزين. أحد الأولاد ويبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، تم اختياره عشوائياً بعد حادثة إلقاء حجارة، ثم ضُرب بوحشية من قِبل الجنود، وبعد ذلك أُجبر على دفع غرامة مقدارها ألف شيكل. مع ذلك، فإن إسرائيل لم تكن تشن حرباً شاملة، وحتى الآن فهي لم تتخطى عتبة ذلك.

ثانياً، لقد استمر تيار الحياة في فلسطين لأن الحياة دائماً تستمر، لقد استمرت في جيتو وارسو، لقد استمرت في معسكرات الاعتقال النازية، إنها تستمر في جنوب لبنان وفي جنوب برونكس. في إحدى الليالي لم تستطع سميرة أن تقرر أي فستان ستلبس لإلقاء صلاة البركة الصباحية في المدرسة. كان الرجال، جالسين في الظلال، يمضون فترات ما بعد الظهر القائظة الخاملة بلعب جولات لا تنتهي من لعبة طاولة النرد. في كل مساء كانت حماة سميرة تلتصق بالتلفزيون لمتابعة المسلسل المصري المفضل لديها. من الواضح أن البشر قد وُهبوا قدرة لا نهائية تقريباً على احتمال القمع والتكيّف مع أكثر الظروف وحشية. كلاً من المتشائمين والمتفائلين بما يتعلق بالطبيعة البشرية، يمكنهم أن يجدوا العزاء في هذه الحقيقة. مازلت أتذكر القرف الذي شعرت به عندما قرأت مذكرات سيمون دي بوفوار عن الاحتلال النازي لفرنسا، تروي دي بوفوار أنها نظرت بغيرة إلى وشاح أنيق كانت تلبسه إحدى معارفها، والتي كانت في يأس تام إذ كان شعرها يتساقط -هذا في الصفحة ذاتها التي تذكر بها أن أقرب أصدقائها في المقاومة، ويهودي محترم قد تم نفيهم بدون رجعة. حتى لو كان ما كتبته صحيحاً، فقد ظننت أن الاعتراف بذلك علناً يظل غير لائق. والآن عرفت أن كل الفكرة كانت، وبالضبط، أنه حتى في الظروف المتطرفة فإن التوافه تبقى جزءاً من الحياة.

III

أمضيت جزءاً كبيراً من إقامتي في بيت ساحور بصحبة الشباب. لقد عملت لسنوات عديدة مع اليافعين في مدينة نيويورك، وهذا ما أثار لدي الفضول لكي أعرف ما يجعل هؤلاء اليافعين يتصرفون على هذا النحو. إذ أن شباب فلسطين

يحتملون العبء الأكبر في المواجهات وفي المقاومة. وبدون فهمهم لا يمكن فهم الانتفاضة.

من الغريب أن عدداً ليس قليلاً من الفلسطينيين البالغين كانوا ينظرون للشباب بتعالٍ. أخذ شقيق سميرة يسخر من إلقاء الشباب للحجارة واعتبره «هواية» عزاها للملل بسبب طول فترة إغلاق المدارس. كان موسى الماركسي ينتقد دائماً سذاجة الشباب، مصدقاً في الواقع أن أندادهم في الولايات المتحدة أكثر وعياً سياسياً بكثير (عندما عبّر أحد طلابه عن رأيه بأن الفلسطينيين إذا كافحوا بصلابة كافية فـ«إن شاء الله» سينتصرون، حينها بالكاد استطاع موسى الملحد غير القابل للإصلاح أن يخفي احتقاره، وقال أنه متأكد من أنه لا يمكن ليافع أمريكي أن يتفوه بمثل هذه السخافة الصريحة). حاول طبيب نفساني أن يقنعني بأن الشباب مثل كل اليافعين في أي مكان، كانوا يبحثون فقط عن الإثارة للتنفيس عن الطاقة الفائضة لديهم، ففي الولايات المتحدة كان مَخْرَج هذه الطاقة هداماً: مخدرات، وسيارات سريعة، ولكن في فلسطين كان المَخْرج بنّاءً: الكفاح الوطني. كانت الأمور بهذه البساطة، أو هكذا كان هو يعتقد.

في الواقع، إن مراقباً ساخراً للأحداث يمكنه أن يجد دليلاً لدعم الحجة سالفة الذكر، فعندما كانت وقائع المقاومة في بيت ساحور تُبثّ من إذاعة القدس، كانت تثير هتافات من اليافعين الذين يتحلقون حول الراديو في بيت سميرة، وكأنها هتافات «لفريق البلد». كما كان وصول منشورات القيادة الشعبية الموحدة يثير كثيراً من الحماس من الفتيان المتجمعين في حجرة الطعام في بيت سميرة، مع ذلك كانت سميرة وحدها من يقوم بعناء القراءة المتفحصة للمنشورات.

مما لا شك فيه أن الشباب الفلسطينيين، مثل كل اليافعين في كل مكان، يتملكون طاقة لا حدود لها، ولكن الأكيد مع ذلك، أن الأهم من هذا هو إلى أي نهاية كانت تصب هذه الطاقات. لا يستطيع المرء أن يتحدث عن «العطش للمغامرة» تجريدياً أكثر من إمكانية الحديث عن «العطش للقوة» تجريدياً دون تسخيف وابتذال الواقع. لكن إذا لم يكن صحيحاً أن الشباب كانوا مثل كل اليافعين تماماً، فكذلك ليس من الصحيح أيضاً أنهم فصيلة فريدة، لم يكن الشباب الفلسطينيون أبطالاً بطلات من جانب أحادي وحسب. الفتيات اللاتي يعشن في المنزل المجاور ادّعين أنهن لا يخفن على أنفسهنّ، ولكن فقط على المتفرجين الأبرياء عندما يقمن برجم الجنود الذين يطلقون النار. في مركز إعادة التأهيل المحلي، سألتُ ثلاثاً من الشابات المصابات بإصابات دائمة في العصب الشوكي، عما إذا كنَّ قد أصبن باليأس. (في هذه الأثناء دخل السيناتور بيتر دومينيكي، عن ولاية نيومكسيكو. فجأة بينما كنت أقابل الشابات الثلاث -وخرج في الحال كما دخل- فقالت إحدى الشابات «لم العجلة؟ لقد دخلتَ للتّوّ». هل عرفتُ تلك الشابة ولو قليلاً أنه وللتوّ شهدت تكوّن «خبير» آخر بالانتفاضة من أعضاء الكونغرس؟) أجابت الشابات عن سؤالي «لا، فنحن سعداء لأننا مازلنا على قيد الحياة، إن روح الانتفاضة تجعلنا نستمر». لاحقاً، قمت بسؤال طبيب نفساني محلي عما إذا كان ذلك صحيحاً، فأنكر ذلك بشدة، وقال بشدة في دواخلهن، وهو في غاية القلق على المستقبل عندما تفور الآلام المكبوتة، إن آلام الجرحى في الشهور الأولى للانتفاضة كانت تحفف بواسطة الثناء الذي كان الجرحى يُمطَرون به، ولكن الأمر لم يعد كذلك. قالت سميرة وهي تومىء برأسها بالإيجاب: «الطبيب النفساني محق، لابد أنهم حانقين في

دواخلهم على اللاعدالة والجنون الذي يتصف به الأمر كله، أنا أمتعض في بعض الأحيان لأنني يجب أن أضحي بقليل فقط من حياتي لأطفالي، مع أنه صحيح بأنني يجب أن أضحّي لهم، ولكن هل من الصحيح بأنني يجب أن أضحّي بكل حياتي، فقط لأنني لا أريد لأسرتي أن تُضرب وأن تتعرض للذل؟»

في إحدى الأمسيات كنت أتحدث بهدوء مع نديم عيسى، وهو شاب فلسطيني لطيف. ويماثل إلى حد ما أكثر الشباب في سنّه، وهو يعيش في المنزل المجاور لمنزل آل ميخائيل:

«بماذا تفكر في الليل!»

«عند بدء الانتفاضة، كنت أفكر كثيراً بموضوع تحقيق الدولة وماذا ستكون عليه الحياة بعد ذلك. كلنا كنا نتخيل أننا سنأخذ الدولة بعد بضعة أشهر. والآن، فإن الدولة قد أصبحت حلماً أبعد، فقد يأخذ تحقيقها ستة أو سبعة سنوات. وأنا ما عدت أفكر بأي شيء في الليل، أنا فقط أغرق في النوم»

«لماذا هي الدولة بهذه الأهمية لديك؟ إن عمرك خمسة عشر عاماً فقط، ألا يجب أن تكون الآن تفكر بالحفلات وتمضية أوقات مرحة؟»

«نحن نعتقد أن كل شيء سيصبح أحسن بعد تحقيق الدولة، حتى الحفلات»

«من الممكن أن تكون قد بلغتَ سن الثانية والعشرين قبل أن يكون هناك دولة فلسطينية، وستكون قد خسرت بعض أحسن سنوات حياتك»

«ولكن أبناء عمي الصغار -الجيل اللاحق- سيكون لهم دولة حينئذ»

«ولكن ماذا عنك؟ ألا تمتعض لأنك تفقد الكثير من شبابك؟»

«بالنسبة لي، فهي فقط سبع سنوات، إنها ليست حياتي، ولكن صديقي ادموند قُتل برصاص الجيش، ومهما عشت لن أنسى ذلك»

«هل تفكر بالموت كثيراً؟»

«نعم، بالطبع، أنا خائف من الموت، وأنا أتساءل أحياناً، إذا أنا قُتلت، فهل سيكون لموتي أي معنى، وهل سنأخذ الدولة في يوم ما».

«هل تفكر بالبنات، بالحب؟»

«بالتأكيد، نحن جميعاً نفكر بهذه الأشياء. كل الآخرين لديهم صديقات، ولكن أنا مازلت أبحث عن فتاة تفهمني، ليس من الضروري أن تكون جميلة طالما كانت تفهمني».

توقف وسرح بنظره ثم هزّ رأسه بيأس وقال: «لا أعرف، لا أستطيع أن أشرح ذلك».

إن التعليم هو الأولوية الأولى لكل الشباب الفلسطيني. وحيث أن إسرائيل قررت منذ بواكير الانتفاضة أن تغلق المدارس، فقد كان الضرر الذي أصيبت به معنويات الفلسطينيين من جرّاء إغلاق المدارس من الشدة بحيث أن إسرائيل كانت مستعدة لدفع ثمن مغادرة الشباب للمدارس وامتلاكهم وقتاً أكبر لرجم الجنود. عندما أعلنت القيادة الشعبية الموحدة في أحد الأيام إضراباً عاماً لمدة يوم واحد، سألتُ ابنتَيّ سميرة عما إذا كانتا سعيدتين بالعطلة غير المتوقعة، فأجابتا بلهفة «لا، لقد أخذنا ما يكفينا من العُطَل!» لقد كان الأطفال في غاية التشوّق لاستئناف الدراسة خلال إغلاق إسرائيل للمدارس

الذي امتد سنة كاملة، قالت سميرة إنها تتذكر أن ابنتيها كانتا في كثير من الأيام تأخذان في البكاء من أجل ذلك.

رغم أنهم لا يمثلون الحالة تماماً، فإن طلابي في مبحث اللغة الإنجليزية في مدرسة تليثه كومي كانوا الصفوة المثقفة من بيت ساحور والقرية المجاورة بيت جالا. لقد كانت اللغة الإنجليزية مطلباً أساسياً منذ الصف الأول في تليثه كومي (في المدارس الحكومية، تبدأ دروس اللغة الإنجليزية من الصف الخامس) وقد كان الطلاب البالغون من العمر اثنتي عشر وثلاثة عشر عاماً في الصف الإعدادي الذي أدرّسه، يدرسون الآن طبعات مختصرة من أوليفر تويست وقصة مدينتين. لقد كان باستطاعتهم أن يفهموا اللغة الإنجليزية بطلاقة (مع بعض الاستثناءات) وإن لم يتقنوا الحديث بها بعد. ولأنها مدرسة لوثرية فإنها تتطلب أيضاً تعليم اللغة الألمانية. في أحد الأيام أخذت معلمة ألمانية تندب الأداء السيء لطلابها، مقارنة إياهم بالطلاب في بلدها، فأبديت ملاحظة وقلت، بعد كل شيء فإن الألمانية هي اللغة الثالثة التي يتعلمونها، ولكنها لم تبالِ بالملاحظة. وكنت أرتجف من فكرة ما يمكن أن تقوله لو أنها قامت بالتدريس في مدرسة أميريكية. طلبتْ سميرة (التي كنت أقوم بالتدريس معها) من الطلاب، في درس لقواعد اللغة كان مكرّساً لأسماء الأعلام، أن يذكروا اسم نهر، فارتفعت عدة أيدي بالحال، افترضتُ أنهم كلهم سيقولون نهر الأردن، ولكن الطالب الأول أجاب نهر التايمز، والطالب الثاني أجاب، السين، والثالث أجاب، النيل، والرابع أخيراً أجاب، نهر الأردن. قلت لسميرة لاحقاً، إنه لو تم طرح السؤال على طالب أميريكي عادي فإنه، مع بعض الحظ، سيجيب نهر المسيسيبي، وبدون حظ سيجيب المحيط الأطلسي، واعتقدتْ سميرة أني أقول ذلك على سبيل النكتة.

سألت الطلاب خلال فترة استراحة عن ما يرونه الحل الأفضل للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، فانبعثت الحياة في الصف سريعاً. (غنيّ عن القول أن كل الفلسطينيين كانوا سيقبلون، إن لم يكونوا يفضلون، حل النزاع على أساس قيام دولتين) كان هناك أفكار ونماذج مختلفة بالصف بعدد الطلاب الموجودين فيه. بدت الأكثرية أنها تفضل نوعاً من الدولة الديمقراطية العلمانية على كل فلسطين التاريخية. استنكر أحد الطلاب، (حماس) بمرارة لأنها «تريد خلق دولة إسلامية مثل السعودية وإيران». طالبة ثانية اعترضت إذ زعم أحد زملائها بأنه يجب إجبار اليهود على مغادرة البلد وقالت: «اليهود لهم حق البقاء هنا، ليس لهم مكان آخر للذهاب إليه» (لم يكن الصف يعرف بأنني يهودي). طالبة ثالثة أكالت المديح على حركة السلام الآن (وهي تعتقد بأنهم «يهتمون بأمرنا أكثر مما يهتم الكثير من الفلسطينيين») وسخرتْ من فكرة دولة فلسطينية على كل فلسطين وقالت: «كيف لنا أن نطلب كل شيء في حين أننا لا نمتلك شيئاً؟»

كانت السياسة شغفاً كما أنها طريقة حياة للشباب الفلسطينيين، في أحد الأيام غنّى معي الطلاب مندفعين بالحماسة، ومحلّقين بالاعتزاز شعراً إنجليزياً من نظم شيلر قدمه لبيتهوفن وهو «نشيد الفرح»[2]. سلّمت في أحد الأيام ابنتيَّ سميرة آلة التصوير الفوري التي تخصني، وطلبت منهما التقاط صور لأي شيء يروق لخيالهما، ورجعتا في الليل وقد التقطتا عدة صور للعلم الفلسطيني، صورة لخارطة فلسطين، صورة لحائط قد خُربشت عليه عبارة باللغة الإنجليزية، «في هذا الوقت يجب علينا العودة لفكرة واحدة، هي أن نرجع للأرض»، صورة لمبنى اتحاد المرأة العربية، صورتين لمجموعة من الأولاد يلعبون «جيش وشباب» (وهي اللعبة الأكثر شعبية بين الأطفال

منذ بدء الانتفاضة)، وصورة لشارع يحتوي على متاريس، وصورة لمنطقة تجارية خاوية إذ احترم التجار الإضراب التجاري. أرتني فتاة يافعة بخجل قطعة من أعمال الإبرة انتهت منها للتو بالألوان الوطنية -أخضر، أبيض، وحمامة سوداء على خلفية من اللون الأحمر، كما أن أخت هذه الفتاة قد أتت إلى عائلة سميرة في إحدى الأمسيات «لتحتفل» بعيد ميلادها الثامن عشر- كان احتفالها بالصيام، ففي عيد ميلادها السابق قتل الجيش أعز صديقة لها. اقترحتُ بأننا يجب أن نغني بعض الأغاني على الأقل، فوافقوا وغنوا أولاً النشيد الوطني الفلسطيني (صاحت ابنة سميرة الكبرى، رنا، وقالت: «كل صباح يجب أن يبدأ هكذا!») ثم غنوا عدة أغانٍ وطنية وأغاني شعبية فلسطينية. فلسطيني واحد فقط ممن قابلتهم كان يتحدث بالشعارات -قال لي في إحدى الليالي، «يمكنك قتل الثوار، ولكن لا يمكنك قتل الثورة»- وربما كان هذا على علاقة بحقيقة أنه، كهارب من «عدالة» إسرائيل، فهو يستبقِ الاعتقال والتعذيب.

هناك سؤال واحد تعلمت بسرعة ألا أطرحه على اليافعين وهو: ما هي خططك لعطلة نهاية الأسبوع؟ لأنه لم يكن هناك عُطَل نهاية أسبوع في فلسطين، كانت الرتابة لا تتكسر، إذ كان كل يوم يدخل باليوم الذي بعده بصمت، لا رحلات إلى إسرائيل -فهي شديدة الخطورة في جو القتل السائد بلا محاكمة. لا فِرَق رياضة جماعية- إذ أن الجيش يطلق النار روتينياً على أي شباب يشكلون أي تجمع. لا رياضة ركض -فالجيش يطلق النار روتينياً على أي شاب يُرى راكضاً. (رفضتْ سميرة عرضي بأن أطلب من الضابط الإسرائيلي بأن يدع الشباب يقومون بالركض حول حقل لرعاة الأغنام، وشرحت سميرة ذلك بقولها «لأنه إذا طلبنا منهم ذلك، يمتلك الجيش الحق بالإمساك

عن السماح. لذلك نحن لن نطلب منهم أبداً طلباً كهذا»). إن إساءة استعمال الثروة لم تكن مسألة غير شائعة قبل الانتفاضة، وفي السنوات التي تلت بدء الانتفاضة، تراجعت هذه الظاهرة إلى ما يقارب الصفر. لقد قيل لي أنه، بالنسبة للفلسطينيين، لا يمكن أن يكون هناك عار أكبر من عار أن يكون لأسرة ما فرداً يتعامل بالمخدرات. وقد أخبرتني سميرة بقصة غريبة عن أم من بيت ساحور قد حُكم على ابنها بالسجن لمدة عشر سنوات بسبب التخطيط للمقاومة المسلحة ضد الاحتلال، فما كان منها إلا أن استسلمت لفرح عارم وأخذت بالغناء، إذ أن ابنها كان يتصرف بطريقة مريبة لفترة طويلة، وسرت عنه شائعات بأنه عالق بجماعة من تجار المخدرات، وكم كان شعور الأم بالارتياح كبيراً إذ علمت أنه إنما كان متعلقاً بالسياسة!.

كانت وسيلة التسلية الوحيدة التي انغمس بها الفلسطينيون هي فن رقص الدبكة الشعبية، وكانت قيمتها كمناسبة اجتماعية أقل مما هي قيمتها كفرصة لتأكيد الهوية الفلسطينية، وكانت تجمعات الدبكة تنظم عادة حول الانتماءات الحزبية. اعترفت إحدى الفتيات أثناء تجمّع للجبهة الشعبية بأنها أصبحت تعيسة منذ بدء الانتفاضة، «كانت الحياة أسعد بكثير قبل الانتفاضة، الآن ليس هناك مرح ولا رحلات». فسألتها، «إذن هل تفضلي أن تري الانتفاضة تنتهي؟» فأجابت بسرعة «لا، ليس قبل أن نحصل على الدولة، وإلا سيكون كل الموتى وكل المعاناة بلا طائل». استفسر الكثير من الشباب الذين تقارب أعمارهم العشرين سنة حول الدراسة في الولايات المتحدة، لا أحد يلومهم على هذا الطموح: فبعد كل شيء، كانت الكليات مغلقة وفرص العمل غير موجودة، إن البقاء بالنسبة لهم من غير معنى.

أحدهم وقد كان موهوباً بصورة غير عادية، كان يجهز نفسه للمغادرة إلى تكساس، حيث يعيش عمه، فأخذت سميرة تندب هذه الخسارة «لرفاق صفّه» وأضفت أنا: «خسارة لشعبه». لا يمكن للمهزلة أن تكتمل أكثر من ذلك، فالولايات المتحدة تموّل تعذيب الفلسطينيين، مع هذا فها هم صفوة الشباب الفلسطيني يفرون من التعذيب وينخرطون أخيراً بالجامعات الأميريكية، والكثير منهم يبقون هناك ويغْنون مجتمع الولايات المتحدة بمهاراتهم. من قال إنك لا تستطيع أن تحتفظ بالكعكة وأن تأكلها في آنٍ معاً؟

لقد عزّزت الانتفاضة الروابط الاجتماعية للفلسطينيين، وفسّختها بالوقت ذاته، لقد كُبحت النزعة إلى التشتت والتي كانت سائدة في السنوات الأخيرة وانعكست، ولكن ظهرت توترات جديدة بين الأجيال ودخلت المجتمع، فالآباء يعرفون كم الاحتلال مذلّ وكم من التسويات الأخلاقية قد اجترحوا حتى تمكنوا من التحمّل كل هذه الفترة، لا يستطيعون إنكار حق أبنائهم بالكفاح من أجل حياة أفضل، مع هذا فهم يتألمون من أجل أمان أطفالهم. في إحدى الليالي قالت سميرة متسائلة، لماذا لا يتقبل العرب الموت بلا اهتمام كما يفعل الغربيون؟ لماذا يصدمهم الموت إلى هذا الحد؟ لم أستطع أنا سوى الابتسام! ألم تعلم هي أن العرب وليس الغربيون، من المفترض بأنهم قد تعوّدوا على الموت؟

أحياناً، يقوم بعض الشباب الناشطون بترك بيوتهم، ويهيمون من بيت إلى بيت بحثاً عن ملجأ لقضاء الليل بسبب قيود من الأهل. وصلت العلاقة بين الأجيال، أثناء إقامتي هناك، حالة كالحة جداً لدرجة إنه تم الطلب من الطبيب النفساني المحلي بأن يرأس اجتماعاً بين الشباب وأهلهم، وإذ لم يعترف أحد من البالغين علناً بأن الخوف

على أبناءهم قد تغلّب على الالتزام السياسي، فإنه لم يتم البدء بالحوار أبداً.

بعد عودتي إلى بلدتي بعدة أشهر، عرضت على أهلي فيلم فيديو عن بيت ساحور، وكانت سميرة تبتسم عندما كان ابنها ذو الستة أعوام، باسل، يصف رسماً قد أعدّه عن جنود يشتبكون مع الشباب، وانزعجت أمي عندما رأت ذلك. فكتبت لاحقاً رسالة لسميرة وأخبرتها عن رد فعل أمي، ثم ردت سميرة كما يلي:

لم يكن سروري بسبب الرسم، وإنما بسبب قدرة باسل على وصفه. في الواقع، في المرة الأولى التي رأيت فيها تلك الرسومات شعرت بصدمة عميقة لأن طفلي قد اشترك بهذا الوضع المخيف وخسر طفولته مبكراً. وأنا أعرف أنه في الحال الطبيعية، فإن طفلي سيرسم فراشة، عصفور، وردة، قطة، سيارة، أو أي شيء مما يحب الأطفال رسمه. ولكن رجاءً أخبرني، ماذا علي أن أفعل لكي أحفظ طفلي بعيداً، فهل سيساعد ذلك فعلاً؟ عاجلاً أو آجلاً سيفهم بأننا تحت الاحتلال. هل من العدل أن يُطلَب مني أن أظهر الحسرة والأسف عندما يعبّر طفلي عن الحاضر في رسوماته، بينما الإسرائيليون يأخذون أطفالهم الصغار إلى المتاحف حتى يروا ما حدث في الماضي؟ في تلك المتاحف يُغذَى الأطفال بالكراهية، إن الناس الأبرياء مثلنا هم الضحية. أنا لا آخذ طفلي إلى متاحف كتلك، إنهم يشهدون معاناة وإذلال شعبهم كل يوم في الشارع.

IV لم يكن الحفاظ على زخم الانتفاضة أصيلاً، أو حتى بسبب القصور الذاتي، ولكنه كان لغياب البديل. كيف يستطيع الفلسطينيون أن يتراجعوا؟ «كأننا نصعد سلماً من الحبال» واقتبس هنا التشبيه المثير للمشاعر للبروفيسور حنا «وكلما صعدنا درجة تحترق الدرجة التي قبلها». إن الرجوع للوضع قبل الراهن لا يمكن احتماله بعد كل تلك التضحيات وبعد أن لمح الفلسطينيون حياة الكبرياء الإنساني. كما أن كل فلسطيني يعرف بأنه إذا خُسرت هذه المعركة، فإنها ستكون -كما قال موسى- «كارثة سياسية، ستعيد الكفاح الوطني عشرين سنة للخلف على الأقل.

في الواقع، فبالنسبة لإسرائيل أيضاً، فإن العودة للوضع قبل الراهن لا يمكن التفكير بها. لقد خرجت الأمور من اليد، ومن الواضح أن النظام السابق لم ينفع: كان هناك الكثير من الحرية. تنوي إسرائيل تركيب نظام دعاه البروفيسور شاحاك «عبودية كمبيوترية» في المناطق المحتلة، والهدف هو تأسيس نظام يراقب ويضبط كل تفاصيل حياة الفلسطينيين، وهذا يعني تحكّم كلّي. ولهذا أيضاً ظهر مقال غير عادي في صحيفة نيويورك تايمز: «في الضفة الغربية، رفض العرب ضبط ساعاتهم بتقديمها ساعة حسب التوقيت المعمول به في إسرائيل والذي بدأ العمل به في بداية نهار يوم الأحد. وقال السكان بأنهم سيتابعون ترقّب «التوقيت الفلسطيني» لأسبوعين قادمين.. قامت إحدى المدارس الخاصة بالضفة الغربية بفتح أبوابها مبكرة ساعة عن تعليمات السلطات الإسرائيلية، بالرغم من التهديدات بأن الجيش سوف يحتجز الطلاب الذين يُضبطون ذاهبين إلى المدرسة حسب التوقيت «الفلسطيني». في سعيها للسيطرة المطلقة على المناطق المحتلة، فإن إسرائيل كانت مصممة على فرض

أمرها، إن لم يكن على دقات قلوبهم، فعلى توقيت كل الفلسطينيين على الأقل.

وإذ كانت إسرائيل تتابع أهدافها المستحوذة عليها، فبالرغم من ذلك، لم تكن لها يد مطلقة بالكامل. فعلى سبيل المثال، لو أنها منعت انتقال البضائع والعمال ما بين المناطق المحتلة وإسرائيل، لأمكن لحكومة الليكود تسديد ضربة ساحقة للانتفاضة، ولكن إسرائيل نفسها قد أصبحت معتمدة كثيراً على هذه الروابط بحيث أنه، في اللحظة الراهنة، لم يكن خياراً مطروحاً.

في آب 1989، لم يكن بإمكان المرء أن يتوقع بأي دقة كيفية تطور الكفاح، وكان هناك بشكل أساسي أربعة بدائل، إن لم تكن منفردة فمتبادلة معاً، لسيناريوهات بدت مقنعة، وكلها تعتمد على مقدمة منطقية مبنية على الافتراض المعقول بأن لا شيء جوهرياً سوف ينتج من «المبادرة الدبلوماسية» للمنظمة، والساعية لتسوية ترتكز على قيام دولتين، ولا من «الحوار» مع الولايات المتحدة.

أ- **العنف العشوائي:** حيث أن القيادة السياسية لم تعد في محل الثقة، واليأس المطبق قد انتشر، يمكن للانتفاضة أن تتدهور إلى عنف هدّام محض، كان الخطر، كما وصف ذلك البروفيسور حنا «أن يتراجع من أجل الحقوق إلى كفاح من أجل الانتقام». أحد الفلسطينيين يستنشر صورة شمشون والمعبد، وآخر قال، ستكون إسرائيل حكيمة إذا فاوضت الآن قبل أن يبلغ الحقد مدىً عميقاً بحيث أن الفلسطينيين لن يفكروا حتى بمثل هذا الخيار، وقبل أن تغور الجراح عميقاً بحيث أنها لن تندمل أبداً.

إن وقتاً كهذا لا يبدو شديد البعد. علّق بريمو ليفي مرةً وقال

إن الناجين من معسكر اعتقال أو شويتز النازي، ينقسمون إلى فئتين على نحو نموذجي: أولاً، هؤلاء الذين «كانت المعاناة قاسية لهم، ولكنها خالية من المعنى مثل سوء الحظ أو المرض، وبالنسبة لهم فإن هذه الذكرى هي شيء دخيل، شيء مؤلم اقتحم حياتهم وهم سعوا -أو مازالوا يسعون- لاستئصاله». وثانياً، هؤلاء الذين يعتبرون «أن التذكّر واجب، وهم لا يريدون أن ينسوا، وفوق كل شيء لا يريدون للعالم أن ينسى، لأنهم يفهمون أن تجربتهم ليست من دون معنى، وأن معسكرات الاعتقال لم تكن حادثاً عرضياً، أو واقعة تاريخية طارئة»[3].

إن سميرة (وأمي أيضاً) تنتمي إلى الفئة الثانية، لقد رأت الكثير، وأصابها ما رأته عميقاً، ولقد فهمته جيداً جداً. أكثر الفلسطينيين من جيلها يبدون مع ذلك بأنهم ينتمون إلى الفئة الأولى، وكما تتوقع سميرة جازمة «عندما يحل السلام، سينسى الفلسطينيون ويسامحون، هذه هي طبيعتنا». مع ذلك فأنا لم أكن متفائلاً تجاه الأطفال بهذا الخصوص، فلأن الجيل تحمّل رؤية معاناة أكثر بكثير، فإنه كان ناقماً ومتصلباً أكثر بكثير من الجيل الذي سبقه. أحد الأطفال ويبلغ من العمر ثمانية سنوات، وقد كان أباه في السجن خلال الأربع سنوات الماضية، لهذا فقد أُعطي محثاً أبدياً للثورة، وفي صباح أحد الأيام وأثناء الإفطار أخذ يطالب بكل جدّية بأن «على الفلسطينيين أن يصعّدوا المقاومة المسلّحة إذا لم يتوقف الصهاينة عن قتل أطفالنا». ولقد كان «رجل» فعل كذلك، ففي اليوم السابق كان قد فاته وضرب مجموعة من الجنود بقنبلة غاز كان الجنود أسقطوها بالخطأ. وفي إطار مشابه، عندما أومأ الطبيب النفساني المتعلم في أميريكا شاكراً ليهودي أعطاه أولوية المرور، فقد تعرّض لتوبيخ شديد من ابنه ذي الثلاثة سنوات «لا تلوّح له، إنه جندي».

ب- انتشار الحركة الإسلامية: أملاً بأن تنتهي حماس من تلقاء نفسها، فإن منظمة التحرير قد تجاهلتها في البداية، والآن فإن المنظمة تشير على الفلسطينيين بالتعاون مع حماس. عندما وصف أحد نوّاب عرفات حركة حماس في صحيفة أردنية «كواحدة من أنقى ينابيع الانتفاضة» شعر الكثير من سكان بيت ساحور ذات الأغلبية المسيحية بالصدمة الغيظ. قدّر أحد دارسي علم الاجتماع من الضفة الغربية إن ثلث سكان الضفة الغربية يدعمون حماس، وكانت وجهة نظره أن أصابع حماس أقرب إلى نبض الناس، فعلى سبيل المثال، فهمتْ حماس الدعم الشعبي الكاسح لاستمرارية التعليم، فساعدت على فتح المدارس الحكومية في غزة في الوقت الذي كانت فيه المدارس في الضفة الغربية مغلقة، ولقد عارضت حماس نداء القيادة الشعبية الموحدة للطلاب باحترام أيام الإضراب العام. أما البروفيسور حنا فهو يعارض التقدير بأن ثلث السكان يدعمون حركة حماس، وقال إنه حتى في غزة معقل حماس، فقد أيّد الفلسطينيون بشكل كاسح بيان المجلس الوطني الفلسطيني الذي طالبوا فيه بتأسيس دولة إلى جانب إسرائيل، وهذا بالرغم من معارضة حماس، ولقد قدّر البروفيسور حنا قوة حماس بحدود 10٪ في الضفة الغربية و20٪ في غزة.

بسجلها المعروف بالانتهازية، فقد كان بإمكان حماس أن تقتطع لنفسها صفقة لمصلحتها مع إسرائيل، صفقة تكون بعيدة عن إقامة دولة فلسطينية. وفي كل الأحوال، فقد كانت إسرائيل تأمل بذلك، وهذا كان سبب سماحها بتأسيس حماس. في العام 1989، لم يكن الخطر يبدو كبيراً، فقد كانت حماس الكلية لم تُستَنفد بعد، وإذا استمرت الأحوال بالتّردي، فإن حماس ستكتسب زخماً. ويقول الباحث

الاجتماعي، إن حماس وليدة الأزمة «إنها مثل طفيليات تنمو في الفراغ السياسي وحالة اليأس».

ج- **السيادة المزيّفة:** كان هناك احتمال آخر بأن يقبل التيار الأساسي في المنظمة بمعادلة «تسوية» تعطي الفلسطينيين علَماً، ونشيداً وطنياً، ولا شيء آخر. ومن الواضح أن المنظمة كانت قد بدأت تلهو بهذه الفكرة. كان كل الأشخاص في بيت ساحور قد رفضوا بحزم العرض الإسرائيلي بإجراء انتخابات، واعتبروه ادّعاءاً كاذباً خارج عن الموضوع -كل الأشخاص، ماعدا ممثل فتح، كان مقتنعاً بأن الانتخابات ستكون البند التالي في الأجندة السياسية، فقد ذهب بالتوقع بأنه سيُعرض على الفلسطينيين تأسيس دولة «على شرط أن تتحد فدرالياً مع الأردن في الحال» وقال، سيقبل أكثر الفلسطينيين هذا العرض إذا استمالتهم منظمة التحرير لذلك. ويعتقد هذا البيروقراطي من فتح «الشعب يحتاج لأن يُقاد»، حتى أنه قد أقحَم توضيحاً، بأنه من غير إطار شامل يشير للسيادة، فإن الانتخابات غير مقبولة.

في الواقع، كلما طالت حالة الجمود على الأرض، كلما زاد احتمال تبنّي سيناريو الدولة الزائفة. لقد كانت الدبلوماسية الدولية، وليس الانتفاضة، هي الأولوية الاستراتيجية للمنظمة. إن هذه الاستهانة بالكفاح على الأرض، كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بافتقار المنظمة تاريخياً للارتباط مع الحركات الجماهيرية الضخمة، ولهذا فقد نظرت المنظمة للانتفاضة، في أحسن الأحوال، كرافعة تستعمل في اللعبة الدبلوماسية وليس حجر الزاوية في اللعبة، لقد كان الوضع وكأن عرفات اعتقد بأن من الممكن إغراء إسرائيل والولايات المتحدة لأن يمنحوا دولة للفلسطينيين. كيف لنا أن نفسر إذن الاستجابة الخجولة للمنظمة على العرض الإسرائيلي بإجراء انتخابات، والذي

يمنع الفلسطينيين صراحةً من تأسيس دولة؟ رغم أن هذه الحقيقة لم تنتشر في وسائل الإعلام الأمريكية. لقد بدا وكأن عرفات يقول، دعوني أصل للمفاوضات وسأتكفل لكم بالدولة. وهذا بالطبع هراءٌ محض، إذ أن إسرائيل والولايات المتحدة، تفهمان فقط وتستجيبان للقوة، وفي الوقت الحاضر، فإن ذلك كان يعني وفق كل شيء، الانتفاضة. وعلاوة على ذلك، فإن استحواذ الدبلوماسية المسيطر على المنطقة قد حرم الانتفاضة من مصادر مادية ثمينة، كما أن زخم الانتفاضة قد انحرف بواسطة هذا الاستحواذ: إذ أخذ الفلسطينيون يتطلعون إلى تونس، وواشنطن، وحتى القدس (ولكن فقط إلى حزب العمل بالطبع!) على أمل تحقيق اختراق عجائبي. وعلى هذا النحو، كانت حركيّة استراتيجية منظمة التحرير، فكلما طال الجمود السياسي كلما ضعفت الانتفاضة (وبهذا تضعف ثقة منظمة التحرير بها) وبهذا يمكن أن يصبح الإغراء للمنظمة بأن تقلل من خسائرها وتختار الدولة المزيّفة إغراءً لا يقاوم.

بقدر ما كان الفلسطينيون، فرضياً، غير قادرين على فعل أكثر مما يقومون به، كان يقوى احتمال أن تعتنق المنظمة السيادة المزيفة. لم يكن هناك سبب يدفع للاعتقاد بأنه يمكن للفلسطينيين الاحتمال من غير حد، فالقمع كان يكلف عناءً هائلاً. لم يكن الفلسطينيون شعباً بدائياً، ولكن إذا أخذت إسرائيل تشد من تضييق الخناق، كان على الفلسطينيين أن يحتملوا حرماناً يدفعهم نحو ظروف حياة بدائية. وكما يذكر البروفيسور شاحاك، لن يكون الفلسطينيون الشعب الأول الذي يخضع للقوة الساحقة لحرب استنزاف.

وإذ أخذ البيروقراطيون في منظمة التحرير يتلاعبون في تونس بهكذا «تسوية»، فإن إسرائيل أخذت تشجع قيادات الداخل

الفلسطينية التي قد تؤيد هذه التسوية. إن هذه الاستراتيجية الإسرائيلية ربما فسّرت حلقة كنت شاهداً عليها في إحدى الأمسيات في القدس، فخلال دراسة كانت تقوم بها مجموعة عربية ترأستها هيلينا كوبان من مؤسسة بروكينغز الشهيرة، أسهبت هيلينا كوبان في الحديث عن إفلاس الكفاح المسلح وفضائل العصيان المدني، واقترحت كوبان أن «ما يحتاجه الفلسطينيون الآن هو شعارات واضحة مثل البلاشفة في العام 1917». وقالت كوبان «ربما تكون الشعارات لا للاحتلال، نعم لمنظمة التحرير الفلسطينية، نعم لإقامة الدولة». لقد كان الدافع وراء هذا الأداء لكوبان واضحاً بما يكفي، فحينما تقتل البقرة المقدسة للفلسطينيين، والمتمثلة في المقاومة المسلحة، أما حضور من الفلسطينيين، فإنها تدعم سمعتها هناك في الولايات المتحدة، كمتعاطفة مع الفلسطينيين ولكنها مراقبة ناقدة أيضاً للسياسات الفلسطينية. ولكن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو، لماذا تماشى الفلسطينيون أنفسهم مع هذه المسرحية. من الصحيح أنهم عارضوا «أطروحتها» بقوة، واعظين بصحة وقيمة الكفاح المسلح، ولكن لا أحد من الحضور شجب المحاضرة التي كانت ببساطة حشواً انتهازياً. هل كان أولئك المثقفون الفلسطينيون غير قادرين على مقاومة إغراء القوى والامتيازات، يتملقون كوبان حتى وهم يتصنعون شكل مناضلين؟ وكذلك إذ تمنحهم إسرائيل إذناً خاصاً بأن يدافعوا عن الكفاح المسلح علناً، فهل كان تعدّ نخبة فلسطينية -في الواقع، نخبة ممن هم معتمدين كمتطرفين- مدينة بشكل كامل للاستراتيجيات الصهيونية نحو السلام؟

إنه لما يثير الشك، الشروع بتمهيدات كهذه للتغرير بمثقفين فلسطينيين معارضين، لتأسيس اتصالات مهنية تحت الرعاية

الإسرائيلية. فعلى سبيل المثال، بينما كانت تُقر النشاطات السياسية المشتركة، وحتى العلاقات الشخصية مع الأكاديميين الإسرائيليين، فإن باحثاً علمياً من بيرزيت رغم ذلك يعارض تطبيع العلاقات العلمية الرسمية، ويقول «إن دولة إسرائيل تريد للعالم الخارجي أن يصدق بأن الأمور ليست بذلك السوء -وإن الأعمال رغم كل شيء تجري بشكل طبيعي. ذلك هو السبب الحقيقي لدعوتنا إلى المؤتمرات وإلى التعاون في الأبحاث». وأكد باحث اجتماعي فلسطيني إن «كل ما نحصل عليه من الأكاديميين الإسرائيليين هو التعاطف والشفقة، ولكنهم لا يفعلون لأجلنا شيئاً، إنهم يريدون استخدام أسمائنا للحصول على دعم مالي لما هو أسوأ من أبحاث غير ذي جدوى. تخيّل! طلب مني أحدهم أن أبادله معلومات حول الكساد في مخيمات اللاجئين بمعلومات حول الكساد في المستوطنات».

د- تصعيد المقاومة: في سيناريو آخر، فإنه يمكن للتيار الرئيسي في المنظمة أن يقرر بأن يسلّم علناً بما كانوا يسلمون به في الجلسات الخاصة من دون شك، وهو أن «الحوار» مع الولايات المتحدة، والذي استثمروا فيه الكثير من الطاقة والأمل كان لا يفضي إلى شيء، بل وأيضاً إن الولايات المتحدة دخلت في الحوار من باب اللهو لتعطي إسرائيل وقتاً أكبر لكي تسحق الانتفاضة. ولأنه راهن بالكثير من مصداقيته على هذا الحوار، فإن عرفات كان سيتعرض لوابل من السخرية، وسوف يحاول أعداؤه السياسيون أن يستفيدوا من مناوراته المخففة. وإذا شجب عرفات «غدر» الأمريكيين وحث على تصعيد المقاومة فلربما ظل الفلسطينيون يدعموه. لقد بدا ذلك أكثر السيناريوهات ترجيحاً على المدى القصير، عصيانات مدنية أكثر، وربما قطع كامل للصلات مع إسرائيل، ومقاومة أكثر عنفاً.

طُرح عليّ سؤال بتكرار غير متوقع من الفلسطينيين، وهو عن رأيي في حادثة الباص القاتلة في تموز 1989. لقد قام أحد سكان غزة مدفوعاً باليأس بعد أن شهد إيذاء أفراد عائلته بشكل وحشي من قبل الجيش، بالتسبب بانقلاب باص «من شركة إيجد» في إسرائيل مما أدى إلى مقتل عدة مدنيين. لم يقم أي من الفلسطينيين الذين قابلتهم بالتسامح إزاء الحادث، ولكن لم يستنكر أحد بشكل حازم أيضاً، والشعور الذي كان سائداً، أنه بالرغم من أن الحادث خطأ بحد ذاته، إلا أنه من الممكن أن يرسل رسالة لإسرائيل بأن الفلسطينيين يُدفعون بخطورة قريباً من الجنون بسبب القمع. عندما شاهدت سميرة شخصياً أحزان أقارب ضحايا الحادث، انفجرت بالبكاء، وقد اعترفت بأنها شعرت بالغبطة في البداية.

كانت نظرتي الخاصة أنه، أخلاقياً، وببساطة لا يمكن تبريره والدفاع عنه، ولكنه نادراً ما كان سبباً للنقمة الأخلاقية. لنأخذ بالاعتبار قضية هيرشل جرينسبان، والذي بقتله سكرتيره بالسفارة الألمانية في باريس في العام 1938 قد قدم ذريعة لليلة الكريستال، فمدفوعاً باليأس بعد أن علم بنفي عائلته الوحشي بواسطة النازيين، صمم جرينسبان على عمله المهلك لكي «أنتقم لوالديّ اللذين يعيشان بتعاسة في ألمانيا.. لكي أحتجّ بطريقة يسمع بها كل العالم احتجاجي،.. لكي أنتقم من اضطهاد الألمان القذرين». وبكلمات قد تتردد من كثير من الفلسطينيين، ترافع جرينسبان عن نفسه بالتحقيق وقال: «أن أكون يهودياً ليس بجريمة، لي الحق بأن أعيش واليهود لهم الحق بالوجود على هذه الأرض، أينما ذهبت كنت أطارَد كحيوان»[4]. يتقصّى المرء أدبيات المحرقة النازية بلا جدوى ليجد استنكاراً جازماً -أو حتى غامضاً- للجريمة التي ارتكبها جرينسبان، بل أن جرينسبان

يقدَّم في العادة كبطل فريد من نوعه لأنه برهن على تعرّض أهله للإذلال وسوء المعاملة.

من ناحية أخرى، في اليوم التالي لحادثة الباص، استنكر رئيس الوزراء شامير الحادث ووصفه بأنه عمل إجرامي، «نتاج ذهن فظيع مملوء بالكراهية». جوبلز أيضاً استنكر جريسبان بألفاظ مشابهة.

لقد تجادل الفلسطينيون بحرارة عما إذا كان عليهم تصعيد الكفاح ضد الجيش والإدارة «المدنيّة» في المناطق المحتلة، فعلى سبيل المثال، أثار هجوم بالقنابل الحارقة على محصّلي الضرائب في رام الله نقاشات واسعة وتأييداً للفعل، فبعد الجنود كان محصّلي الضرائب أكثر رموز الاحتلال المكروهة. وفي بيت ساحور، يتم الانقضاض على محصّلي الضرائب عادة في صباحات أيام الأحد عندما يكون الشباب بالكنيسة، فعندما ينتشر خبر بأنهم يدخلون البلدة، تغلق المحلات أبوابها فوراً، لقد قال البعض أن عبقرية الانتفاضة تكمن بتحقيق توازن شبه كامل بين العنف واللاعنف، وبذلك حيّدت أقوى سلاح إسرائيلي، ألا وهو الجيش. إن من شأن تصعيد المقاومة المسلّحة أن يُقلق هذا التوازن الثمين، وأن يوفر لإسرائيل ذريعة ممتازة لتطلق قدرتها العسكرية من عقالها، وسينشأ عن ذلك حمّام دم بالتأكيد.

ومن جانب آخر، كان هناك حجة مضادة بأن إسرائيل تفهم القوى العنيفة فقط، وكذلك وفي كل الأحوال فإن إسرائيل لا تجد نفسها مضطرة لانتظار ذريعة: فعندما تجد نفسها جاهزة لارتكاب حمّام دم، فإنها ستجد أو حتى تختلق ذريعة.

لقد كانت الاعتبارات التكتيكية والاستراتيجية فقط ما دخل

في النقاش حول المقاومة العنيفة. لا يشعر المرء أن هناك أي وسواس أخلاقي بين الفلسطينيين بشأن اللجوء للقوة المسلحة. لقد أبعدت إسرائيل مبارك عواد الذي يتخذ لقب غاندي فلسطين، وربما لم يكن داعية السلام الفلسطيني الوحيد، ولكن لم يكن يبدو أن هناك الكثير مثله.

عندما قمت بحثّ الطلاب في أحد الصباحات على غناء «أنشودة الفرح» «كالملائكة» تدخّلت سميرة وقالت: «كجنود». وعندما عرضت على سميرة أن أقوم بتعليم الطلاب القصيدة السلمية «نزولاً بجانب النهر» قالت بوداعة: «إنها تعنينا الآن». وعندما طُلب من سميرة أن تختار سِفراً من الإنجيل للصلاة الصباحية في المدرسة، استبعدت حالاً «السفر المتعلق بإدارة الخد الآخر».

كان هناك معالم مستمرة تذكّر بالمعيار المزدوج الفاضح للعنف والذي يقيّد الفلسطينيين. فبينما «ويل لنا، امرأة يهودية بإمكانها حمل مسدس، ونحن ليس مسموح لنا حتى حجر». إن الهجوم بالقنابل الحارقة على محصّلي الضرائب في رام الله قد جعل سميرة تطلق حكماً: «إن هذا عدل فقط»، وجعلني رد فعلها هذا أستحضر في ذهني شيئاً قالته أمي في إحدى المرات، إذ سألها أحدهم لماذا شن اليهود في جيتو وارسو المقاومة المسلحة عندما كانوا قد خسروا كل شيء تماماً، أجابت أمي: «كان شعورنا أنه إذا كان لابد لنا من أن نموت، فيجب أن يموت بعض الألمان أيضاً، هم أيضاً يجب أن يدفعوا ثمناً».

في أحد أوقات ما بعد الظهر، توقفت سميرة برهة وأخذت تتفكر في التشفّي الذي لم تستطع كبحه إذ كان الشباب يقومون برجم

الجنود خارج النافذة، وقالت مستغربة وبصوت مسموع «هل أنا أفقد إنسانيتي». ربما كان الأمر كذلك، هكذا أنا فكرت، ولكن ليس أكثر مما سيشعر به أكثرنا في ظروف مشابهة. قبل عدة أسابيع من ذلك كنت قد قرأت الوصف غير العادي الذي كتبه آرنو ماير عن المحرقة النازية في كتابه، لماذا لم تظلم السموات؟ في الفصل الأخير من الكتاب، يتذكر ماير الانتقام الغاضب للجيش الأحمر: لقد تقدموا وكأن -ويستعير كلمات الروائي الروسي إليا إيرنبورغ- «كل الخنادق، القبور، والوهاد امتلأت بجثث الأبرياء المتقدمين في برلين، (إلى جانب) الأحذية والبساطير وأحذية الأطفال الذين قُتلوا أو تعرضوا للغاز في معسكر ميدانيك». ولقد طالب الجيش الأحمر بأن يطبّق «ليس عيناً بعين، ولكن عينين اثنتين بعين». منتقداً نداء إيرنبورغ للانتقام الأعمى، فإن ستالين وضع ملاحظة بأن «ليس كل الألمان نازيين»[5] مع هذا فقد وضعت أنا على الهامش بجانب مطالبة إيرنبورغ ملاحظة بقلم الرصاص أن «نعم» إذ أن كلاً من والديّ كانا في ميدانيك، ومعظم عائلتي هلكت هناك.

حتى ذلك الحين، وعندما كان يُجسّ رأيي في المقاومة العنيفة، وكان هذا كثيراً ما يحدث، كنت أجد نفسي مستسلماً لتكتم غير محدود، وليس هذا فقط بسبب أنني كنت غير متأكد من أن تكتيكاً كهذا كان حصيفاً سياسياً، ولكن لأن الوضع كان وكأنني كنت أُسأل عما إذا كنت، كيهودي، أقرّ قتل أقراني اليهود. لقد شعرت بارتباك شديد في هذا النطاق، فإذا قمت بإقرار حق الفلسطينيين بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي بالقوة المسلحة، وقد فعلت ذلك بشكل صريح، فإن ذلك بسبب إيماني بأن كل شعب يملك هذا الحق. وكما عبّر غاندي عندما ثار الفلسطينيون في العام 1936 «وفقاً للقواعد المقبولة

للخطأ والصواب، فلا شيء يمكن أن يقال ضد المقاومة العربية في وجه الاحتمالات الكاسحة». ولكن طرح القضية من الناحية اليهودية، من وجهة نظري، هو جعل القضية عشائرية وبالتالي تزييفها، وهذا ما وضعني في حالة دفاعية. وبهذا الخصوص، فأن يبارك يهودي قتل يهود آخرين، وأن يتسامح مع المقاومة المسلحة بدا وكأنه نوع من كره الذات.

V بالكاد رفع الفلسطينيون حواجبهم عندما عرفوا بأنني يهودي. علمت لاحقاً بأن معلمة من تليثه كومي قد أخفت امتعاضها. كان رد الفعل السائد هو عدم الاكتراث، وحالما تم تمرير كلمة للشباب بأنني «O.K» كانت المسألة قد انتهت. في نهار أحد الأيام أخذتُ ألحّ على نديم عيسى بالسؤال، لماذا يدردش معي بهذه البساطة رغم أنني وبعد كل شيء أميريكي ويهودي؟ فأجاب ببساطة «نحن نطرح أسئلة في البداية، ثم نحكم على ما نراه». حضرت يوماً قداس عمّاد مع أحد الجيران، وتم تقديمي لأحد الضيوف، وعرَّف عليّ جاري ببساطة كيهودي من الولايات المتحدة، فشعرت بالأسف كونه ذكر أني يهودي بدون اكتراث، حتى تبين لي أن لا أحد اهتم بتاتاً. بعد أن عرف مدير مدرسة تليثه كومي بأنني يهودي قال: «أنا لا أنتظر من الولايات المتحدة أن تكون منصفة بين اليهود والفلسطينيين، ولكن لماذا عليهم أن يسحقونا؟».

في بعض الأحيان، فإن هذا التعقُّل يصبح قريباً مما يتعذر فهمه. عندما جلسنا في مكتبهِ في الخليل، فإن وكيل العقارات الفلسطيني الذي قابلته في الصيف الماضي أصرّ على أن كل العرب واليهود ضحايا «للمؤامرة الرأسمالية» في الولايات المتحدة، ثم سألته عن حال ابنه أحمد «ابني؟ لقد أُطلق سراحه منذ فترة وجيزة من

اعتقال إداري لمدة ستة أشهر، إنه لم يفعل شيئاً، لكن.. ليس مهماً» ولاحقاً، تحدثت مع أحمد، ومثل أبيه فقد كان شيوعياً. في العام 1985 ذهب للدراسة في الاتحاد السوفييتي ببعثة دراسية لمدة أربع سنوات، وقد كان مأخوذاً بما رأى واختبر هناك، فلقد انفتح له عالم جديد، ولكن بعد ذلك أتى عالمه القديم طاغياً، فلدى عودته للوطن بعد سنة لتجديد أوراقه، اعتُقل أحمد وأُلقي به في السجن الانفرادي، ثم تم اعتقاله لاحقاً ست مرات. قبل هذا بعدة سنوات، امتدّ أفق أحمد ما بعد عتبات السوفييت في آسيا، والآن فقد أُجبر على حمل بطاقة هوية خضراء، وحُدِّدت إقامته في الخليل. أكد أحمد أيضاً بأن كلاً من اليهود والعرب كانوا ضحايا لإمبريالية الولايات المتحدة. لقد حسدته، حتى ولو أنني وجدت أنه من الصعب سبرهم، على قدرته بأن يتحلى «باللياقة السياسية» لهذا الحد، حتى أنه قال بعض الكلمات الطيبة بحق الجنود «في السجن، ليسوا كلهم سيئين، أحياناً يقوم أحدهم بإيماءة لطيفة» ولم أستطع أن أوافقه على ذلك، فباللحظة التي يتلقى بها الإسرائيلي اللباس العسكري، ويقبَل بأن يُرهب الأطفال إذ يقتحم بيوت الفلسطينيين في حلكة الليل (وليس هناك جندي إسرائيلي قد يرفض هذا الأمر)، فإنه يخسر /95/ بالمئة من إنسانيته، وبما يخص الخمسة بالمئة الأخرى، فإنها لا تهمني. مع ذلك، أستطيع أن أفهم لماذا تهمّ أحمد[6].

في ثلاث مناسبات فقط أصبح «السؤال اليهودي» نقطة مؤلمة، ففي إحدى المرات اشتد التوتر عندما بدأ أعضاء فرقة دبكة في نقاش حاد، قال مفيد حنا «عقائدياً، فأنا أدعم جورج حبش، ولكن تكتيكياً فأنا أتفق مع أبو موسى» القائد لفصيل فلسطيني منشق ومدعوم من سوريا، فقام شاب آخر وقال متحدياً له «بمعنى آخر أنت

تريد قتل كل اليهود؟» فصاح راداً عليه «لا، فقط اليهود الفاشيين» عندئذ استدارت عدة وجوه تنظر صوبي، فقلت أن عليه أن يتحدث بحرية، فبعد كل شيء أنا هنا لكي أستمع وأتعلّم، وأضفت لأدعه يعرف بأنني يهودي «أنا أفترض أنك لن تقوم بقتلي الآن». وبالرغم من أن الإحراج قد بدا عليه، فإن مفيد الذي تعرّض عدة مرات لتوحش الجنود، لم يتراجع عن كلماته. ومع هذا، فبينما كنا نغادر المكان، مال عليّ وهمس في أذني «نحن لا نريد قتْل اليهود، ولكن أخبرني، ما الخيارات التي نملكها»[7].

في إحدى الليالي سألني الياس عما إذا كنت أعتقد بأن الفلسطينيين بحاجة لهتلر جديد «ليلقن اليهود درساً بحق». فحاولت إقناع الياس (والذي كان غير مسيَّس) بأن هتلر ليس هو الحل، وعلى طعام العشاء فيما بعد أعاد رغم ذلك أسئلته، فتفصّد منّي العرَق واندفقتُ أخيراً بالقول: «كيف يمكنك حتى أن تسألني هذا السؤال، أنا يهودي وعائلتي كلها تقريباً قد احترقت بواسطة النازيين» وفجأة انبثق صوت إطلاق نار مدوّي وغير عادي في الخارج، فهزّ حمو سميرة رأسه بقرف وقال: «هذا ما نجده من اليهود!» وتدخلت سميرة أخيراً بالقول: «لا يوجد فلسطيني يريد هتلر، ولكن بالحقيقة فإننا أحياناً نتمنى لو أنه قتل كل اليهود». أردت حينئذ أن أشرح خطأ هذا الاعتقاد. ولكن في تلك اللحظة بدأ جنود الجيش بالخبط على الباب، من الواضح أن أحد ما قام بالصفير من سطح البيت، إذ أن الشباب يستخدمون أصوات الصفير للاتصال فيما بينهم ليلاً، وخوفاً مما قد يحصل لهم على أيدي الجنود، فإن اليافعين في بيت سميرة جلسوا حول الطاولة في غاية التوتر. لكن في هذه المرة وجد الجنود «المذنب» الحقيقي، حينها وجدت أنه من العبث محاولة نقاش «السؤال

اليهودي» بعقلانية، إن الأوضاع الجنونية تنتج ردود أفعال جنونية. في ذلك الوقت خطر بذهني شيء كتبه نعوم تشومسكي في إحدى المرات: لا تتوقع من أحد أن يقدّر إنسانيتك عندما يكون حذاؤك على رقبته. إن والديّ، وأنا واثق من ذلك، كانا سيطيرا من الفرح، لو أنهما في العام 1943 قد أُخبرا بأن الألمان على وشك أن يُقتلوا عن آخرهم. لماذا كان عليّ أن أتوقع أخلاقيات أكثر رفعة من الفلسطينيين؟ إذا ارتفعوا إلى مستوى أخلاقي أعلى، سأكون أول من يصفّق لهم، وإذا لم يفعلوا ذلك، فليكن، سأُخضع الفلسطينيين لمعاييري الأخلاقية، فقط بعد أن تزيل إسرائيل حذاءها كذلك، وبكل صراحة، وبعد أربعين سنة كاملة على قتل النازيين لليهود، فما زلت لا أتوقع من والديّ أن يكونا «إيجابيين» إزاء «السؤال الألماني».

بعد العشاء أخذنا نتناقش أنا وسميرة حول الصراع الفلسطيني، وقلت لها أنه بوجهة نظري، وأن يكون التاريخ غير عادل فلا يمكن إعادته للخلف، وأن إسرائيل في أحسن الأحوال وفي أسوأ الأحوال حقيقة واقعة، وأن مطالب الفلسطينيين بالأرض التي عليها إسرائيل غير واقعية، كما لو افترضنا أن سكان أميريكا الأصليين طالَبوا بكل أرض أميريكا الشمالية، فالحق التاريخي يبتزّ حتى أكثر الحقوق الأخلاقية وضوحاً، والحقيقة المرّة أن القوة في النهاية تصنع الحق، إذ أن الغزو قد خلق حقاً شرعياً بالأرض.

استاءت سميرة بشدّة وقالت، لماذا أقارن الفلسطينيين بالهنود، والإسرائيليين بالأميريكيين؟ فالتشبيه الصحيح هو بين الإسرائيليين والهنود من جانب، وبين الفلسطينيين والأميريكيين من الجانب الآخر، وبعد كل شيء فقد كان الإسرائيليون من أراد اغتصاب أرض عاشوا بها قبل مئات السنين. لقد تفهّمتُ وجهة نظرها ولكنها بعدئذ قالت:

«للمرّة الأولى أرى فيك اليهودي والإسرائيلي». والآن جاء دوري لأن أشعر بالاستياء، فمن الناحية الأولى، إذا رأت بي اليهودي، حسناً، فأنا يهودي بعد كل شيء، ومن ناحية ثانية، من غير العدل أن تعدّني من الأعداء فقط لأننا اختلفنا بالرأي، فأنا أبحث عن الحقيقة، وأحياناً فأنا أرتكب أخطاء في التقدير، وهذا لا يجعل منّي عدواً، إنه يجعلني فقط مخطئاً في شيء ما. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقترب بها أنا وسميرة من المواجهة، وفي الحقيقة، ما كنّا لنتواجه أبداً.

لمدة ثلاثة أسابيع، كنت أُعامَل بكل الاحترام والكرم من قبل سميرة وعائلتها، كنتُ غريباً تماماً، أميريكياً ويهودياً. ورغم أنهم أصيبوا بضيق مادي أخيراً، لكنهم استمروا باستضافتي. في إحدى الليالي جلستُ على الشرفة غاصّاً بالبكاء، فأتت سميرة لمواساتي، كنت قد أطبقتُ فكّي وأخذتُ أهزّ رأسي مردّداً بأن ذلك ليس عدلاً. وفي تبادل عجيب للأدوار أخذت سميرة تذكّرني بأن الشعب الفلسطيني ليس الشعب الوحيد في العالم الذي عانى من الظلم. ذلك صحيح، ولكن من ناحية مميزة، فإن الاستشهاد الفلسطيني كان أشد، إنه من العادي ألا يكون ضحايا الظلم محل التعاطف، ولكن إسرائيل دبّرت بنجاح قلب الحقائق بأن صوّرت الفلسطينيين بالإجمال بصورة الشياطين. وبينما كنّا نتحدث في تلك الليلة، ظلّ ذهني يومض بتذكّر تلميذ من طلاب صف اللغة الإنجليزية الذي أقوم بتدريسه، كان وجهه مضيئاً على الدوام بالبراءة الطفولية ولو كان له ابتسامة شيطنة، ما عدا مرة إذ سأل، ماذا يعتقد الأميريكيون بشأن الفلسطينيين؟ وقبل أن أجيبه انفلت بغضب بالكاد استطاع كبته «إنهم يعتقدون بأننا حيوانات، أليس كذلك؟» ولم أجد بنفسي الجرأة لأن أخبره بأن ذلك صحيح.

يومي الأخير في فلسطين لم يكن يوماً بهيجاً، فقد استيقظنا على أخبار بأن الحراس قد سحقوا بشراسة احتجاجاً سلمياً في سجن جنيد الحصين، وبين هؤلاء الذين جرحوا وزُجَّ بهم في الحبس الانفرادي كان شقيق سميرة. طلبت منّي سميرة أن أشاهد شريط فيديو لفيلم وثائقي بثّه التلفزيون الإسرائيلي عن سجن جنيد، وقد أعلن المذيع التلفزيوني أنه «فندق خمس نجوم» وقيل إن السجن يوفّر إيواءً في غاية الروعة إلى درجة أن «الفلسطينيين يقومون بقتل الإسرائيليين فقط لدخول هذا السجن» وركّز الفيلم طوال بثّه على فترة الرياضة اليومية، والنزلاء يقومون بلعب التنس وكرة السلة، وعلى الحوار بين لجنة من السجناء ومسؤول السجن الإسرائيلي المتعقّل والمشهور بإنسانيته. وبفكرة واحدة، كان الفيلم الوثائقي هو من النوع الذي تتوقعه من شبكة تلفزيون مملوكة وموجّهة من الدولة.

ولسخرية الأقدار، فلقد سبب الفيلم لغطاً في إسرائيل، إذ استنكرت العامة سماحة مسؤول السجن المفرطة، مما دعا نظام السجن لأن يزداد صرامة أكثر مما كان، وهذا ما حثّ السجناء على احتجاجهم الأخير. «فندق خمس نجوم»، استمرت سميرة تدمدم طوال النهار. وتماماً كما حدث في العام 1985، فعندما قام أهالي المعتقلين في السجن بالتجمع خارج السجن، وبدأوا خطتهم بالتظاهر، انفجر السجناء بالبكاء عندما سمعوا الأناشيد في الخارج، كما وصف ذلك شقيقَيْ سميرة في رسالة أرسلها لها لاحقاً. إنهم ليسوا وحدهم! تتذكر أمي أن أقسى تجليات المحرقة النازية، هو أن أحداً لم يبدِ اكتراثاً، ومما بدا غير مفهوم أكثر من وحشية النازيين هو صمت الآخرين جميعاً. «ما الفرق الذي كان سيصنعه ذلك» تنهدت أمي

وقالت، «لو أنني فقط سمعت صراخ الناس.. حتى لو كان صراخاً للسماء.. حتى لو كان صراخ اليأس».

بعد الظهر من ذلك اليوم، وصلت الأخبار عن مذبحة في بيت لحم، فلقد قام فصيل متخفٍّ في زي سيّاح بالتغلغل بجمع من المحتجّين، وأصابوا برصاصاتهم خمسة فتيان فلسطينيين من مسافة قريبة. أُرديَ لأحدهم قتيلاً، والجرحى الأربعة جرّهم الجنود من شعرهم على طول الإسفلت إلى المركز العسكري، وبينما كان الجمع المرتعب يتشتت، أخذ القتلة الذين باللباس المدني بالضحك والمزاح مع القتلة بالملابس العسكرية.

أين كان النقّاد ليتألموا على هذا العمل الإرهابي، أين كانت لوعة روبرت سلفرز صاحب «اللوعة في إسرائيل»؟ أين هي حكمة ميرون بينيفينستي بأن هذا ليس احتلالاً وحشياً وإنما «كائنين بدائيين متنافرين، بينهما حرب رعاة مزمنة»؟ أين كان توماس فريدمان الفائز بجائزة بوليتزر وأفكاره المتبصّرة بأن «أنتم كلّكم قطّاع طرق.. أنا أعرف ذلك، فلقد عشت معكم».أين كان مسؤول القسم الثقافي في مجلة التايمز والتر جودمان وتحذيرُ بأن «القصص الفظيعة» عن الفلسطينيين لم تثبت؟(8) وفوق كل هذا، أين كانت لوعة إيلي ويزلي على سوء طالع إسرائيل واليهود؟

ألم يكونوا يملأون الدنيا صخباً عن قتْل عدة مئات من الشباب الصينيين العزّل في ساحة تنيامين، ولكن ليس عن قتْل عدة مئات من الشباب الفلسطينيين العزّل؟ ألم يكونوا يحتجّون على حجز عدة آلاف من السجناء السياسيين الصينيين (من تعداد سكاني يبلغ المليار)، ولكن ليس على حجز عدة آلاف من السجناء السياسيين الفلسطينيين

(من تعداد سكاني يبلغ المليونين)؟ ألم يكونوا ينشدون الأناشيد لكفاح الشعب الصيني من أجل الديمقراطية، ولكن ليس لكفاح الفلسطينيين لما وصفه جون ستيوارت مل بأبسط الحريات الديمقراطية، وتحديداً الحق في «اختيار الجماعة الإنسانية التي يرتبط بها المرء»؟

* * *

بينما كانت الطائرات الإسرائيلية المقاتلة تحلّق فوق الرؤوس لعدة مرات في اليوم، فقد كانت التجمعات السكنية الطبيعية للفلسطينيين ترتجّ بالانفجارات الصوتية. لقد كانت طلعات كهذه ممنوعة فوق المناطق الإسرائيلية. ولم يستطع الفلسطينيون، كما قيل لي، أن يعتادوا عليها أبداً، فإن الأعصاب تبلى إذ تتزلزل المنازل حتى أساساتها. بعد رجوعي إلى الولايات المتحدة، سألني صديق صحفي عن وصف مجازي يصف تأثير الاحتلال الإسرائيلي على حياة الفلسطينيين، فوثَب إلى ذهني فوراً: قنابل الصوت التي ترجّ فلسطين بوحشية من مركز ثقلها.

ملاحظات الفصل الثاني

(1) في مذكراته، فيض من الذاكرة، (بيركلي، 1993)، يتسحاق زوكرمان، وكان قائداً في اضطرابات جيتو وارسو، فإنه يسهب إسهاباً طويلاً في السؤال المتعلق بالمتعاونين اليهود في الجيتو. ويؤكد على الدور الحاسم الذي شغلوه في آلة القتل النازية، كتب زوكرمان:

> **من الواضح أن الألمان ما كانوا لينفّذوا العمل بهذه السهولة أو هذه السرعة من دون البوليس اليهودي، لأن اليهود كانوا سيهربون حتماً من الألمان، ولكنهم عندما رأوا رجل بوليس يهودي، لم يخطر لهم بأنه سيقودهم إلى حتفهم. كما أن رجال البوليس اليهود قد عرفوا.. ماذا كان تريبلينكا إذ أن البوليس اليهودي نفسه هو الذي قد أحضر المعلومات عن المذابح التي تجري هناك، ويمكنك القول بأنهم ساهموا ببناء تريبلينكا، وهناك أدلة موثّقة بذلك.. وعندما كان يوجد مئات الآلاف من اليهود في وارسو، فإنه ما كان بإمكان الألمان أخذ المنفيين إلى تريبلينكا بدون مساعدة من اليهود ذاتهم. لقد كان البوليس اليهودي من قام بالقبض على جماهير اليهود ومن أخذهم خارجاً.. عندما كان اليهودي البسيط يرى رجلاً يهودياً بزيّ بوليس يناديه، كان من الصعب عليه أن**

يتخيل أن أخاه سيقوده إلى الموت.. لم يتبين لنا أن الألمان سيستخدمون العامل اليهودي، وبأن اليهود يمكن لهم أن يقودوا يهوداً إلى الموت.. في كثير من الحالات كان هناك قوات مختلطة من الألمان واليهود، وهنا أيضاً كان أفظع الأعمال وأكثرها إثارة للاشمئزاز تتم بواسطة رجال البوليس اليهود كأدلاء ومساعدين نشيطين.. ليس هناك فصل آخر في التاريخ اليهودي كان به القتلة أنفسهم يهوداً أساساً.. لم نتنبأ بحجم البوليس (اليهودي) الذي كان يعمل ضد اليهود. فجأة ظهرت كتلة من الآلاف ضدنا، قوة انضباطية مع آمرين يشغلون دوراً حاسماً في المهمة الألمانية بتدمير الجيتو. (192، 208، 209، 210، 212).

وفقاً لزوكرمان، لم يكن باستطاعة المتعاونين اليهود أن يقدموا أي أسس لتبرأتهم أخلاقياً:

يفترض أنه هناك حجة «مشروعة» بأن أي شخص لا يتبع الأوامر كان مهدداً بالموت. ولكن ما هو الخطر الذي كان يواجه قوة البوليس (اليهودي)؟ على الرغم من كل ما حصل لليهود.. هناك نزعة للدفاع عنهم، هناك من يقول بأنه ما كان لديهم خيار.. بالطبع لم يكن لديهم خيار.. من اللحظة التي قرروا بها أن يصبحوا رجال بوليس.. لم يكن هناك أي رجل بوليس «محترم»، لأن الرجال المحترمين خلعوا بزّة البوليس وأصبحوا يهوداً بسطاء.. فليس هناك ما يقال! كان من الواجب تدميرهم تماماً عن بكرة أبيهم. (192، 207، 244، 269).

وصَف كروزمان لاحقاً عدم قتْل المتعاونين اليهود بأنه أكبر خطأ لا يُغتفَر للمقاومة:

> **ما هو باعتقادي ذنبنا الأفدح..؟ كان ذنبنا أننا لم نبدأ فوراً ومن اليوم الأول حربنا الضروس ضد البوليس اليهودي!.. كل ما كان علينا عمله هو قتلهم. لو أن القليل منهم فقط قد تم قتله، لَخَاف الآخرون من الانضمام، لم أسامح نفسي أبداً على عدم فعل ما كان علينا فعله.. لاحقاً، عندما بدأنا بالمضي في هذا الطريق، كان الأمر قد أصبح متأخراً جداً.. إن إخفاقنا الأكبر وعارنا، هو أنه كان من الممكن معالجة أمر البوليس اليهودي ولكننا لم نفعل. (192، 207).**

لدى بدء المقاومة اليهودية للاحتلال النازي، فإن أولى الأولويات كانت «التركيز على تصفية الخونة اليهود» ويؤكد زوكرمان على أن:

> **على الحرب أن تبدأ بالبوليس، بالمتعاونين، باليهود، كان من المستحيل البدء بمحاربة الألمان بدون إنهاء الخيانة الداخلية.. أنا متأكد بأنه أينما كان هناك خيانة داخلية، على الحرب أن تبدأ بتدميرها.. لقد كان من الصعب علينا عاطفياً ابتلاع حقيقة أن حربنا يجب أن تبدأ بالبوليس اليهودي، إذ أن أنظارنا كانت موجّهة إلى الألمان. (208، 209، 210).**

وهكذا، فقد تم توزيع منشورات في كل الجيتو تعلن بأن «كل قوة البوليس (اليهودي) قد تم الحكم عليهم بالموت» وتتضمن رواية زوكرمان جرداً محدّداً بالمتعاونين اليهود -في البوليس كما في المجلس

اليهودي– الذين تم اصطيادهم وقتلهم بشكل مدروس بواسطة منظمة المقاتلين اليهودية. (202، 203، 245، 269).

(2) أبيات النشيد هي كما يلي:

غنِّ ، أخي ، نشيد الوطن
غنِّ ، صيت أرضك الخالد
أنِر الحكاية الرائعة للشعوب
مع اسم شعبك الذهبي

ارو قصة أبيك النبيلة
ارفعْ عالياً راية بلدك
ثم التحقْ بالمجد النهائي
ارفعْ ، أخي عَلَمك مع علَمي

ابنِ طريق السلام أمامنا
ابنها واسعة عميقة وطويلة
عجّلْ المتمهّل واضبطْ المندفع
ساعدْ الضعيف وارشدْ القوي

لا أحد يدفع الآخر جانباً
لا أحد يترك الآخر يسقط
اعملوا معاً ، يا كل إخوتي
الكل للفرد والفرد للكل

(3) Primo Levi, The Reawakening (New York, 1986), 207.

(4) Arthur D. Morse, While Six Million Died (New York, 1967), 222.

(5) Arno Mayer, Why Did the Heavens Not Darken? (New York, 1988), 422.

(6) في أثناء ارتكاب حتى أكبر الجرائم شناعة، فإنه من الثابت أن المرتكبين يظهرون طيفاً واسعاً جداً من السلوكيات. ولكن الذنب المحيط بهم جميعاً مع ذلك، أمر مسلَّم به. وعلى سبيل المثال، فإن الناجين من معسكر اعتقال اوشويتز كانوا يتذكرون بامتنان، هذا الصرف اللطيف أو ذاك، من الأطباء النازيين. ويستذكر أحد المعتقلين، «أن أي أحد ممن لم يجرّبوا المعسكرات أبداً، ليس بمستطاعه أن يعرف كم لأشياء كهذه من قيمة حقيقية للمعنويات». مع هذا، من يستطيع أن يحاجج بأن إيماءة كهذه تعوِّض أخلاقياً عن مشاركة الأطباء النازيين في الاصطفاءات؟

See Robert J. Lifton, The Nazi Doctors (New York, 1986), 195, 227, 315.

بعد فترة وجيزة من مغادرة بيت ساحور، تسلمتُ رسالة من مفيد، وكتب في جزء منها: «أعتقد بأنني لن أنساك لأنك أثّرتَ عليّ كأول صديق يهودي.. في الماضي عرفت اليهودي كمحتل، كجندي، ككائن غير إنساني، ولكن الآن فأنا أعرف يهودياً كصديق.. حقيقي، إنك أنت اليهودي الأول الذي قابلته كصديق، وبسبب ذلك أنا لن أنسى هذه الصداقة الخاصة بين فلسطيني ويهودي أميركي، أنا أعلم أننا مختلفان في أشياء كثيرة، ولكن هذا ليس سبباً لكي نصبح أعداءً، لهذا ربما سنصبح أصدقاء إذا ساعدنا قدَرنا أن نرى بعضنا ثانية».

الفصل الثالث

معيار مزدوج في تطبيق القانون الدولي

لدى بدء غزو صدّام حسين للكويت، وجّهتْ صحيفة نيويورك تايمز وفي المقالة الرئيسية على الصفحة الأولى اتهامات شاملة للعراق بعنوان «العالم ضد صدّام حسين». وقد بيّنت حججاً بأن قائد العراق قد أصبح مجرم حرب «على طبيعة كلاسيكية كما في نوريمبيرغ». بواسطة «جرائمه بحق السلام»، «جرائم بحق الإنسانية» فإن صدّام حسين كان مجرم حرب فريداً من نوعه[i].

في هذا الفصل، لا أريد أن أتنازع مع اتهامات النيويورك تايمز عن صدّام حسين، ولكن أريد أن أطبّق معايير نوريمبيرغ ذاتها على إسرائيل وأرى النتائج، إن مقارنة كهذه ستدلّ على أن إسرائيل مذنبة بذات الخروقات للقانون الدولي والتي تم شجب العراق من أجلها، وهذه حقيقة لم تتم الإشارة إليها أبداً تقريباً -بل تم إنكارها عادة- من قِبل واشنطن ووسائل الإعلام في الولايات المتحدة، كما أن وجهة النظر التي سوف أطرحها ليست بأن إسرائيل أسوأ من العراق، ولكن أن إسرائيل كانت المستفيدة من معيار مزدوج. وسنعرض تحليلاً واقعياً

لكي نشير إلى ما هدفت إليه الهستيريا الإعلامية الأوركسترالية المخطَّطة، ولقد حدّدت نفسي على الأغلب بالوثائق التي كانت متوفرة عشية الهجوم بقيادة الولايات المتحدة.

I «جرائم بحق السلام»

كان الاعتبار الأول لاتهامات صحيفة نيويورك تايمز ضد صدّام حسين هو «جرائمه بحق السلام» -وعلى سبيل المثال، اجتياح الكويت-.

من الممكن أن البعض قد فكروا بأن المقارنة مع اجتياح إسرائيل للبنان في العام 1982 كانت واضحة، وفي الواقع، فإن نيويورك تايمز قد أقامت المقارنة في مكان آخر لكي تؤكد للقرّاء بأن هناك «فرق جوهري» بين الحالتين: «الكويت لم تهاجم العراق، بينما كان جنوب لبنان مقراً لقواعد فلسطينية قصفت مناطق إسرائيلية باستمرار». كما أن «الفرق الجوهري» ذاته، قد اقترحته مجلة نيويورك بمسرد الوقائع الذي نشرته، وأشارت إلى «قصف منظمة التحرير لشمال إسرائيل من جنوب لبنان»[2] بوصفه الدافع وراء «الاجتياح الشامل» من قِبل إسرائيل.

مع ذلك، لم يكن هذا ما ذكره إسرائيليون معروفون بصدد الأحداث التي قادت للحرب اللبنانية. ففي كتابه (معضلات الأمن) - Dilemmas of Security- يقول الباحث السياسي الإسرائيلي أفنير يانيف -Avner Yaner- بأن الاجتياح الإسرائيلي «قد سُبِق بوقف إطلاق للنار امتد لما يزيد عن السنة مع منظمة التحرير». كما أن الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، يهو شافات

هركابي Yehoshafa Har Kabi— كذلك يورد في كتابه (ساعة إسرائيل القاتلة) Israele's Fateful Hour— بأن الحكومة الإسرائيلية «كذبت على العامة بأن ضخّمت بشدة الأعمال الإرهابية التي تُشنّ من لبنان». ويورد هركابي مستشهداً بشهادة وزير الدفاع السابق إسحاق رابين أمام الكنيست، أنه خلال وقف إطلاق النار الذي سبق اجتياح لبنان، تمّت مهاجمة المستوطنات الإسرائيلية الشمالية مرتين فقط، كما أن كلاً من هذين الهجومين كانا قد سُبقا بهجوم جوّي إسرائيلي ضد لبنان. (الهجوم الثاني فقط من هجومَي منظمة التحرير، كان قد أدّى إلى إصابات إسرائيلية، كما أن ذلك الهجوم قد حصل بعد ضربة إسرائيلية تركت ما يقارب مائتي مدني أمواتاً ومن ضمنهم ستون نزيلاً في مستشفى أطفال فلسطيني قرب مخيم صبرا»[3].

كان هناك، بالتأكيد، أكثر من «فرق جوهري» واحد بين الاجتياح العراقي للكويت والاجتياح الإسرائيلي للبنان، فالهجوم على الكويت قد أثير، من ضمن أسباب أخرى، بسبب عدم استعداد الكويت للتفاوض بشأن، ما اعترفت حتى صحيفة نيويورك تايمز بأنه مطالب عراقية شرعية، وعلى سبيل المثال، قيام الكويت بسرقة النفط من حقل الرميلة المشترك، في حين أن الهجوم على لبنان قد شُنّ بالرغم من استعداد منظمة التحرير للتفاوض في كل المطالب الشرعية لإسرائيل -وفي الواقع لهذا السبب بالتحديد-، ففي عشية حرب لبنان، وفقاً لما يقوله يانيف، شرعتْ منظمة التحرير في «مسار متقبِّل للتسويات باتجاه الدولة الصهيونية أكثر بكثير من قَبْل»، وكذلك فإنه بقدر ما كان عرفات يصبح غير مكرّس للمطالب المتطرفة ولكن «معتدلاً بشكل أساسي» فإن الإدارة الأميريكية كانت تضغط على إسرائيل «كي تتعامل مع منظمة التحرير مباشرة». ويستنتج يانيف،

قائلاً: «كان لدى إسرائيل خياران» في صيف 1982: «مدٌّ تحرك سياسي يقود إلى تسوية تاريخية مع منظمة التحرير الفلسطينية، أو عمل عسكري وقائي ضدّها» لكي تتوقى «هجوم السلام» من منظمة التحرير (كما يعبّر يانيف)، واختارت إسرائيل العمل العسكري.

في الواقع، فقد كان «السبب الجوهري» للاجتياح الإسرائيلي هو أن تسدّ الطريق أمام تسوية النزاع على أساس قيام دولتين. ومثل ذلك، فإن هركابي يذكر «أن تسمية حرب لبنان (حرب سلامة الجليل) هو أكثر سوءاً من اسم مغلوط، كانت ستكون أكثر صدقاً، لو سميت (حرب حماية احتلال الضفة الغربية)»[4].

ثاني «فرق جوهري» بين هجومي العراق وإسرائيل يمكن أن يحدَّد بدقة رياضية تقريباً، فقد قالت التقارير بأن ما يقارب المائتي كويتي قد هلكوا أثناء الاجتياح العراقي، بينما هلك تقريباً عشرون ألف فلسطيني ولبناني أثناء الاجتياح الإسرائيلي[5]. إن هناك فرق بحجم مائة ضعف بالتمام بين الاجتياحين، وكما استشاطت وسائل الإعلام غضباً بسبب استعمال العراق للأسلحة الكيماوية الرهيبة ضد إيران والأكراد، كان عليها أن تتذكر استعمال إسرائيل للقنابل العنقودية والقنابل الفوسفورية، غير المشروعة على الأرجح. أثناء حرب لبنان، وفي مذكراته الملحمية (ويل للأمة) –Pity the Nation– يصف المراسل الصحفي البريطاني المخضرم، روبرت فسك (Robert Fisk) ضحيتين من الأطفال اللبنانيين ممن تعرضوا لقصف القنابل الفوسفورية:

القصة التي روتها الدكتورة أمل شاما كانت مرعبة، وكان صوتها يتهدّج عندما كانت تخبرنا بها، «وجدت نفسي مضطرة لأن

آخذ الطفلين وأضعهما في دلوي ماء لإخماد اللهب» وتقول أيضاً: «وعندما أخرجتهما بعد نصف ساعة، كانا مايزالان يحترقان، حتى في مستودع الجثث استمرا بالاحتراق من غير لهب لمدة ساعات». في الصباح التالي، أخذت أمل شاما الجثتين الصغيرتين لكي تدفنا، ويا لرعبها، فقد انبثق اللهب بالجثتين ثانية[6].

مهما تكن صحة المطالب العراقية بالحقول النفطية المشتركة مع الكويت، فإن مطالبها الإقليمية ضد الكويت تفتقر للشرعية. وبالرغم من أن الحدود الاستعمارية التي حدّدتها بريطانيا العظمى قد أوقعت الظلم على العراق، فقد كانت حدوداً مصادقاً عليها دولياً ولا يمكن أن تبطل بالقوة المسلحة[7]، وفي إشارة إلى نظرة صدّام حسين (المزعومة) بأن الحدود الموجودة هي «خطوط اصطناعية مرسومة على الرمال» فإن نيويورك تايمز تقول بأن «مسألة الحدود هي مثال» على أن قادة العراق «وسائر العالم قد أساءوا فهم بعضهم البعض»[8]. ولكن قادة إسرائيل أيضاً يؤيدون فهماً غير تقليدي للحدود، إذ يعتقدون بأن حق الشعب اليهودي بأرض إسرائيل، وتتضمن المناطق المحتلة والأردن، «دائم» و«غير خاضع لأي سلطة أعلى»، ويقدم قادة الليكود التوراة ليؤسسوا حقاً مشروعاً. أما شمعون بيريس قائد حزب العمل فيقول مبرراً المطالب الإسرائيلية في الضفة الغربية: «ليس هناك جدال في إسرائيل بصدد حقوقنا التاريخية في أرض إسرائيل، فالماضي غير قابل للتغيير، والتوراة هي الوثيقة الحاسمة في تقرير مصير أرض إسرائيل». وكذلك ديفد بن غوريون، الأب المؤسس لإسرائيل، فإنه يقرأ استعمال القوة المسلحة لتحقيق الحدود التوراتية للشعب اليهودي، ويتصور أن دولة المستقبل سوف تدمج الضفة الغربية

وغزة، الأردن، مرتفعات الجولان، ولبنان. وعلاوة على ذلك، دعونا نتفحص الفقرة التالية:

إن حدود دول الشرق الأدنى قد ثُبّتت بصورة أساسية من قبِل القوى العظمى بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، ولم تتكرس أي من الحدود الحالية قبل أكثر من سبعين سنة من التاريخ، لقد رُسمت الحدود اعتباطياً وبقليل من الاعتبار للضرورات الاقتصادية والاستراتيجية.. إن الكثير من خطوط الحدود.. قد ثُبّتت من قبِل القوى العظمى لخدمة مصالحها الخاصة.

إن الاقتباس السابق لم يأتِ من الإعلام العراقي الرسمي ليبرر غزو الكويت، ولكن من الإعلام الصهيوني الرسمي مبرِّراً غزو الضفة الغربية وغزة وسيناء، في الحقيقة فإنه ولدى بدء حرب حزيران عام 1967، لم يكن شخصية أقل من إيبا إيبان ممثل إسرائيل في الأمم المتحدة مَن دافع عن شرعية الغزو الإقليمي، فقد ادّعى إيبان بأن المبدأ المنصوص عليه في شرعة الأمم المتحدة والقائل «بعدم جواز اكتساب مناطق بالقوة» لا ينطبق على الشرق الأوسط، حيث أن «الاتفاقيات الإقليمية» كانت دائماً تحدَّد بناءً على «اعتبارات عسكرية فقط»[9].

II «جرائم الحرب»

كان الاعتبار الثاني في لائحة اتهام صحيفة نيويورك تايمز ضد صدّام حسين بصدد جرائم الحرب، وعلى سبيل المثال، أخذ الرهائن.

ومع هذا فإن إسرائيل أيضاً أخذت رهائن، والفرق الوحيد كان واحداً في المفاهيم (الغربية)، كما يعلق روبرت فسك:

لماذا كان الأمر أن يُدعى الرهائن الغربيون «رهائن» -وهم كانوا كذلك- بينما كانت الصحافة تشير إلى السجناء المسلمين الشيعة اللبنانيين والذين احتُجزوا في سجون تسيطر عليها إسرائيل في جنوب لبنان على أنهم «سجناء»؟ فهؤلاء اللبنانيون كانوا قد احتُجزوا بصورة غير مشروعة أيضاً، وبدون تُهَم موجّهة إليهم. ولقد أُخذوا كرهائن -وفقاً لأحد قادة المليشيا ممن تمّ التحكّم بحياتهم- لضمان حسن سلوك رفاقهم من القرويين في الجنوب اللبناني. لقد عبّر كل من الصليب الأحمر الدولي ومنظمة «أمنستي» الدولية عن قلق جادّ بصدد استخدام التعذيب في ذلك السجن الموجود في قرية الخيام، تعذيب ضد الرجال والنساء، لقد أجريت مقابلات مع بعض الذين قد أُطلق سراحهم، وقد تحدثوا عن استخدام التعذيب بواسطة تعريض الجهاز التناسلي للتيار الكهربائي، ولقد قيل أن تحرير أولئك الرجال والنساء من سجن الخيام كان جزءاً من ثمن تحرير الرهائن الغربيين في بيروت، ومع هذا فمازلنا نستمر في تقاريرنا بوصف اللبنانيين «بالسجناء» والغربيين «بالرهائن»[10].

ليس هناك أي مشهد يُظهر ظلم صدّام حسين أكثر من المشهد المتلفز وهو يستجوب الطفل الرهينة ذا الخمسة سنوات، ستيوارت لوكوود. ولكن العراق لم يكن البلد الوحيد الذي يأخذ رهائن من الأطفال، فالجيش الإسرائيلي، كما نشرت صحيفة إسرائيلية تحت عنوان «رهائن»، كان يقدم أسلوباً جديداً من العقاب لإخماد الانتفاضة، مسمّية هذا الأسلوب «إجلاء اعتدائي»، وقد استهدف أطفالاً قد يبلغون من العمر ثمانية سنوات، والذين تمّ اختطافهم

عشوائياً من القرى الثائرة، ثم يتم ضربهم واحتجازهم حتى يدفع أهلهم «فدية نقدية»، وكانت الأخبار الجيدة، وفقاً للمقال، إن كل ذلك كان قانونياً تماماً و«في المستقبل سيتم اعتقال الأب بمعية طفله»[11].

وبالطبع، فإن العراق لم تأخذ رهائن من الأطفال فحسب، وإنما قد عذّبتهم وقتلتهم كذلك[12]. وهكذا أيضاً فعلت إسرائيل، ففي دراسة أعدّتها منظمة (أنقذوا الأطفال) بلَغت الألف صفحة، وبعنوان: وضع الأطفال الفلسطينيين خلال الانتفاضة، تستفيض بتوثيق «عشوائية الضرب الجسدي، وإلقاء قنابل الغاز، وإطلاق النار على الأطفال». لقد قُتل ما يزيد عن المائة وخمسين طفلاً فلسطينياً منذ بدء الانتفاضة، وذلك يتضمن سبعة وثلاثين طفلاً دون سن السادسة، ويبلغ معدل أعمارهم العشرة سنوات. ولقد وجدت الدراسة، أن أغلبيتهم لم يشاركوا في مظاهرات إلقاء الحجارة عندما أُطلق عليهم الرصاص وقُتلوا، كما أن أربعة أخماس ضحايا إطلاق النار «قد تمّ منعهم أو تأخيرهم من قبل الجيش» عندما نشدوا العلاج الطبي الطارىء، وكانت الجنازات «تُمنع أو يتم التدخل بها بعنف» من قِبل الجيش، وكذلك فإن ما يزيد عن خمسين ألف طفل فلسطيني قد احتاجوا للعلاج الطبي بسبب استنشاق الغاز المسيل للدموع، والكسور المضاعفة، وإلى آخره، وذلك أثناء أول سنتين من الانتفاضة. وكان ما يقارب نصف ذلك العدد من الأطفال الذين تبلغ أعمارهم عشر سنوات أو أصغر من ذلك، كذلك فقد وجدت الدراسة أن «الغالبية العظمى من الجنود المسؤولين عن إصابات الأطفال لم يتم توبيخهم أو معاقبتهم». في الواقع فإن حالات قليلة فقط من التي يتم تغطيتها صحفياً قد تم البدء بالتحقيق بها[13].

في دراسة أعدّتها «بتسليم» (مركز المعلومات الإسرائيلي

لحقوق الإنسان في المناطق المحتلة)، بعنوان العنف ضد القاصرين في معتقلات البوليس، وجدت الدراسة أن «العنف غير القانوني ضد القاصرين، .. والكثير منهم أبرياء من أي جريمة.. يحدث على نطاق واسع».

كما أن الضرب المبرّح، ويتضمن «الصفع، اللّكم، الركل، شدّ الشعر، الضرب بالهراوات والأسلاك الحديدية، الدفع على الجدار وعلى الأرضية» قد وُصف بأنه «شائع جداً»، كما أن الدراسة قد كشفت عن أساليب أكثر ابتكاراً في طرق استجواب القاصرين: ضرب المعتقَل وهو معلَّق في كيس يغطي رأسه ومربوط حول ركبتيه، تقييد المعتقَل بعد ثني جسده بوضع معوجٍ، إلى ماسورة ماء بالخارج ويداه خلف ظهره لمدة ساعات، وأحياناً تحت المطر أو في الليل أو أثناء ساعات الحر في النهار؛ حصْرُ المعتقل لمدة أيام أحياناً، في غرفة «حبْس» وهي زنزانة مظلمة ومنتنة وخانقة تبلغ قياساتها متر ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً. وضْعُ المعتقَل، أحياناً لمدة ساعات في «الخزانة» وهي زنزانة ضيّقة بارتفاع قامة الشخص، ويستطيع المرء الوقوف بها ولكنه لا يستطيع الحركة. إيداع المعتقَل المقيَّد لمدة ساعات في «القبر» وهو نوع من الصناديق يُغلَق بباب من الأعلى، بفراغ يكفي المرء لأن يربض فقط وبدون حمّام[14].

إن الصحافة الإسرائيلية وتقارير حقوق الإنسان قد جعلت المعلومات من لحم ودم. ففي نشرة (حوتام) الصادرة في 1 / نيسان / 1988، أوردت حالة طفل يبلغ من العمر العشرة سنوات، تمّ ضربه حتى ازرقّ واسودّ جسده أثناء تحقيق الجيش حتى صار الطفل «يشبه قطعة ستيك»، ولكن الحراس «لم ينزعجوا» حتى عندما عرفوا لاحقاً بأن الولد كان أصمّاً وأبكماً ومتخلفاً عقلياً. كما أن نشرة (كوتريت

راشيت) الصادرة في 13 / تموز / 1988 قد أوردت عن «اختفاء خمس وعشرين طفلاً»، وتهديد الأهل بالسجن «لإزعاجهم» للجيش بالسؤال عن مكان وجود الأطفال.

وأظهرت صحيفة (حدشوت) الصادرة في 19 / آب / 1988 ثلاثة صور فوتوغرافية لطفل يبلغ من العمر ست سنوات، معصوب العينين في سيارة جيب عسكرية، وكان التعليق على الصورة أن كثيراً من الأطفال في عمره يُحتجزون بالمعتقَل حتى يتم دفع «فدية» تبلغ عدة مئات من الدولارات، كما أن الأطفال يبولون في ثيابهم «من الخوف» أثناء أخذهم بعيداً. وتحت عنوان «القتل العمد» فإن نشرة الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان والحقوق المدنية، والصادرة في آب / 1989، قد أوردت أن الجيش الإسرائيلي (من الواضح أنهم قناصون من «الوحدات الخاصة») قد استهدف عدداً «متزايداً» من الأطفال الفلسطينيين الذين يقومون بأدوار قيادية، وبعد «اختيارهم بدقة» فإن الضحايا عادة يصابون بالرصاص في الرأس أو في القلب ويموتون على الفور. لقد أورد الدكتور حاييم جوردون، من المؤسسة الإسرائيلية لحقوق الإنسان (مستشهداً بنشرة الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان والصادرة في كانون الثاني 1990) حالة طفل يبلغ الثامنة من العمر وقد عذّبه الجنود لرفضه البوح بأسماء رفاقه ممن شاركوا برمي الحجارة، وقد تمت تعريته وتعليقه من قدميه، وتم ضربه بوحشية، وأخيراً، ألقوا به من فوق السطح قبل أن يطلقوا سراحه. وأوردت صحيفة حداشوت الصادرة في 15 / كانون الثاني / 1990، حالة طفل في الثالثة عشرة من العمر، تمّ إلقاؤه في السجن بعد أن كسّروا أصابعه عن قصد، وقد تُرك بدون علاج طبّي وبدون طعام لأن أباه لم يكن قادراً على دفع فدية تبلغ 750 دولار. وفي

صحيفة دافار الصادرة في 26 / كانون الثاني / 1990 وردت حالة فتاة في السادسة عشرة من العمر، ضربها شرطي بهراوته (وتقول الفتاة «حتى أنه حاول دفع الهراوة بين فخذيّ»)، ثم جُلدَت في السجن لأنها رفضت توقيع اعتراف. وأوردت نشرة حوتام الصادرة في 29 / حزيران / 1990 حالة معتقَل في الثالثة عشرة من عمره، وقد رفض تزويد الشرطة بأدلة تدين أخاه، فقاموا «بتهشيم» وجهه، و«تغطي علامات الضرب كل جسده»، ولم يُسمح له بالشرب أو الأكل «لمدة ساعات» وتم إجباره على أن «يتبوّل ويتغوّط في ثيابه».

في تقريرها عن المصير المروّع للفلسطينيين البالغين من العمر ما يقارب الأربعة عشرة عاماً، والذين يُعتقلون بتهمة «الاشتباه بإلقائهم حجارة»، فإن صحيفة حداشوت الصادرة في 24 / شباط / 1992 تستشهد بمصدر من داخل مركز الاعتقال في الخليل، فيقول:

ما حدث هناك.. كان رعباً محضاً: إنهم على استعداد لأن يكسروا هراواتهم على أجساد المعتقَلين، ويضربونهم على محاشمهم، يربطون سجيناً على البلاط البارد ويلعبون به كرة القدم، وحرفياً، يركلونه ويدحرجونه، ثم يعرضونه لصدمة كهربائية مستعملين المولد الكهربائي أو تلفون ميدان، ثم يدفعونه خارجاً ليقف لساعات في البرد والمطر.. إنهم يسحقون السجناء.. يحوّلونهم إلى عجينة من اللحم.

III «جرائم بحق الإنسانية»

كان الاعتبار الثالث في لائحة اتهام صحيفة نيويورك تايمز ضد صدّام حسين «الجرائم بحق الإنسانية»، وعلى سبيل المثال، القتل، النفي، الاضطهاد، وأفعال لاإنسانية[15].

لقـد كـان العـراق مذنبـاً بـلا جـدال بالإسـاءة الهائلـة لحقـوق الإنسـان، فلننظـر إلـى الملخـص بمـا يخـص العـراق فـي تقريـر منظمـة «أمنستي» الدولية الصادر في العام 1990:

هنـاك الآلاف مـن السـجناء السياسـيين، ومـن ضمنـهم سـجناء بسـبب المعتقَـد، يسـتمر اعتقالـهم بـدون تُـهم أو محاكمـات، أو أنـهم سُجنوا بعد محاكمات تشير التقارير إلى أنها لا تفي بالمعايير الدولية للمحاكمـات العادلـة، كمـا أن تعذيـب السـجناء السياسيين يبقـى واسـع الانتشـار. تم تسـجيل حـالات «اختفـاء»، كمـا أن الحكومـة لـم توضـح مصير ومكان تواجد آلاف ممن اختفوا في السنوات السابقة، ويُعتقد بأن الكثير من الذين «اختفوا» قد تم قتلهم. كما تم تسجيل إعدامات، ومـن الواضـح أن بعـض هـؤلاء الذيـن أُعدمـوا، كـانوا قـد نشـدوا مـن السلطات الاستفادة من عفوٍ عـام رسـمي تم الإعـلان عنـه. وفـي أكثر الحـالات لـم يكـن مـن الواضـح إذا كـانوا قـد تلقّـوا أي شـكل مـن المحاكمات.

ولكـن لنقـارب ذلـك بـالملخص بمـا يخـص «إسـرائيل والمنـاطق المحتلة» في التقرير ذاته:

إن مـا يقـارب 25.000 فلسـطيني، ومـن ضمنـهم سـجناء بسـبب المعتقَد، قد تم اعتقالهم لأسباب تتعلق بالانتفاضة في المناطق المحتلة، قضى ما يزيد عن 4.000 شخص فترات فـي الاعتقـال الإداري بـدون تُهم أو محاكمات، وحوكم بضعـة آلاف آخـرون لـدى محـاكم عسـكرية. وفـي نهايـة السـنة كـان مـا يزيـد عـن 13.000 شـخص مـا يزالـون فـي السجن أو في مركز الاعتقـال. وقـد اعتُقـل مـا لا يقـل عـن 45 سـجيناً إسـرائيلياً بسبب المعتقَد، ومعظمهم مستنكفون عن الخدمـة العسـكرية

لأسباب أخلاقية أو دينية. وتعرّض الآلاف من الفلسطينيين للتعذيب بينما هم في أيدي القوات الإسرائيلية أو عّذبوا أو أُسيئت معاملتهم في مراكز الاعتقال. وتم الإبلاغ عن ثمانية قتلى على الأقل نتيجة لذلك. وقُتل ما يزيد عن 260 من الفلسطينيين المدنيين العزّل، ومن ضمنهم أطفال، برصاص القوات الإسرائيلية، وذلك يحدث في العادة في ظروف استخدام مفرط للقوة أو قَتل مقصود. وقُتل آخرون في حوادث من الممكن أن الغاز المسيل للدموع كان قد أسيء استخدامه بها. ويتضح بأن التحقيقات الرسمية بخصوص إساءة الاستخدام لم تُستوفَ. هناك شخص واحد بقي تحت حكم الإعدام[16].

إن الاستنتاج المنطقي يُظهر بأنه ليس هناك فرق جوهري بين الحالتين إجمالاً[17]. ولكن هناك مع ذلك، حجّة تُقدّم عادة بهذا الصدد، ومفادها أن هذه الطريقة من المقارنة تتغاضى عن تمييز جوهري: فالعراق محكوم بدولة بوليسية استبدادية، بينما إسرائيل ديمقراطية محكومة بدولة قانون. وهنا لابد من الإشارة إلى نقطة أولى وأساسية[18] وهو أن الحكومة الإسرائيلية لم تلحظْ حتى إمكانية انطباق القوانين الدولية المرتبطة بهذا الأمر على المناطق المحتلّة، كمعاهدة جينيف الرابعة للعام 1949 (وكانت إسرائيل من الموقعين عليها)، ومجموعة قوانين الأمم المتحدة للعام 1979 والمتعلقة بإلزامية تنفيذ القانون[19].

وعلاوة على ما سبق، فلقد ثبت أن المحكمة الإسرائيلية العليا هي شريك متواطىء عن رضا مع نظام الحكم الغازي في الضفة الغربية وغزة. لقد حظرت معاهدة جينيف الرابعة وبصراحة تدمير الممتلكات الخاصة، باستثناء «حيث يكون هكذا تدمير بسبب ضرورة قصوى للعمليات العسكرية» وكذلك حظرت بصراحة العقاب

الجماعي. ومع هذا فإن المحكمة العليا قد حكمت بأن هدم البيوت في المناطق المحتلة مسموح به، حتى أنهم ادّعوا بأنه «ليس هناك أساس للادّعاء بأن هدم البيوت هو عقاب جماعي»[20]، كما أن معاهدة جينيف الرابعة حظرت بصراحة «الترحيل الفردي والجماعي عنوة، وكذلك الإبعاد» (وهناك إضافة للتأكيد). مع هذا فإن المحكمة العليا حكمت بأن هذا العرف لا ينطبق فقط على الإبعاد الجماعي[21]، وحظرت معاهدة جينيف الرابعة بصراحة، على قوة محتلة أن تعيد إسكان «سكانها المدنيين في المناطق التي تحتلها».

ومع هذا فإن المحكمة العليا قد حكمت، إما بأن المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة شرعية، أو أنها قد رفضت سماع أي تحدٍّ بخصوص شرعية المستوطنات[22]. لقد نصّ القانون الدولي على أن المحتل لا يستطيع أن يفرض ضرائب جديدة في المناطق التي تحت سيطرته. مع هذا فإن المحكمة العليا قد حكمت بأن ضريبة القيمة المضافة الجائرة والتي فُرضت على المناطق المحتلة في العام 1976 هي ضريبة مسموح بها[23]. لقد واظبت مراراً وتكراراً بالخضوع إلى الأسباب «الأمنية» للسلطات العسكرية وقد ساندت المحكمة تحدياً واحداً فقط، لما يزيد عن الألف ومائتي «أمر عسكري» كانت تقيّد المناطق المحتلة قانونياً[24].

إن للمحكمة العسكرية الإسرائيلية سلطة على كل الحالات «المرتبطة بالأمن (وأكثر القضايا المدنية) والتي تتضمن فلسطينيين من المناطق المحتلة.

ومن الممكن كذلك اعتقال المشتبَه بهم لمدة ثمانية عشرة يوماً بدون محاكمة، ويعتمد القرار بتجديد الاعتقال عادة على معلومات يقدمها

المدعي العام العسكري. كما أن تطبيق إطلاق السراح بالكفالة «تقريباً لم يحدث أن قُبل». كذلك فإن المشتبَه بهم «لا يملكون أي حق بتمثيل قانوني بتاتاً»، وعندما يتم السماح بحضور ممثل قانوني، فمن غير المسموح للمحامي بزيارة موكّله حتى يتم الانتهاء من التحقيق. وبالكاد يرتفع مستوى محاضر الجلسات لمستوى المهزلة، ويتم تقرير «الأغلبية الساحقة» من الإدانات بناءً على الاعترافات «التي تتم تحت الإكراه، وغالباً ما تكون مكتوبة باللغة العبرية» وهي لغة «يجيد عدد قليل من الفلسطينيين القراءة أو الحديث بها». ويسمح الاعتقال الإداري بحبس الأشخاص بدون تهمة أو دليل أو محاكمة، ولمدة تقارب السنة[25].

تسمح القوانين الإسرائيلية الرسمية المتعلقة بالاشتباكات بقتل الفلسطيني إذا كان، ببساطة يلبس قناعاً، أو يرفع عَلَماً، أو يقيم متراساً (والذي عادة ما يتكوّن من ما لا يزيد عن بضعة صخور وحاويات قمامة مقلوبة)، أو إذا أهمل أمراً بالوقوف، كما قد سمحوا أيضاً لما هو بالواقع استخدام غير مقيد للرصاص المطاطي القاتل والتصفية العاجلة للفلسطينيين «المطلوبين». إن كل هذه الأوامر، كانت انتهاكات للقانون الدولي، الذي أقرّ استعمال القوة فقط في الأوضاع التي تهدد الحياة، وفقط إذا لم يكن هناك أي مصدر سوى القوة القاتلة[26]. وكما استنتجت منظمة Middle East Watch (مراقب الشرق الأوسط)، فإن البوليس الإسرائيلي الرسمي والتطبيقات الرسمية «تغاضت عن قتل الفلسطينيين غير المبرَّر»[27].

إن الدلائل التي استشهدنا بها للتو، بما يتعلق باستعمال القوة القاتلة، كانت الدلائل الرسمية، ولكن الدلائل غير الرسمية أو حقائق الأمر الواقع، تدل على أن قوانين الاشتباك أكثر تساهلاً بكثير، وكذلك الأمر بالنسبة للأدلة من سجلات التحقيقات والإدانات

للإسرائيليين المتهمين بالقتل. فلقد قُتل من قِبَل قوات الأمن الإسرائيلية ما يزيد عن سبعمائة فلسطيني في أثناء الانتفاضة وحتى كانون الأول للعام 1989، ومع هذا فلم تتم مقاضاة جندي إسرائيلي واحد بتهمة القتل، وتمت مقاضاة اثنين فقط بتهمة القتل غير العمد، كما أن حفنة قليلة من الجنود قد حوكموا بتهم أقل مثل الاستعمال غير القانوني للسلاح.

أما الجنود الذين يقل عددهم عن العشرة والذين كانوا قد أدينوا بما يتعلق بقتل الفلسطينيين، فقد تلقوا عقاباً يتراوح من التوبيخ الرسمي إلى السجن لمدة ثمانية عشر شهراً. (وقد أُخليتْ إحدى الإدانات بالسجن لمدة سنتين بعد الاستئناف). وعلى النقيض من ذلك، فقد بيّنت منظمة «أمنستي» الدولية في تقاريرها بأن الفلسطينيين يتلقون أحكاماً تصل إلى خمس سنوات والسبب ببساطة هو إلقاء الحجارة[28].

لدى مراجعته للحالة الشنيعة التي تم فيها ضرب أحد سكان غزة حتى الموت من قبل الجنود الإسرائيليين (لم يحاكم أي من المتهمين بتهم جرمية ولم يمضِ أي منهم أكثر من خمسة أشهر بالسجن)، فإن المحامي الإسرائيلي القدير أفجيدور فيلدمان يستنتج:

«إن حالة اللاقانون في المناطق شاملة، إن كل الأشخاص - وبصرف النظر عن حقل النشاط، وعن الخلاف حول أي موضوع يمكن تخيله- متفقون على رأي واحد: إن قيمة حياة العربي تساوي صفراً»[29].

لنعود في هذه اللحظة إلى حالة العراق، فلقد تعرض العراق لاستنكار استثنائي من مراقبي حقوق الإنسان بسبب سجلّه الحافل

بترحيل السكان وإعادة إسكانهم في مناطق أخرى. فلقد أبعد النظام ما يقارب المائتي ألف أغلبهم من المسلمين الشيعة، وساق عشرات الآلاف من الأكراد إلى المنفى، كما أن ما يقارب الثمانمائة ألف كردي قد أُجبروا على تغيير مكان استقرارهم في داخل العراق، وقد مُحيت غالبية القرى الكردية، وبالإضافة إلى ذلك فلقد أشارت التقارير في عشية الهجوم بقيادة الولايات المتحدة في كانون الثاني 1991، إلى إبعاد كويتيين وإسكان عراقيين مدنيين في الكويت، وانتشار السلب والنهب والتدمير (وخصوصاً هدم البيوت)، مع هذا وبصدد كل هذه الاعتبارات، فلقد كان العراق وببساطة يسرق ورقة من كتاب جارته إسرائيل[30].

ما بين عامي 1947 و1949، تم إقصاء ما يقارب 750.000 فلسطيني حيث أعلنت إسرائيل استقلالها. وفي حزيران من العام 1967 هجر ما يقارب 300.000 فلسطيني أو سيقوا إلى المنفى عندما استولت إسرائيل على الضفة الغربية وغزة، كما أن مئات القرى قد مُحيت بشكل منظّم ومُسحت عن الخارطة[31]. وفي أثناء الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة وبعد العام 1967 تم إبعاد ما يزيد عن الألف فلسطيني (من ضمنهم نساء و أطفال) بدون تهمة أو محاكمة، وتمت كذلك مصادرة خمسين بالمئة من الأراضي وما يزيد عن ثمانين بالمئة من احتياطي الماء الثمين بواسطة الحكومة الإسرائيلية. وبينما كان الفلسطينيون المنفيون خارج وطنهم، استقر ما يقارب 100.000 يهودي في الضفة الغربية وغزة[32]. كل هذه الإجراءات -وأخرى كثيرة تمارسها إسرائيل في المناطق المحتلة- كانت، وكما وصفتها مجلة إسرائيلية بعبارة ملطّفة «شديدة البعد عن قواعد القانون الدولي» (حوتام، 4 / آب / 1989).

تجني إسرائيل سنوياً ما يقارب البليون دولار من السوق الخاضع للسيطرة، ومن السياحة في المناطق المحتلة. وقد أُجبر ما يزيد عن المائة ألف فلسطيني من الضفة الغربية وغزة -وهم ثلث كاسبي لقمة العيش من الفلسطينيين- على السعي للعمل في إسرائيل «بقطع الأخشاب وجر المياه» ويجبس الكثير منهم في الليل بغرف تغلق من الخارج، وهذا ما يخالف القانون، كما يدفع لهم أقل من الحد الأدنى للأجور، وخرقاً للقانون الدولي، فقد أجبرت إسرائيل الفلسطينيين على دفع ضرائب أكثر بكثير من الخدمات والاستثمارات التي يتلقونها بالمقابل. ولقد قدّر ميرون بينفينستي ويتحفظ شديد «ضرائب الاحتلال» (وهذه عبارته) بما يزيد عن سبعمائة مليون دولار أو ما يطابق ضعفي ونصف الاستثمار الإسرائيلي بالبنية التحتية للاقتصاد الفلسطيني خلال كل مدة الاحتلال. وفي أثناء الانتفاضة، لجأت الحكومة الإسرائيلية إلى تقديرات استبدادية للضريبة، كوسيلة لسلب الإقليم المحتل، وكذلك وبكلمات «بتسليم» «كأداة عنف بيروقراطي» لإعادة فرض نظام الحكم الغازي. وعندما احتجّت قرية بيت ساحور سلمياً على نظام الضرائب، أحاطت بها فصائل إسرائيلية وأغلقتها عن العالم الخارجي، ثم تم فك الحصار أخيراً بعد ستة أسابيع، ولكن ليس قبل أن نقلت إسرائيل ومن ثم عرضت على المزاد العلني، ما تبلغ قيمته المليون ونصف مليون دولار من الممتلكات - تتضمن ألعاب أطفال، بطانيات، أقلام رصاص، علب مشروبات باردة، والعديد من لفائف الورق الصحي- وتم نقض قرار مجلس الأمن في 6 / تشرين الثاني / 1989 الذي «يستهجن بشدة.. سلب بيوت السكان.. والمصادرة غير القانونية التعسفية.. والممتلكات الثمينة» في بيت ساحور، بصوت فيتو أميريكي وحيد[33].

من الواضح أن العراق ليس البلد الوحيد المذنب «بجرائم بحق الإنسانية» فإسرائيل أيضاً، وبكلمات «أمنستي» الدولية «من الواضح بشكل صارخ أنها غير مستعدة لتغزيز معايير حقوق الإنسان الدولية»[34].

IV الأمم المتحدة «المتحدة حديثاً»

نعود إلى عنوان المقال الافتتاحي في صحيفة نيويورك تايمز «العالم ضد صدّام حسين»، لقد أصبحت هذه الفكرة القوام الرئيسي للتعليقات على أزمة الخليج في 1990 - 1991. وبالكاد انقضى يوم بدون أن تناشد وسائل الإعلام أو إدارة بوش الحكم الأخلاقي للرأي العام العالمي ضد العراق، وكانت اللازمة التقليدية، وبكلمات الرئيس بوش، «هذه ليست مسألة بين العراق والولايات المتحدة الأميريكية، إنها بين العراق وسائر المجتمع الدولي»[35].

كان الدليل على الإجماع الدولي، بالطبع، القرارات المتعاقبة لمجلس الأمن والتي تدين العراق، وفي الواقع كان هذا ظاهرياً هو البطانة الفضية للغمامة المعلقة فوق الخليج[*]. فمع نهاية الحرب الباردة (وما صاحب ذلك من نهاية الفيتو السوفييتي) وبمواجهة خرق العراق الفاضح للقوانين والأعراف الدولية، فإن الأمم المتحدة «المتحدة حديثاً» أصبحت أخيراً تعمل للغرض الذي كانت قد صُمّمت له. وكما أكّد السيد بوش في جلسة مشتركة للكونغرس «إن مستوى التعاون الدولي والإدانة للعراق لم يسبق له مثيل، ونحن الآن على مرأى من أمم متحدة تؤدي الدور الذي توخاه لها مؤسسوها»[36].

---

[*] تعبير يقصد به، الجانب المشرق من محنة ما (المورد) (المترجم).

مع هذا، فإن السجل التاريخي يكشف بأن ذلك لم يكن المرة الأولى التي تصل بها الأمم المتحدة إلى إجماع حول نزاع إقليمي، لكنها كانت مع ذلك المرة الأولى في الذاكرة القريبة، التي تُظهر بها الولايات المتحدة امتثالاً كهذا للرأي العام العالمي. لقد وافقت الأمم المتحدة ولسنين عديدة على أن إسرائيل كانت مذنبة بالإثم ذاته ضد القانون الدولي، والذي يقف العراق الآن مداناً بسببه. وكان الفرق أنه في حالة العراق، كانت الولايات المتحدة قد انضمت مغتبطة للإجماع الدولي، بينما في حالة إسرائيل، فإن الولايات المتحدة نشدت إخراج الإجماع الدولي عن السكة أو كبحه أو حتى تحدّيه.

فلننظر الآن لقرارات الأمم المتحدة في الصراعين[37]:

العدوان: في 2 – آب – 1990، أدان مجلس الأمن الاجتياح العراقي للكويت، وفي 16 – أيلول – 1990 أدان أيضاً «الأعمال العدوانية» العراقية ضد البعثات الدبلوماسية في الكويت. ولقد تبنى مجلس الأمن كذلك، وأثناء الخمسة عشر عاماً الأخيرة، أحد عشر قراراً تدين أشكال العدوان الإسرائيلية ضد لبنان ودول عربية أخرى. كما أن أربعة قرارات شبيهة كانت قد أُجهضت بواسطة فيتو أميريكي منعزل. كذلك فإن الهيئة العامة قد أدانت الاعتداءات الإسرائيلية وبشكل كاسح، وعلى سبيل المثال، فقد أيّدت 141 دولة في كانون الأول 1982 قراراً يستنكر الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في حين انفردت الولايات المتحدة وإسرائيل فقط بالتصويت السلبي.

الضم: في 9 / آب / 1990 أعلن مجلس الأمن أن ضم الكويت للعراق «ملغىً وباطل» وفقاً للقانون الدولي. وفي آب 1980، فإن مجلس الأمن كذلك، كان قد أعلن أن ضم القدس لإسرائيل «ملغىً

وباطل» وفقاً للقانون الدولي. وكذلك في كانون أول 1981 أعلن أن ضم مرتفعات الجولان السورية لإسرائيل «ملغىً وباطل» وفقاً للقانون الدولي. وفي قضية مرتبطة بهذا، فلقد أدان مجلس الأمن المستوطنات الإسرائيلية في المناطق المحتلة في آذار 1979 بوصفها «عقبة كأداء لتحقيق.. السلام في الشرق الأوسط». كما أن الهيئة العامة أيضاً قد أدانت مراراً وتكراراً الضم الإسرائيلي للقدس (القرار في كانون الأول 1980 وقد أيّدته 143 دولة في حين صوتت إسرائيل وحدها ضدّه)، والضم الإسرائيلي لمرتفعات الجولان (القرار في كانون الأول 1988 وقد أيّدته 149 دولة في حين صوتت إسرائيل وحدها ضده). والمستوطنات الإسرائيلية في المناطق المحتلة (القرار في كانون الأول 1988 وقد أيّدته 149 دولة في حين صوتت إسرائيل وحدها ضدّه).

الاحتلال: في 2 / آب / 1990 أدان قرار لمجلس الأمن الدولي الاجتياح العراقي للكويت وطالب بالانسحاب الفوري وغير المشروط لقوات بغداد. وفي السياق ذاته، فإن ثلاثة قرارات لمجلس الأمن كانت قد طالبت بانسحاب إسرائيلي فوري وغير مشروط من لبنان. وعلاوة على ذلك، فإن الولايات المتحدة وحدها قد نقضت بواسطة الفيتو قرارات مجلس الأمن في كانون الثاني 1976 وفي نيسان 1980 التي تدعو إسرائيل إلى الانسحاب إلى حدود ما قبل عام 1967 كجزء من تسوية للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، تتضمن إقامة دولتين. كما أن الهيئة العامة كانت قد استنكرت مراراً وتكراراً الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة (القرار في كانون الأول 1985، وقد أيّدته 153 دولة في حين أن الولايات المتحدة وإسرائيل فقط قد صوتتا ضدّه)، كما حثّت الهيئة العامة على تسوية للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني

تتضمن إقامة دولتين تحت رعاية مؤتمر للسلام (القرار في كانون الأول 1989 وقد أيّدته 151 دولة في حين صوّتت الولايات المتحدة وإسرائيل والدومينيكان ضده)[38].

انتهاكات حقوق الإنسان: في 18 – آب – 1990، أدان مجلس الأمن احتجاز العراق للأجانب، وفي 29 تشرين الأول 1990 أدان أيضاً أخذ العراق للرهائن وإساءته لمعاملة الكويتيين. لقد استنكر مجلس الأمن مراراً وتكراراً أعمال إسرائيل بصدد حقوق الإنسان كذلك، وذلك يتضمن سبعة قرارات تستنكر إبعاد الفلسطينيين القاطنين في المناطق المحتلة، وقرارين يستنكران «فتح النيران.. مما تسبب بمقتل وجرح مدنيين فلسطينيين عزّل». كما أن الفيتو الأميريكي المنعزل قد سد الطريق أمام تبنّي أربعة عشر قراراً لمجلس الأمن غير القرارات سالفة الذكر في العام 1980 لوحده. لقد استنكرت الهيئة العامة كذلك الأعمال الإسرائيلية بصدد حقوق الإنسان، ومن ضمنها الرفض الإسرائيلي لقبول انطباق معاهدة جينيف على المناطق المحتلة (القرار في 1988 وقد أيّدته 148 دولة في حين صوتت إسرائيل وحدها ضده)، وكذلك الترحيل القسري للاّجئين الفلسطينيين القاطنين في المناطق المحتلة (القرار في 1988 قد أيّدته 152 دولة في حين صوتت الولايات المتحدة وإسرائيل فقط ضده)، وكذلك «الاعتقال التعسفي وسَجن آلاف الفلسطينيين» (القرار في 1988 وقد أيّدته 150 دولة في حين صوتت الولايات المتحدة وإسرائيل فقط ضده)، وكذلك «المذابح المستمرة» الإسرائيلية ضد المدنيين الفلسطينيين في المناطق المحتلة (القرار في تشرين الأول 1989 وقد أيّدته 141 دولة في حين صوتت الولايات المتحدة وإسرائيل فقط ضده).

العقوبات: في 6 – آب – 1990 أقر مجلس الأمن حظراً عسكرياً واقتصادياً على العراق، وأضاف حظراً جوياً في 25 – أيلول، وفي 29 تشرين الثاني صرّح «باستخدام كل الوسائل الضرورية» (بعد 15 – كانون الثاني – 1991). لقد حاول مجلس الأمن عدة مرات، أن يفرض عقوبات دولية على إسرائيل، ولكن الولايات المتحدة مستخدمة حق الفيتو، وواقفة وحدها في المعارضة كانت قد سدّت السبل. في كانون الثاني 1982 عارضت الولايات المتحدة قراراً لمجلس الأمن يدعو لفرض حظر عسكري واقتصادي على إسرائيل بسبب ضمّها لمرتفعات الجولان، وفي حزيران 1982 عارضت الولايات المتحدة لوحدها قراراً لمجلس الأمن يهدّد يفرض عقوبات على إسرائيل لعدم انسحابها من لبنان. وفي آب 1982 عارضت الولايات المتحدة لوحدها قراراً لمجلس الأمن يحثّ على حظر عسكري «كخطوة أولى» ضد إسرائيل لعدم انسحابها من لبنان، وفي آب 1983، عارضت الولايات المتحدة لوحدها قراراً لمجلس الأمن يهدد بعقوبات دولية على إسرائيل بسبب سياساتها الاستيطانية.

في كل مرة كان مجلس الأمن يتبنى بها قراراً يدين العراق، كان ذلك يصبح افتتاحية الصفحة الأولى للصحف، وموضوعاً لكثير من التعليقات. فلنقارن ذلك بكيفية تغطية أهم صحيفتين في الولايات المتحدة للقرارات ضد إسرائيل.

في 1989، تداول مجلس الأمن في خمسة قرارات تدين إسرائيل، فتمّ تبنّي اثنين وتم نقض ثلاثة بفيتو أميريكي منفرد، لم يتم إيراد أي من المداولات الثلاث في ملحق صحيفة واشنطن بوست في القسم الشامل المخصص «لقرارات مجلس الأمن» وتلقت ثلاثة من

القرارات فقط ذكراً عابراً في العمود اليومي في الصحيفة المعَنون بـ«حول العالم».

فلننظر الآن إلى تغطية صحيفة نيويورك تايمز، ففي كانون الأول 1986، تبنى مجلس الأمن قراراً «يستنكر بشدة» قتل وجرح إسرائيل «للطلاب الفلسطينيين المسالمين». إن الصحيفة المذكورة لم تورد الخبر[39]، وللمصادفة، فلقد حملت الصحيفة مقالاً رئيسياً على الصفحة الأولى عن الأمم المتحدة في الوقت الذي كان مجلس الأمن يتداول فيه هذا القرار، وعنونت مقالها «زوبعة في فنجان، الأمم المتحدة تناقش مسألة الماء المثلج» وأوردت بأن لجنة من الأمم المتحدة كانت تناقش مسألة «المغزى من إعادة أكواب مياه الشرب» إلى المكاتب (8 – كانون أول – 1986). في كانون الثاني 1988 تم نقض قرار لمجلس الأمن، بصوت فيتو أميريكي منعزل «يدعو إسرائيل للمرة الثانية إلى الكف عن سياستها وأفعالها التي تنتهك حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني». لم تورد صحيفة نيويورك تايمز الخبر، ومن سخرية الأقدار، أنه وأثناء تداول مجلس الأمن لهذا القرار، عرضت الصحيفة مقالاً بعنوان «جنرال إسرائيلي يصف التهم بالضرب الوحشي بأنها (قصص فقط)» (29 كانون الثاني 1988). وفي أيار 1988، تم نقض قرار بصوت فيتو أميريكي منعزل «يدين الاجتياح الحالي الذي تقوم به القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان»، ومرة أخرى، لم تورد الصحيفة الخبر، ومع هذا، فبينما كان مجلس الأمن يتداول هذا القرار، عرضت الصحيفة مقالاً بعنوان «لبنان مرة أخرى – والإسرائيليون هادئون» (8 – أيار – 1988)، ويذكر المقال أنه بسبب أن «تجربة عام 1982 في لبنان» قد جرحت إسرائيل بشدة، فإن الكثير من الإسرائيليين ينفرون من الحديث عن «الانتصار الأخير» للجيش.

في تشرين الثاني 1989، تم نقض قرار بفيتو أميريكي وحيد «يستنكر بشدة» الحصار (الإسرائيلي) للقرى، وقلب بيوت الناس أثناء التفتيش،.. والمصادرة الاستبدادية واللامشروعة لممتلكاتهم وأغراضهم الثمينة، في المناطق المحتلة، أوردت الصحيفة المذكورة هذا الخبر في صفحة داخلية على ثلاث فقرات، ولكنها كذلك أصدرت مقالاً افتتاحياً في ذلك اليوم نفسه بعنوان «دفعة مُرحَّب بها في الشرق الأوسط» (8 – تشرين الثاني – 1988) ويكيل المقال «المديح» لرئيس الوزراء شامير على دفعه للعملية السلمية.

كما ذكرنا سابقاً، ففي كانون الثاني 1989، أيّدت 151 دولة قرار الهيئة العامة للأمم المتحدة الذي يدعو إلى تسوية النزاع الإسرائيلي الفلسطيني على أساس قيام دولتين، وتحت رعاية مؤتمر دولي للسلام، وقد صوتت الولايات المتحدة وإسرائيل والدومينيكان فقط ضد القرار، لم تورد صحيفة نيويورك تايمز الخبر، وبدلاً عن ذلك نشرت مقالاً عن وقائع جلسات الهيئة العامة ذاتها وبعنوان «الأمم المتحدة تؤجل التصويت على منظمة التحرير» ويذكر المقال أنه تحت ضغط «دولي خارجي»، قامت الدول العربية بوضع الهيئة العامة تحت إدارتها لتصوّت على تحديد منظمة التحرير الفلسطينية كممثل لدولة فلسطين. لكن الدعم «الدولي الخارجي» لتسوية النزاع الإسرائيلي الفلسطيني على أساس قيام دولتين والمؤتمر الدولي للسلام، ما اعتُبرا يستحقان التغطية الإخبارية.

إن الأحكام الأخلاقية لا تتجزأ، فليس من الممكن مناشدتها بانتقائية، ومع هذا فإن إجماع الأمم المتحدة كان موضع تهليل في النزاع العراقي الكويتي، ولكنه نبذ بازدراء أو ببساطة تم تجاهله في النزاع بين إسرائيل والفلسطينيين[40].

ملحق 1

مراقبة الحقوق، بصورة جائرة

«من سيراقب الحراس» – Juvenal

إن تقرير منظمة Middle East Watch(*) المعنون «قتل لا لزوم له في حرب الخليج»(41) يعد أكثر التقديرات الموثقة عن «حرب الخليج» على ضوء عملها يشمل التحقيق في إصابات المدنيين والضرر الذي لحق بالأهداف المدنية فقط. أما المهتمين بالتقديرات الحقيقية للإصابات العسكرية (والضرر اللاحق بالبيئة الطبيعية) فعليهم البحث في مكان آخر(42). لقد علمنا مع ذلك بأن «الائتلاف المتحالف» قد تعرّض لإصابات «قليلة للغاية» (1)(**) ولم تنشر (MEW) أو حتى لم تلمّح للعسكريين العراقيين القتلى.

عموماً، فقد تلاءمت تقديرات التقرير مع الصورة التي عرضتها وسائل الإعلام الأساسية، وتواءمت بلا شك مع إدارة بوش والبنتاغون. لقد تم إعلامنا بأن حملة قصف «الحلفاء» كانت «في

(*) فيما يلي من هذا الملحق سنشير لاسم هذه المنظمة بالأحرف الأولى للكلمات الثلاثة التي تشكل اسمها (MEW) والذي يعني بالعربية (مراقب الشرق الأوسط).

(**) الأرقام داخل الأقواس تشير إلى رقم الصفحة في تقرير (MEW).

كثير من، إن لم يكن في أكثر، النواحي.. متطابقة مع الغرض المعلن لأخذ كل الاحتياطات الممكنة لتجنب الإصابات المدنية»، وفي أسوأ الأحوال، فإنه «من الظاهر» أن قوانين الحرب قد انتهكت في «بعض حالات» فقط(4). وعلى العكس من ذلك، فإن الهجوم الصاروخي العراقي قد وصف على الدوام بأنه «ينتهك بوضوح» وينتهك «جديّاً» و«بشكل صارخ» «القانون الإنساني» (20-21، 317، 381)[43].

إن تلك الاستنتاجات، وحتى لو كانت قائمة، ما تزال تقتضي مؤهلَيْن جوهريَيْن. أولاً، أنها وإن تثبت جور النظام العراقي فإنها لا تثبت فضيلة «الائتلاف المتحالف». فبالنظر إلى الأرجحية الهائلة للقوة التي كانت تحت تصرف «التحالف»، فإنها لم تكن أبداً، وبكلمات (MEW) «ناشئة عن ضرورة عسكرية ملحّة لاستعمال تلك القوة والتي كان من الممكن أن تعرّض المدنيين لخطر شديد»(3)[44].

وعلى العكس من ذلك، فإن لجوء العراق إلى الإرهاب كان أمراً متوقعاً، وإن كان مستَنكراً، كرد فعل على عدو متفوق.

ثانياً، إن تلك الاستنتاجات مرتبطة حتماً بالقوة الإجمالية التي حشدت من قِبل كلا الطرفين، وعلى سبيل المثال، وضعت (MEW) رقم الإصابات المدنية الناتجة عن الهجوم بقيادة الولايات المتحدة ما بين ألفين وخمسمائة، وثلاثة آلاف[45]. وبالمقابل، فإنها جمعت الإصابات المدنية في السعودية وإسرائيل والناشئة عن الهجوم بصواريخ سكود ووضعت الرقم بما يزيد قليلاً عن العشرة (19، 317). إن لدي الكثير مما أقوله عن تلك الأرقام، وعن الأضرار المدنية عموماً، وسأتحدث عن هذا لاحقاً، ولكن وفي هذه اللحظة مع ذلك، أريد أن أشدّد على أن «التحالف»، حتى بتقديرات (MEW)، كانوا وبهامش كبير، المنتهكين

الأساسيين للقوانين الإنسانية وبصورة مطلقة. وقد أُغفلت هذه الحقيقة ببساطة، وبالنظر خصوصاً إلى الوصف المشوّه الذي قدمته(MWE) عن العراق بأنه مكتمل الريش، وإن كان يقل عن مطابقة الدول المشاركة بالحرب في الخليج، وسأعود قريباً لهذه النقطة.

إن واحداً من ادّعاءات (MEW) الرئيسية، مع ذلك، هو ببساطة باطل، فليس من الصحيح أن «الائتلاف المتحالف» قد التزم عموماً بقوانين الحرب أثناء النزاع في الخليج، وعلى أية حال، فإن الأدلة المقدّمة في (قتل لا لزوم له) لا تؤيد استنتاجاً كهذا، بل إن الحكم بواسطة المادة التي جمعتها (MEW)، يجبر المرء على أن يستنتج بأن انتهاك الولايات المتحدة للقوانين الإنسانية كان مذهلاً باتساعه كما في عمقه.

إن الهدف من هذا الملحق هو أن أثبت بأن (MEW) قد وصلت إلى استنتاجاتها التبريرية بأن طبقت على «التحالف» وعلى العراق معياراً مزدوجاً، وتحديداً في المجالين الأساسيين للحقوق الإنسانية والذين قد اختبرتهما (MEW)، ألا وهما: «وسائل وأساليب الهجمات» و«الأهداف التي تمت مهاجمتها»، إذ قد تم تكريس العراق لمعيار صارم غير عادي، في حين تم تكريس معيار ليّن غير عادي «للائتلاف المتحالف». وفي الواقع سأقدم الحجج بأن معياراً مزدوجاً يتخلل بالفعل كل أوجه التقرير.

I إن «وسائل وأساليب الهجمات» تدل، من ضمن أشياء كثيرة، على منهجية الهجمات وأنواع الأسلحة التي استخدمت بها. فمثلاً، لقد عنّفت (MEW) كلاً من العراق و«الائتلاف

المتحالف» على مهاجمة أهداف في أوقات محددة من اليوم لغرض التسبب بأكبر قدر ممكن من الإصابات المدنية (89، 382). وهنا أريد أن أركّز على مسألة الأسلحة المستخدمة، لقد أوردت (MEW) إن القوانين الإنسانية تحظر نشر الأسلحة التي «لا تمتلك القابلية التكنلوجية للتمييز بين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية في المناطق المدنية المأهولة» (401)، ووفقاً لذلك، فقد أدانت العراق لاستخدامه صواريخ سكود غير دقيقة الإصابة، ضد مناطق حضرية في إسرائيل والسعودية (21–22، 382–383). مع ذلك، فإن العراق لم يكن الوحيد في نشر أسلحة لا قدرة لها على التمييز في المناطق الحضرية، لأن القنابل «الذكية» الموجهة بدقة، خلافاً للادّعاءات الرسمية وادّعاءات وسائل الإعلام السائدة، تشكل ما مقداره 7.400 طن (أي ما نسبته 8.8 بالمئة) من 84.200 طن من المعدات الحربية التي ألقاها «الائتلاف المتحالف» على العراق والكويت، في حين أن القنابل «البكماء» والتي تبلغ دقة إصابتها 25 بالمئة، تشكل ما يقارب 77.000 طن (أي ما يزيد عن 90 بالمئة) من المعدات الحربية المستخدمة (114–115)[46]، وعلاوة على ذلك، فقد أوردت (MEW) أن «بعض تلك الذخائر الموجهة قد استخدمت، كما تشير التقارير، ضد الأهداف العسكرية العراقية في مسرح العمليات الكويتي، بعيداً عن السكان المدنيين، مما يترك نسبة مئوية أقل من القنابل الدقيقة التوجيه المستعملة في المناطق المأهولة».(114) إن (MEW) تعتبر أن السؤال «الأساسي» و«الحرج» هو الآتي:

«ما هي النسبة من الرقم الإجمالي للأهداف التي تقع بالقرب من المناطق المدنية والتي دُمّرت بقنابل بكماء؟»(90، 121)، وتتابع بالقول أنه «بغياب المعلومات الإضافية من البنتاغون عن هذا الموضوع،

فمن المستحيل تقدير مدى إذعان التحالف لقوانين الحرب بما يتعلق في هذا الموضوع»(90)، وللتأكيد، فإن الأدلة الظرفية تشير إلى أنه في مدن مثل البصرة (حيث كان «التحالف» مقيدين أقل بواسطة الإعلام المناوىء المحتمل، إذ أن قليل من الصحفيين قد تجولوا خارج بغداد) كان استخدام الأسلحة غير القادرة على التمييز واسع الانتشار (273-274)[47]. وعلى أية حال، فإن استنتاج (MEW) الإجمالي بأن «التحالف» قد التزم عموماً بقوانين الحرب سوف يظهر، على ضوء المدخل السابق، مشكوك بأمره في أحسن الأحوال.

وتتبع هنا ملاحظة أخرى، من الواضح أنه ليس هناك مقياس موضوعي للحكم على كون السلاح «قادر على التمييز»، لكن (MEW) استخدمت فعلياً الأسلحة الأكثر تطوراً كمقياس لكن مقياس كهذا يمنع أصلاً كل أنواع الأسلحة وحتى أكثرها تطوراً تكنلوجياً من الالتحام في المناطق الحضرية.

مع هذا، فإن (MEW) تدين العراق لهجومه بصواريخ سكود والذي ضرب موقعاً عسكرياً مشروعاً في الرياض عاصمة السعودية لأن «الضربة المباشرة لا تغيّر من طبيعة عدم القدرة على التمييز للسلاح المستخدم» (395-396، قارن 380-382). رغم ذلك فإن (MEW) لا تعترف بالانحياز في تأويلها للقوانين الإنسانية، إذ أنها تتظاهر بتطبيق معيار طبيعي وموضوعي. أخيراً، وفي تبريرها للجوء الكثيف للأسلحة غير القادرة على التمييز من قبل «الائتلاف المتحالف»، تورد (MEW) ملاحظة بأن «التكلفة والتوفر» كانت «عوامل في تفضيل القنابل البكماء»(6)، ومع هذا، لم يتم منح تبرير كهذا في حالة العراق، حيث من الواضح أنه ينطبق بقوة أكبر بكثير.

II إن قوانين الحرب تضع أيضاً حدوداً واضحة على الأهداف المشروعة في الهجوم. في تحريم استهداف المدنيين المرافق المدنية لتحقيق أهداف سياسية، فمن غير المسموح استهداف موقع له ضرورة أساسية في إعالة السكان المدنيين. إن الشيء يصبح مؤهلاً لأن يكون هدفاً مشروعاً، فقط إذا كان يسهم بشكل فعال بالنشاطات العسكرية للعدو، ويوفر تدميره ميزة عسكرية محددة. وأينما كان الهجوم على الأهداف العسكرية المشروعة يشتمل خسائر لا مفرٌ منها في حياة المدنيين و / أو ضرر للمرافق المدنية، فإن القانون الإنساني يتطلب بأن لا يكون الأذى المترتب مفرطاً نسبة للهدف العسكري. ومن ناحية ثانية، ليس هناك هجوم على هدف عسكري مشروع يبرر الخسائر والأضرار المدنية الفادحة. (لغرض المراجعة العامة لهذه الاعتبارات بالقانون الإنساني، راجع الجزء الأول من (قتل لا لزوم له)، «المعايير القانونية»).

وفقاً لما سلف، أدانت (MEW) العراق لأنه وجه صواريخ إلى أهداف إسرائيلية وسعودية مدنية «مع رغبة مقصودة لإحداث أكبر قدر ممكن من الأضرار والمعاناة للمدنيين» و«إرهاب السكان المدنيين». كان أحد «أهداف الهجمات العراقية»، وفقاً لـ(MEW) «من دون شك لتحفيز القوات الإسرائيلية لأن تنضم فعلياً للنزاع ومن ثم شق الأعضاء العرب عن الائتلاف»، ولهذا فإن العراق قد «انتهك بوضوح» القانون الإنساني الذي يحرّم استهداف المدنيين لتحقيق أغراض سياسية (381-382، 318، 332-33، 20-21).

لنأخذ الآن بالاعتبار الولايات المتحدة «وحليفاتها»، فلقد تم توجيه اللوم إليهم (ولو كان بلغة أكثر حذراً) لأنهم قد استهدفوا سيارات مدنية على الطرق السريعة في العراق، ولأنهم دمّروا مكتب

بريد ومحطة باص ودمّروا مبنىً سكنياً ومبنى بنك هنا وهناك، (راجع على الأخص الفصل الخامس «المشهد على الأرض: رواية شاهد عيان للإصابات والأضرار المدنية»)، وعلى ضوء هذه الحوادث (وكارثة الغارة الجوية على ملجأ العامرية والتي تركت ما بين مائتين وثلاثمائة قتيل من المدنيين (راجع 47-128). قدّرت (MEW) عدد القتلى من المدنيين العراقيين ما بين ألفين وخمسمائة إلى ثلاثة آلاف قتيل، واستنتجت بالتالي بأن «الائتلاف المتحالف» قد التزم بقوانين الحرب باستثناء بعض الحوادث(19). ولكن ما أخفقت (MEW) بملاحظته هو مع ذلك، مما يستحق الشجب بحيث تبدو تلك الانتهاكات للقوانين الإنسانية باهتة إذا ما قورنت بالتدمير المنهجي والمقصود للبنية التحتية المدنية، والأساسية للعراق، والتدمير الهائل (والمتوقع) الذي صاحب ذلك لحياة المدنيين.

لقد وثّقت (MEW) تلك الانتهاكات الهائلة لقوانين الحرب ولكن، ومما يتعذر تفسيره، أهملتها في الاستنتاجات الأساسية للتقرير. وبدلاً من ذلك ركزت على خروقات بسيطة نسبياً للقوانين الإنسانية. وكانت المحصلة ما يشبه تبييض كامل لصفحة الإدارة الأميريكية والبنتاغون. لكن فقد أدى هجوم التحالف، وبكلمات بعثة الأمم المتحدة التي زارت العراق في آذار 1991، إلى نتائج تشبه مشاهد سفر الرؤيا(*) على الاقتصاد والبنية التحتية لما كان، حتى كانون الثاني 1991، مجتمعاً على درجة كبيرة من التحضر والتقدم. والآن، فإن أكثر وسائل الحياة العصرية مدمرة أو مضمحلّة إلى حد بعيد. لقد خُسف العراق، وإلى فترة قادمة، إلى مرحلة العصر ما قبل

(*) سفر الرؤيا هو فصل من الكتاب المقدس يصف الآخرة (المترجم).

الصناعي، ولكن أيضاً مع كل الإعاقة لاعتماد العصر بعد الصناعي الذي يستخدم الطاقة والتكنولوجيا بكثافة.

لقد تم تدمير المنشآت المدنية الأساسية لبقاء السكان المدنيين في العراق، والمتعلقة بالغذاء والزراعة ومعالجة المياه، وبخرق لقوانين الحرب التي تحمي تلك المنشآت (8-9، 160-171). كما تم شل أنظمة توليد الطاقة الكهربائية بشكل حاسم. ومع نهاية الحرب، استمر اثنان فقط من المحطات الكهربائية العشرين بالعمل، وينتجان أقل من أربعة بالمئة من الطاقة الكهربائية للخدمات الأساسية، كتنقية المياه وتوزيعها، إزالة ومعالجة المياه العادمة، تشغيل المستشفيات والمختبرات الطبية والإنتاج الزراعي» فلقد كان لهذا التدمير آثار «كارثية» على السكان المدنيين (171، 172، 9-10، 171-193). من الصحيح أن الأنظمة الكهربائية في العراق تشكل شبكة متكاملة، ولكن هذا لا يصنع منها هدفاً عسكرياً مشروعاً. ففي المقام الأول، فإن (MEW) ذاتها تقدم الحجج المقنعة بأن محطات توليد الكهرباء ربما لم تساهم بفعالية في النشاط العسكري العراقي، كما أن تدميرها ربما لم يقدم ميزة عسكرية محددة «للتحالف» (187-190)، الاعتبار الثاني والحاسم هو أنه ليس هناك منشأة يُسمح باستهدافها إذا كان تدميرها يؤدي إلى خسائر فادحة في حياة المدنيين.

إذا حكمنا بواسطة الأدلة التي استشهدت بها (MEW) فإننا سنجد أن المعاناة الإنسانية التي نتجت عن تدمير البنية التحتية المدنية العراقية كانت هائلة بالفعل، فقد أوردت ممثلية لليونيسيف مقرها العراق بأن «الحلقة المفرغة» من البيئة الصحية السيئة، والمياه الملوثة، وسوء التغذية، تركت ما يقارب 100.000 طفل عراقي ممن هم دون السنة الواحدة من العمر، عرضة لأمراض الإسهال

والجفاف(10)، كما قدّر فريق طبي زائر من جامعة هارفرد بأن 170.000 ممن هم دون سن الخمس سنوات سيتعرضون للموت في السنة التالية من أمراض المعدة والأمعاء، الكوليرا، التيفوئيد، ومن سوء التغذية، كنتيجة لهجوم «التحالف» وبالتحديد «تدمير محطات الطاقة الكهربائية.. والفشل الناتج عن ذلك في تنقية المياه وأنظمة معالجة المياه العادمة»(184–185).

إن أغرب الغرائب في تقرير (قتل لا لزوم له، الذي لن يكون أي شيء إن لم يكن إسهاباً مملاً، والذي يورد الاقتباسات ذاتها مرات ومرات، هو أن أرقام اليونيسيف وهارفرد قد ذكرت لمرة واحدة فقط، وبشكل عابر تقريباً، ثم تبع ذلك، تصادفاً، القتلى المائتين أو الثلاثمائة نتيجة الهجوم على ملجأ العامرية، وقد اعتبرته (MEW) الكارثة المدنية (الأكثر مأساوية) للحرب، وقد تم وصفها بإيجاز لا يرتقي إلى مستوى حتى ومضه على الشاشة)[48].

الأكثر من ذلك، أن تلك الكارثة الإنسانية كانت متوقعة، لا بل في الواقع متعمدة. لقد ذكرت (MEW) المخاطر المهلكة على الصحة العاملة للمدنيين من جراء استهداف مصادر الطاقة اللازمة لتوزيع المياه، والمجاري العامة ولخدمات التخلص من النفايات. تلك المخاطر كانت موثقة «بتفصيل دقيق» في قصف الولايات المتحدة الاستراتيجي لألمانيا واليابان أثناء الحرب العالمية الثانية. لهذا، فإن المخططين العسكريين الأمريكيين للحرب الجوية، لابد أنهم كانوا قد «توقعوا بسهولة» النكبة التي نشأت في العراق (177–180)، ولقد كانت متوقعة بلهفة[49]، فالهدف كان توجيه القدر الكافي من العذاب الإنساني، مما يتسبب بالإطاحة بصدّام حسين، أو بوضعه تحت رحمة الولايات المتحدة. وقد أوردت (MEW) على سبيل المثال بأن «المسؤولين في

سلاح الجو الأميركي الذي اشتركوا في التخطيط للحرب الجوية، قد أشاروا إلى أن أحد أهداف تدمير أنظمة إنتاج الكهرباء كان إلحاق الأذى بالمدنيين، وبالتالي تشجيعهم على الإطاحة بصدّام حسين»، وقد استشهدت بتصريح لأحد مخططي سلاح الجو لصحيفة واشنطن بوست، بأن استهداف محطات توليد كهرباء كان مقصوداً لإرسال رسالة للشعب العراقي: «نحن لن نحتمل صدّام حسين أو نظام حكمه، قوموا بإصلاح ذلك، وسنصلح لكم الكهرباء» (10-11، وراجع 82-87)[50].

أنا لا أستطيع أن أفهم كيف تتوافق الفقرة السابقة من تقرير (قتل لا لزوم له) مع استخلاصات (MEW) الأساسية. لقد تم تدمير البنية التحتية المدنية العراقية الأساسية بصورة شاملة، والنتائج المتوقعة كانت تدمير هائل لحياة المدنيين العراقيين. كما أن الهدف المصرَّح به لهذا التدمير للمدنيين والمنشآت العراقية كان لتحقيق هدف سياسي وهو خلْع صدّام حسين، أو إجباره على طاعة الإملاءات الأميريكية، وفي كلا الحالتين فإن «التحالف» مذنب بانتهاك فظيع للقانون الإنساني. وفي الواقع، وكما تقول الملاحظة الهامة التي أوردتها (MEW):

عندما يكون السكان المدنيون هم محط الاهتمام، فسيكون هناك فرق بسيط، أو لا فرق بتاتاً، عما إذا هوجمت المرافق المدنية ودُمرت، أو أنه أصبح من غير الممكن استخدامها بسبب تدمير محطات توليد الكهرباء التي تزودها بالطاقة، ففي كلتا الحالتين سيعاني المدنيون من الأثر ذاته، إذ سيُحرمون من استخدام المرافق العامة التي لا يمكن الاستغناء عنها لبقائهم (187).

وبهذا فإن (MEW) تسلّم بأن «التحالف» قد قصف فعلاً

المستشفيات ومرافق تنقية المياه العادمة وتنقية مياه الشرب، وهذا من نوع جرائم الحرب التي كان من الممكن أن تقود لعقوبة الشنق في محاكمات نوريمبيرغ. ومع كل هذا، فإن (MEW) تستنتج بأن «التحالف» بحملة القصف التي شنها «في كثير من، إن لم يكن في أكثر، الاعتبارات.. متمسك بقصده المعلن بأن يأخذ كافة الاحتياطات الممكنة لتجنب الإصابات المدنية». كما أنه «من الظاهر» بأن قوانين الحرب قد انتهكت في «بضعة حالات» فقط (4).

II المعيار المزدوج ذاته، الذي دل على أن العراق «ينتهك تماماً» و«جدّياً» والانتهاكات «الصارخة» للحقوق الإنسانية، هذا من ناحية، ومن الناحية الثانية أن «التحالف» بالكاد انتهك تلك الحقوق في «بضعة حالات»، هذا المعيار المزدوج يتخلل كل أوجه تقرير (قتل لا لزوم له)، فلننظر الآن إلى الأمثلة النموذجية الآتية:

(A) لم تكن (MEW) كارهة لأن تعزو أكثر الدوافع حقداً لتصرف العراق أثناء

«حرب» الخليج. فمع أن «الهدف الواضح» هو تجنب الرادارات الجوية التابعة «للتحالف» ولكن هذا لم يكن كافياً لـ (MEW) لتفسير القرار العراقي بإطلاق صواريخ سكود في الليل، إذ أن (MEW) تستقرىء بغموض بأن السبب هو أن الأحياء السكنية الإسرائيلية المستهدفة، تكون مكتظة بالسكان أكثر ما تكون، بعد الغسق، لذلك فإن العراقيين قد شرعوا «على الأرجح» بهجمات ليلية كي يتسببوا بأكبر قدر ممكن من الإصابات المدنية. وكذلك الأمر فقد عللت (MEW) بأن كون الكثير من صواريخ سكود قد ضربت تل أبيب في الوقت الذي لم تتعرض فيه بلدية يافا ذات الكثافة السكانية العربية لأي صاروخ،

وهـي تبعد كيلو مـتراً واحـداً إلـى الجنـوب، فلابـد أن الصواريـخ قـد استهدفت «بحرص» المدنيين اليهود في إسرائيل. كما أن (MEW) قد أدانت صواريخ سكود كونها غير دقيقة الإصابة بتاتاً «إذ أن خمسين بالمئة مـن الصواريـخ تسـقط بعيـدة عـن الـهدف بمسـافة كيلـو مـتر واحد»(381-383).

إن (MEW) تفسـر دوافـع «التحـالف» ولكـن بنتـائج مناقضـة تماماً، فرغـم أنـها قـد أوردت هـجـوم «التحـالف» علـى مضـارب بـدو «معزولـة« (أقـرب طريـق سـريع لـها يبعـد مـا يقـارب المائـة كيلـو مـتر، وأقرب موقع عسكري لها يبعد مائة وعشرة كيلو متر، وأقرب بلدة لها تبعد مائة وستين كيلو متر) وقد خلَّف الهجوم أربعة عشر مدنياً قتلى، وقـد كـان مـن الممكـن لـهذه الحـالـة أن تكـون قضيــة محـددة وواضحـة لهجوم بدون تمييز علـى المدنيـين العراقيـين، ولكـن الأمـر ليس كذلـك بالنسبة لـ(MEW)، لأنه «من الصعب أن نفهم إمكانية توقع ذلك بشكل معقـول»، إذ أن محطـات الصواريـخ العراقيـة والآليـات المرافقـة لـها «تستطيع التحرك بسهولة على الطرق الصحراوية وبعيداً عن الطـرق السـريعة الأساسـية»، لـهذا فـإن (MEW) «تفـترض» أن الطـائرات المهاجِمة «كانت تسعى لمهاجَمة صواريخ خفية» في خيام البـدو (228-230، 13-14).

أخـيراً فلنـأخذ بالاعتبـار الموقـف الإسـرائيلي: فقـد لاحظـت (MEW)، بشكل عابر، بأنه في كل مرة سقط فيها صاروخ سكود على الضفـة الغربيـة، فإنـه «لـم يتـم إطـلاق» صواريـخ بـاتريوت المعترضـة، وتذكر بشكل عرضي بأنه وفقاً للقانون الدولي، فقد كان على إسرائيل وهي القوة المحتلة، الواجب بأن «تأخذ بكل الوسائل التي في وسعها» لكي «تضمن بـأكبر قـدر مسـتطاع» أمـان الفلسـطينيين فـي الضفـة

الغربية وغزة[51]. لقد أوردت (MEW) وبدون أي تعليق على الإطلاق بأن جيش الدفاع الإسرائيلي «قد قيل بأنه يحقق» لمعرفة أسباب عدم بذل أي جهد للدفاع عن المناطق المحتلة بوجه هجمات صواريخ سكود .(368–370)

(B) لقد أدانت (MEW) مراراً وتكراراً العراق بسبب «الإرهاب» ضد المدنيين المترتب عن البيانات الصحفية المليئة «بلغة متغولة بكل ما في الكلمة من معنىً»، والتي كانت تصدر بعد كل هجوم بصواريخ سكود (22–23، 223، 228، 283–284، 386، 397، 402). سأترك جانباً التشخيص المتأخر للهجمات الصاروخية على أنها إرهاب، مع أنها «متغولة». لكن السؤال الأكبر الآتي: لماذا لم تقم (MEW) بإدانة «الائتلاف المتحالف» والذي تسبب بتدمير هائل لحياة المدنيين لغرض تحقيق أهداف سياسية «بالإرهاب»؟، وبدلاً من ذلك، فإن أقوى إدانة صدرت عن (MEW) بما يخص هذا الأمر تتعلق باستهداف «الائتلاف المتحالف» «لمعنويات المدنيين» العراقيين.(86–87) وتورد (MEW) أيضاً:

رغم أنه يمكن نظرياً أن يكون هناك فرق بين القصف لخلق الرعب والقصف لتدمير المعنويات، فإنهما عملياً يعتبران كشيء واحد. فلقد قيل مراراً بأن القصف لتدمير المعنويات بالنسبة للقوة المهاجِمة هو قصف يخلق الرعب بالنسبة للمدنيين المستهدَفين.(32)

هذا يكشف بأن (MEW) في تقييمها للبيانات الصحفية العراقية التي تلت الهجمات الصاروخية، قد أخذت بوجهة نظر «المدنيين المستهدَفين» ودعت الهجمات «إرهاباً»، في حين أنها في تقييمها القصف الذي قام به «الائتلاف المتحالف» فإنها تأخذ بوجهة نظر «القوة المهاجمة» وتعتبر الهجمات «قصفاً لتدمير المعنويات».

وبمسألة تتعلق بهذا الأمر، فلقد تم نبذ البيانات الصحفية العراقية من قبل (MEW) ووصفت بأنها «تدفق بلاغي» و«تبجّح بياني» و«دعاية مضلِّلة» و«كلام طنّان» و«بيان يتميّز بالزخرفة اللفظية» وإلى آخره، كما أنه مصمَّم للاستهلاك المحلي «للجماهير العربية» (22، 324، 327–329، 333، 355، 367، 391). مع هذا فلم تستعمل (MEW) أبداً لغة مشحونة كهذه لوصف بيانات «التحالف» الصحفية، فأكثر اقتراب قامت به (MEW) لانتقاد «الائتلاف المتحالف» كان إشارة عابرة إلى «الإيجازات العسكرية المدروسة والمعدّة» أو «الصورة المثالية المفصّلة بعناية» لإدارة بوش أو تقارير البنتاغون التي «تعزز بالمخادعة» وجهة نظر «الائتلاف المتحالف» (1-2، 117، 14). فلننظر الآن إلى هذه الاقتباسات النموذجية الواردة في تقرير (قتل لا لزوم له):

«نحن نتصرف بحذر شديد جداً في اتجاه هجماتنا، لنتجنب الإضرار بأية منشآت مدنية» الجنرال شوارسكوف، 27 / كانون الثاني (91–92).

«أعتقد أنه عليّ أن أشير هنا لذلك، لم تكن لدينا أية نية لتدمير الطاقة الكهربائية العراقية بكاملها» الجنرال شوارسكوف، 30 / كانون الثاني (175)

«نحن نفعل كل ما يمكن فعله، وبنجاح كبير، لتقليل الأضرار الجانبية للحد الأقصى»، الرئيس بوش، 5 / شباط (93)

«نحن نقوم وإلى أبعد حد باستهداف المرافق والمنشآت العسكرية، ولن نقوم بمحاولة إحداث أي ضرر بالأهداف المدنية»، المتحدث باسم البيت الأبيض، مارلين فيتز ووتر، 11 / شباط (81)

«لقد عرفنا أنه مرفق عسكري للقيادة والتحكم، واستهدفناه لهذا السبب،.. لقد استهدفناه، وقصفناه بحرص شديد، لقد قصفنا مبنىً محاطاً بالأسلاك الشائكة، وهذا لا يشير على أنه ملجأ، لقد قصفنا مبنىً له سقف مموّه لسبب ما، ومرة أخرى، لم يكن يظهر بأنه ملجأ» الجنرال توماس كيلي من القيادة المشتركة، بخصوص الغارة الجوية التي قصفت ملجأ العامرية، 13 / شباط (134)

كل واحد من التصريحات السابقة يتناقض بوضوح مع الأدلة التي جمعها تقرير (قتل لا لزوم له)، لماذا إذن لم تقم (MEW) بنبذها بوصفها دعاية مضللة مصممة للاستهلاك المحلي؟ في الواقع لو عزمت (MEW) أن تنعت المعنى الحقيقي لتلك التصريحات، فإنها لن تنعتها حتى بالدعاية المضللة، ولكن ببساطة ستنعتها كأكاذيب، وأكاذيب فاضحة أيضاً.

(C) لم تقم (MEW) فقط بالإحجام عن استنكار أكاذيب إدارة بوش ببساطة، بل لقد واصلت الخرافة الرئيسية لتلك الإدارة بأن ما حصل في الخليج ما بين 17 كانون الثاني و28 شباط كان «حرباً»[52].

فلنأخذ بالاعتبار الإحصائية التالية[53]:

	«الائتلاف المتحالف»	العراق
الإصابات العسكرية	350	115.000–56.000
الإصابات المدنية	14	115.000
كمية الذخائر التي تعرض لها أحد الأطراف	20 طن	84.000 طن

بالرغم من ذلك التفاوت الصارخ في جدول التوازن السابق، فإن (MEW) تدبرت أمرها لكي تكرس ما يقارب ثلث النتائج التي

توصلت إليها عن «حرب» الخليج (100 صفحة) لموضوع الهجمات الصاروخية العراقية، ولكي تعبّىء هذه المساحة، فإن (MEW) كرّست الصفحة تلو الصفحة للوثائق الكثيرة المتعلّقة بهجمات صواريخ سكود والتي «لم تسبب إصابات أو أضرار» (366-368، 378، 379-380، 392-392، 396-398)، بل أنها كرست إحدى الصفحات «لهجمة» بصاروخ سكود، اتضح أنها لم تحدث أبداً (371)! ولو قامت (MEW) ببذل العناء ذاته لتوثيق عواقب 84.200 طن من الذخائر ألقيت بواسطة «التحالف» فإن تقرير (قتل لا لزوم له) لن يملأ فقط عدة مئات من الصفحات، بل إنه سيملأ عدة مئات من الآلاف من الصفحات، كل الأمر أن تقرير (قتل لا لزوم له) يخلّد الخرافة التي أطلقتها إدارة بوش بأن العراق كان خصماً خطيراً ومقتدراً، الحقيقة أن ما حصل في الخليج ما بين 17 كانون الثاني و28 شباط في العام 1991 لم يكن «حرباً» على الإطلاق وإنما، وكما علّق عدة مراقبين بنزاهة، ما حصل هو «مجزرة»، وهدفها الأساسي -التدمير المنهجي للبنية التحتية المدنية الأساسية للعراق- كان «نوعاً من حرب إبادة، صُمّمت لتأكيد وقوع المعاناة والموت على أمد بعيد بين المدنيين، وبهذا تصبح الولايات المتحدة في موضع متفوق تحرز فيه أهدافها السياسية للمنطقة»[54]، إن من الصعب على قارىء عادي لتقرير (قتل لا لزوم له) أن يخرج من هذا التقرير بفهم لهذه الحقيقة الأساسية.

ملحق 2

«المعيار الأعلى» لإسرائيل

كما قد حاولتُ أن أظهر في هذا الفصل، بأن إسرائيل استفادت من معيار مزدوج في القضايا الدولية، مع هذا، فالتذمر المألوف في الغرب، هو أن إسرائيل قد عانت من معيار مزدوج أيضاً. ولهذا، ففي حملة التمويل التي قامت بها مؤسسة القدس في حزيران 1992، قام البروفيسور فؤاد عجمي من جامعة جونز هوبكنز، ودان راذر منسق الأخبار في محطة تلفزيون C. B. S، بانتقاد وسائل الإعلام لأنها تكرس إسرائيل، وبكلمات دان راذر، «إلى معيارٍ أعلى.. إن المرء ليخدع نفسه إذا صدق بأن الأمر ليس كذلك»[55]. ولكي نوضح عدم وجود أي أساس على الإطلاق لهكذا ادّعاء، دعونا نأخذ بالاعتبار الطريقة التي قامت بها صحيفة نيويورك تايمز في العقد المنصرم (1981-1991) بتغطية قضية التعذيب.

لقد أصبحت قضية التعذيب في الثمانينات؟؟؟ موضوعاً مهماً للبحث، إذ أقامت منظمة «أمنستي» الدولية حملة كبرى لنشر القضية ومن ثم تقليصها، ولقد أصدرت صحيفة نيويورك تايمز عدداً كبيراً من التقارير الصحفية الرئيسية، تتعلق بكل مظاهر التعذيب. وفي تغطيتها لمنطقة الشرق الأوسط، قامت نيويورك تايمز بتكريس مقالٍ

واحدٍ على الأقل عن التعذيب في إيران، في كل سنة من الفترة موضوع البحث، وقد بلغ مجموعها ستة وعشرين مقالاً، وفي الفترة ذاتها أصدرت خمسة عشر مقالاً استهدفت التعذيب في تركيا، وأربعة عشر كُرّست للتعذيب في العراق، وثمانية ركّزت على مصر. وإجمالاً، فقد كَرّست نيويورك تايمز ما يزيد عن ثمانين مقالاً بخصوص التعذيب في الشرق الأوسط، بدون إسرائيل.

فلننظر الآن كيف تمت معالجة حالة إسرائيل، ففي ماعدا فترة قصيرة أثناء حكم رئيس الوزراء بيغن، كان التعذيب يمارَس باستمرار منذ أوائل السبعينات ضد المعتقَلين الفلسطينيين، وابتداءً من عام 1977 أصبح هذا التعذيب موثّقاً بدقة، بواسطة فريق من محققين صحفيين بريطانيين، كما أصدرت منظمة «أمنستي» الدولية دراسة شاملة في تموز من العام 1991، وقدّمت الاستنتاجات التالية:

يبدو أن التعذيب أو إساءة المعاملة، مقَوننان في الواقع أثناء إجراءات الاعتقال والتحقيق التي تسبق مثول المعتقَلين أمام المحكمة العسكرية. إن الممارسات المتعلقة بإجراءات التحقيق تحديداً، كانت قد أُقرّت رسمياً، أو أنه تم التغاضي عنها عموماً. ولهذا فقد تم تشجيعها بالفعل من قبل السلطات. ومن الواضح أن لذلك تأثيراً مباشراً على إمكانية إجراء محاكمة عادلة، والتي تجري أساساً، بتقديم اعترافات يتم الحصول عليها تحت الإكراه، ومن الصعب كشفها في المحكمة.

تورد منظمة «أمنستي» الدولية كذلك، أن معظم المعتقَلين الفلسطينيين الذين يتم اعتقالهم بتهمة «الإرهاب» والذين يخضعون للتعذيب بواسطة «الشين بيت» (جهاز الأمن الإسرائيلي) «قد وُجهت إليهم تُهَم مثل العضوية في جمعية محظورة أو إلقاء الحجارة، كما أن

من ضمنهم أيضاً سجناء رأي، مثل الذين اعتُقِلوا بسبب رفعهم للعلم فحسب»، وفي نقطة تتعلق بهذا الأمر، لاحظ كاتب العمود اليومي في صحيفة هآرتز، ب. ميشال، بأنه لم تكن هناك حالة واحدة مسجلة، استعملت «الشين بيت» التعذيب أثناءها بحافز من سيناريو «القنبلة الموقوتة»: ويقول، «في كل حالة يقدّم بها أحد الفلسطينيين شكوى رسمية بصدد التعذيب، تقوم «الشين بيت» بتبرير ذلك بأنها تنتزع اعترافاً بشيء قد حدث فعلاً، وليس بشأن شيء على وشك الحدوث».

لقد صدرت قبل عدة أشهر من تقرير «أمنستي»، دراسة مماثلة من حيث الشمول في آذار 1991، بواسطة «بتسليم» (المركز الإسرائيلي لحقوق الإنسان في المناطق المحتلة)، وقد توصلت الدراسة إلى نتائج مماثلة، لقد وجدت أنه لانتزاع الاعتراف فإن «التعذيب يُمارَس بشكل واسع وروتيني بواسطة عملاء (الشين بيت)»، كما أن الدراسة تُلمّح إلى أن القضاة العسكريين الإسرائيليين، والمستخدمين الطبيين هم «مساعد سرّي» في هذه «الآثام الإجرامية» و«الانتهاكات الخطيرة» لأخلاقيات المهنة. كما أن وسائل التعذيب تتضمن التالي:

تغطية الرأس إلى فترات طويلة، والإجبار على الوقوف لفترات طويلة وأحياناً في أماكن ضيقة ومغلقة بينما الأيدي مربوطة خلف الظهر والأرجل مقيدة (الشبح). ربط المرء في أوضاع أخرى مؤلمة (مثل وضع «الموزة») لفترات طويلة، مع الحجز في زنازين صغيرة مبنية خصيصاً لهذا الغرض («الخزانة» أو «الثلاجة»). وكذلك الضرب المبرّح لفترات طويلة على كل أجزاء الجسد.

وتتابع «بتسليم» أن هذا التعذيب قد استعمل ضد «المشتبه

بهم فقط والذين لم يكن من الممكن التأكد من ذنبهم»، بل أن «ما يقارب الخمسين بالمئة من الاستجوابات انتهت بدون توجيه أي تُهَم، كما لم تُتّخذ أي إجراءات أخرى ضد المعتقلين». لقد تم تعذيب كل الفلسطينيين الذين شملتهم دراسة «بتسليم» أو أسيئت معاملتهم أثناء التحقيق، ولم توجه لأي منهم أي تهمة خطيرة تتضمن العنف. ورغم أن «الحظر ضد التعذيب مطلق» وفقاً للقانون الدولي، فإن الدراسة شددت على أن لجنة «لاندو» في العام 1987 قد «انتهت إلى تشريع استعمال التعذيب» بتصديقها على استعمال «قوة جسدية معتدلة». (وهذا مفصل، إلى حد ما، في ملاحق سرية فقط) «وأن استعمال التعذيب وإساءة المعاملة قد نشأت منطقياً عن تلك التوصيات».

في دراسة لاحقة نشرت بعد سنة، صرّحت «بتسليم» بأنه وبالرغم من «الاهتمام الفوري والشامل»الذي لقيته نتائجها السابقة»، فماتزال الصورة على الحالة التي ظهرت بها قبل سنة تماماً». وتقول دراسة قامت بها (MEW) أنه فقط «في حالة واحدة، قادت إساءة معاملة الفلسطينيين إلى محاكمة محققين من جهاز الأمن العام والحكم عليهم بالسجن»، وكان ذلك بسبب «ظروف توافقت بشكل فريد». فلقد حاكمت الدولة وأدانت اثنين من محققي جهاز الأمن العام، بسبب تعذيبهم القاتل للمعتَقل خالد علي البالغ من العمر سبعة وعشرين سنة، ولقد حكم عليهم بالسجن لمدة ستة أشهر بتهمة «الإهمال».

في وصفه لرد الفعل الإسرائيلي على الادّعاءات الموثقة والغزيرة، والتي نشرت بكثرة حول وجود التعذيب، فإن ستانلي كوهين المتخصص في علم الجريمة في الجامعة العبرية يجمل التالي:/

ضمن الفئات الاجتماعية الليبرالية القليلة «والمتناقضة» في المجتمع الإسرائيلي، هناك خرافة لإشباع الرضا عن النفس، ومفادها أن «أشياء كهذه لا يمكن أن تحدث هنا» -وإذا حدثت، فإنها إساءات معزولة وتعالَج بالشكل الصحيح. وأيديولوجية اليمين.. تؤمن بأن أية محاولة لفضح الانتهاكات الواسعة لحقوق الإنسان، هي عبارة عن دعاية مضللة ضد إسرائيل، أما بقية المجتمع -وهي الأكثرية التي لا تحس بأي تأنيب أخلاقي بخصوص ما يحدث للفلسطينيين، فهي ستبرر أي شيء باسم الأمن الوطني- وهم لا يكترثون بأحاديث كهذه[56].

لنعد الآن إلى صحيفة نيويورك تايمز، فقد يكون ما كرسته من مساحة في الصحيفة لتغطية أخبار إسرائيل، مساوياً لما كرّسته لكل العالم العربي مجتمعاً. ومع هذا وفي العقد من السنين مدار بحثنا الآن (1981-1991)، وجدت صحيفة نيويورك تايمز مساحة لخمسة مواضيع فقط عن تعذيب إسرائيل للمعتقلين الفلسطينيين:

1986 ستون كلمة ، في صفحة داخلية

تقرير مفاده أن إسرائيل ستحقق في مزاعم «أمنستي» الدولية بصدد التعذيب، وخلصت الصحيفة، مستشهدة بالتعليق الرسمي لوزارة العدل، إلى «أن إسرائيل تحقق بكل شكوى بأكبر قدر من التفصيل».

1987 عدة فقرات ، في صفحة داخلية

تروي صحيفة تايمز أنه، في فضيحة وطنية كبرى وجد تحقيق رسمي إسرائيلي بأن «الشين بيت» قد ارتكبت إثم الحنث باليمين إذ

أنكرت استعمال التعذيب ضد «المشتبه بقيامهم بالإرهاب»، وتستشهد الصحيفة بمحرر صحفي إسرائيلي يهلل «لشجاعة تقرير لاندو». وللتذكير فإنه هو ذاته التقرير الذي وصفته «بتسليم» بأنه «انتهى إلى إجازة التعذيب».

«فكرة» مقال كتبه خبير الصحيفة في شؤون الشرق الأوسط، توماس فريدمان.

لكي يمهد الجو لفهم مناسب لاستعمال إسرائيل التعذيب، فإن فريدمان يفتتح مقاله بملاحظة على شكل نذير «ثمة حرب تجري هنا.. » -وهي ملاحظة. لا شك أن نظام التعذيب في العراق يريد أن يثبتها أيضاً. ويتابع فريدمان أنه خلافاً للحروب في المناطق الأخرى «إن الخسائر لا تقاس بالدمار الحاصل للمباني، ولكن بالضرر الذي لحق بأرواح الناس وبالتصدّع الذي لحق بقواعد السلوك» ولا يقاس كما قد يعتقد المرء بسذاجة بالضرر الذي لحق بعظام الفلسطينيين.

يناقش فريدمان تقرير لجنة «لاندو»، ويضع ملاحظة بأن «الشين بيت» قد كذبت بشأن استخدامها للتعذيب ضد «الفلسطينيين المشتبه بأنه منخرطون أو خطّطوا لتفجيرات واعتداءات عنيفة أخرى ضد إسرائيل»، هذا بالرغم من أن، وكما أشرنا سابقاً، خمسين بالمئة من حالات التعذيب تلك، قد انتهت بدون حتى توجيه تهم بارتكاب جرائم، كما أنه لم تكن هناك حالة واحدة قد سجلت مثالاً لسيناريو «القنبلة الموقوتة» حتى تستدعي «الشين بيت» لاستخدام التعذيب.

لتفسير «اللامبالاة» التي استقبل بها الإسرائيليون تقرير «لاندو»، فإن فريدمان يجتهد بالقول «بعد كل شيء» فإن الفلسطينيين الذين تم تعذيبهم «سيكونون أكثر من مرحّبين بتبادل

الأدوار مع المحقّقين»، وهذه نقطة أخرى لا شك في أن الذين يقومون بالتعذيب في العراق يرغبون بإثباتها، يجد فريدمان كذلك «ظاهرة صحّية» في حقيقة أن إسرائيل وبخلاف سوريا «تأخذ على عاتقها إجراء تحقيق رسمي كهذا»، بالرغم من أن التحقيق قد طلع بنتائج غير صحية بالتوصية بإقرار التعذيب.

ويستشهد فريدمان باستحسان بالرؤية الإسرائيلية بأن عمق «الفساد» بالاحتلال يقاس بأن «الشين بيت» تكذب على قلب ديمقراطية إسرائيل: وهي المحاكم» ولا تقاس، كما يقول، بتكسير «الشين بيت» لعظام الفلسطينيين[57].

1990 مادة من مئة كلمة ، في صفحة داخلية

تورد نيويورك تايمز، أن الإسرائيليين يتجادلون عمّا إذا كان من اللازم محاكمة بعض ضباط الشرطة بسبب التعذيب أو لا.

عدة فقرات ، في صفحة داخلية

تورد الصحيفة أنه تم قتل وجرح عدد من الفلسطينيين أثناء تظاهرة احتجاجية على مقتل معتقَل فلسطيني، ثم تشير الصحيفة إلى معضلة التقرير: أن المسؤولين في السجن يدّعون بأن المعتقل قد انتحر، بينما «يؤكد الفلسطينيون منذ زمن بأن «الشين بيت».. تستخدم الضرب وحتى التعذيب لانتزاع الاعترافات». ولكن هناك معلومة بسيطة لم تذكر في التقرير، ومفيدة لحل المعضلة، وهي أنه ليس الفلسطينيين فقط، بل كل منظمات حقوق الإنسان الرئيسية التي بحثت في إسرائيل قد أكدت بأن «الشين بيت» تستخدم التعذيب لانتزاع الاعترافات. وتقول الصحيفة بأن الفلسطينيين «يؤكدون بعناد

أن الفلسطيني القتيل كان بتمام الصحة والعافية» عندما تم أخذه للاحتجاز. وتُعقّب الصحيفة بلمسة شاذة من السخرية، «بالرغم» من الحقيقة بأنه معروف بمزاولته «للنشاطات السياسية».

تلك المواد الخمس هي السجل الكامل لتغطية صحيفة نيويورك تايمز لموضوع التعذيب في إسرائيل، في الفترة ما بين 1981-1991.

لم تلمّح الصحيفة ولو لمرّة واحدة للحقيقة الثابتة بأن تعذيب إسرائيل للمعتقلين الفلسطينيين في المناطق المحتلة «مقونن في الواقع» (أمنستي الدولية)، و«روتيني ومنهجي» (بتسليم).

نستعيد الآن إصرار منسق الأخبار دان راذر، في مؤسسة القدس بأن «المرء يخدع نفسه إذ يصدق بأن إسرائيل ليست مكرسة لمعيار أعلى» في وسائل الإعلام.

من يخدع من؟

ملاحظات الفصل الثالث

(1) «العالم ضد صدّام حسين» نيويورك تايمز، 25 / آب 1990.

(2) نيويورك تايمز، 16 / آب 1990؛ نيوزويك، 27 / آب 1990.

(3) Avner Yaniv, Dilemmas of security (oxford, 1987), 21; Yehoshafat Har Kabi, Israel's Fateful Houre (New York, 1986), 99; Noam Chomsky, The Fateful Triangle (Boston, 1983), 197; Robert Fisk, Pirty the Nation (New York, 1990), 197, 232.

في أحدث مذكراته، سيتذكر إيبا إيبان، بأن «دخول قوات جيش الدفاع الإسرائيلي إلى لبنان، أتى في الواقع، ليس استجابة إلى عمل منظمة التحرير، ولكن استجابة لإيجابية منظمة التحرير الفلسطينية. فلمدة سنة كانت اتفاقية لوقف إطلاق النار قد تم التفاوض عليها بين إسرائيل ومنظمة التحرير بواسطة الولايات المتحدة.. كانت عموماً قد احتُرمت.. لقد كان عرفات وكبار مساعديه، متلهفين بشدة للاحتفاظ بموطىء قدم في لبنان، دون أن يتعرضوا لهجوم إسرائيلي كبير». ويستمر إيبان بالقول بأن وزير الدفاع أريئيل شارون كان قد أعد الخطط بالفعل في آب 1981 لاجتياح لبنان «ليس كاستجابة لأعمال العرب، ولكن كعمل متعمّد من جانبه وعن سبق إصرار.. واعتمدت خطّته المصمّمة على أن تنتهك منظمة التحرير اتفاقية وقف إطلاق النار، وليس على محافظة المنظمة عليها، وما كان شارون بحاجة إليه، هو ذريعة للحرب». ومسلماً ضمنياً بأن اجتياح

لبنان كان حرباً عدوانية غير مشروعة، فإن إيبان بالرغم من ذلك، كان قد ساندها علنياً. فبينما كان يتفقّد الخط الأمامي «وجدتُ نفسي محاطاً بجنود من الشباب، أرادوا أن يعرفوا إن كنت أعتقد بأن الحرب.. كانت نوعاً من العمليات التي بمقدورهم أن يقوموا بها بضمير مرتاح.. ومواجَهاً بالوجوه الفتية للجنود، وبعضهم بالكاد استطاع احتواء مخاوفه، وجدت أن من المستحيل شعورياً القيام بأي شيء، سوى إعطائهم الشعور بأن هذه المبادرة التي شرعوا بها، تستحق دعمهم، وإذا دعت الضرورة تضحيتهم. لم أستطع أن أتخيل بأن أي قائد إسرائيلي بمشاعر عادية، كان بإمكانه أن يعطيهم أي جواب آخر».

(Personal Witness (New York, 1992), 605-8).

وهنا يستذكر المرء اتهام (جوليان بيندا) اللاذع في كتابه خيانة المثقفين (نيويورك، 1969) لهؤلاء الذين «لا يعرِّضون وطنيتهم لأي اختبار بما يتعلق بأحكامهم، منادين.. بأنه حتى لو كانت البلاد على خطأ، يجب أن نفكر بأنها على صواب»؟«52»

(4) NewYork Timse, 16 September 1990; Yaniv, Dilemmas,20-23, 50-54,67-70, 87-89, 101, 105, 113, 143; Harkabi, Israel's Fateful Hour, 101.

بالنسبة لقلق الموساد الإسرائيلي ومكائده لكي يجهض «هجوم السلام» من منظمة التحرير، راجع أيضاً:

Victor Ostrovsky, By Way of Deception (New York, 1990),247-56.

بالنسبة لـ«وقاية الاحتلال» بوصفه الهدف الإسرائيلي الحقيقي في الحرب اللبنانية راجع أيضاً:

Meron Benvensti, Intimate Enemies (New York, 1995), 79; Major General Avraham Tamir, Asoldier in Search of Peace (New York, 1988), 93, 116, 117, 122; and Shimon Shamir, »Israeli Views of Egypt and the Peace Process, in the Middle East, ed. William Quandt (Washington, D. C., 1988), 207.

(5)Manchester Guardian Weekly, 12 August 1990; Chomsky, Fateful Triangle, 221.

لمناقشة حول أعداد الإصابات راجع:

Fisk, Pity the Nation, 257, 418-19.

والذي يلاحظ بأن «ليس هناك إحصائية جدّية على الإطلاق، قد أتت من منظمة التحرير»، ويضع Fisk عدد ضحايا هجوم إسرائيل بحدود 17825، ما بين 4 حزيران ونهاية أيلول من العام 1982.

(6)Fisk, Pity the Nation, 277-78, 282-84; See also Chomsky, Fateful Triangle, 214-15, 224-26, 229.

من أجل البحث الدقيق في أعراف التسلح بما يتصل بأحداث الحرب اللبنانية، راجع:

W. Thomas Mallison and Sally V. Mallison, The Palestine Problem in International Law and World Order (London, 1986), 376-87.

يستنتج المؤلفان بأن الاستخدام الإسرائيلي للقنابل العنقودية والفسفورية، من غير تمييز في المناطق المأهولة كان «مناقضاً للقانون الدولي».

(7) أرغب هنا، مع ذلك بإدخال ثلاثة شروط. **أولاً**، لم تحكم المحكمة الدولية أبداً في ادّعاءات العراق القائمة منذ فترة طويلة ضد الكويت. تصوّرياً، فإن استخدام العراق للقوة لم يكن غير شرعي بالكامل. لقد أبدى R. Y. Jennings وجهة نظر عامة في دراسته

الكلاسيكية، الاستيلاء على مناطق في القانون الدولي (نيويورك، 1963)، ومفادها أنه «عندما يتبين أن الدولة التي استولت على منطقة من دولة ثانية، باستخدام غير شرعي واضح للقوة، تملك الحق الأقوى.. فإن استخدام القوة سيظهر بأنه غير مبرّر، لأن القانون الدولي لم يقم وبأي شكل بتحريم استخدام القوة من قبل دولة داخل مناطقها الخاصة بها».«66»

ثانياً، حتى لو كان العراق لا يملك مطالبات نافذة في، الجزر المهجورة التي توفر منفذاً على الخليج، فهناك سوابق وفيرة لتسويات سياسية منحت مناطق لفريق لا يملك حقاً شرعياً بها. فبالنظر للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني، فإن قرار تقسيم فلسطين في العام 1947 أعطى إسرائيل 56 بالمئة من فلسطين، ومع نهاية الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، كانت إسرائيل قد غزت 77 بالمئة من فلسطين بالكامل، مع هذا فإن التسوية على أساس قيام دولتين والتي عرضتها الهيئة العامة للأمم المتحدة، ومنظمة التحرير في السنوات الأخيرة، دعت إسرائيل للانسحاب فقط من الضفة الغربية وغزة، وبهذا تخلّت لإسرائيل عن مناطق تم احتلالها خرقاً لقرار التقسيم وليس لإسرائيل حق شرعي بها. (وكما يشير Jennings في كتابه «الاستيلاء على المناطق، 55» ليس لدولة حق شرعي في مناطق استولت عليها حتى وإن كان في حرب دفاع عن النفس).

أخيراً، إذا كان، وكما أصرت إدارة الولايات المتحدة، من غير الممكن «مكافأة» الاعتداء العراقي بطرح أي تنازلات، لماذا إذاً «كوفيء» اعتداء إسرائيل على لبنان (بدعم رئيسي من الولايات المتحدة) بإجبار منظمة التحرير على الرحيل عن بيروت، وإملاء «معاهدة سلام» على لبنان، تضمنت التخلي، بناءً على الأمر الواقع،

عن جنوب لبنان لإسرائيل؟ (بالنسبة للنقطة الأخيرة راجع،
Fisk, Pity the Nation, 480-82)Fisk, Pity the Nation, 480-82)

(8)New York Times, 26 August 1990.

(9)Naom Chomsky, «The Palestinian Uprising», Zeta, May 1988; Chomsky, Fateful Triagle, 54; Shabtei Teveth, Ben – Gurion and the Palestinian Arabs (Oxford, 1987), 187-90; Simha Flapan, The Birth of Israel (New Yoak, 1975), 83; Secuaity Coucil, United Nations, Security Council, Official Records, Twenty – Second Year, 13 November 1967, 1373rd meeting.

(10)Fisk, Pity the Nation, 435; Cf. Noam Chomsky, Pirates and Emperorss (New York, 1986), 97-98.

للاطلاع على مسألة «الدولة البوليسية الوحشية» الإسرائيلية في جنوب لبنان، المليئة بفصائل الموت، غرف التعذيب، والتحالف مع شخصيات «غير سوية» مثل -صقر عيتاني- الذي عرضت ميليشياه آذان السجناء المسلمين في أحزمتهم (ويقول شعار ميليشيا صقر الرسمي «من واجب كل لبناني أن يقتل فلسطينياً»)، راجع:

Chap. 15 of Fisk, Pity the Nation.

(11)Koteret Rashit, 3 August 1988.

(12) راجع الوثائق الرهيبة لـ«أمنستي» الدولية، العراق: الأطفال – ضحايا أبرياء للقمع السياسي (New York, n.d.).

(13) آن إليزابيت نيكون، وضع الأطفال الفلسطينيين أثناء الانتفاضة (نيويورك، 1990). والدراسة كانت بتكليف من مؤسسة فورد. وقد تم تعريف «الأطفال» من هم تحت سن السادسة عشرة.

(14) «بتسليم» (مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في المناطق المحتلة)، تقرير بعنوان: العنف ضد القاصرين في معتقلات

البوليس (القدس، 1990) وقد تم تعريف «القاصر» بأنه طفل في سن ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة. حتى هذه المنظمة النموذجية لحقوق الإنسان، تكشف أحياناً عن بقعة أخلاقية عمياء لديها. لننظر إلى فراسة (تشارلي جرينبوم) عضو «بتسليم» وعضو هيئة التدريس في الجامعة العبرية بأن «الأثر الأكثر تدميراً وخطورة، من جراء عنف الشرطة يقع، ليس على القاصرين، ولا على الشرطة، لكن علينا نحن أولئك الذين فضلوا بأن لا يعرفوا». وكذلك مقدمة تقرير أعدّه عضو «بتسليم» وعضو الكنيست أمنون روبنشتاين، والذي وضع «المسؤولية عن هذه الحالة من القضايا.. أولاً وأهم شيء على هؤلاء الذين أرسلوا الأطفال خارجاً إلى المواجهات العنيفة مع جنود جيش الدفاع الإسرائيلي». وبالمناسبة، فهذه الحجة الأخيرة ليست بلا سابقة مفيدة للمعنى، يستذكر (تيلور برانش) كاتب سيرة حياة (مارتن لوثر كنينغ) أنه عندما وجهّت شرطة بيرمنغهام كلابَ مهاجمة وخراطيم مياه الحريق على أطفال سود محتجين، فإن «قادة البيض في بيرمينغهام تدافعوا ليتقدموا ذلك التضخّم من الشفقة العامة.. بأن استنكروا استغلال الأطفال». وصرح عمدة بيرمنغهام بأن «المشاغبين اللامسؤولين وغير المقدّرين للعواقب» قد عملوا من الأطفال «أدوات» ليهدّدوا الحياة والممتلكات. وتابع بالقول «إن الناس المحترمين في بيرمنغهام، بيضاً أو ملونين، لم يخلقوا هذا الخطر». «نحن لم نساهم بهذا الحدث، نحن ضحايا أبرياء.. أنا لا أستطيع أن أتسامح، وأنتم لا تستطيعون أن تتسامحوا، مع استغلال الأطفال لهذه الأهداف». وكانت استجابة كينغ، وهي مدوّية بالشكل ذاته في الحالة الفلسطينية، «هذا الحنان المعزول للأطفال الزنوج، لم يسبق أن خلق اهتماماً بذهابهم إلى المدارس التعيسة أو المظالم الأخرى من الفصل العنصري».

(Taylor Branch, Parting the Waters (New York, 1988), 761-62)

(15) من أجل تبسيط تفسير المواد، فقد ناقشت هنا مواضيع محددة -على سبيل المثال، سلب الممتلكات الخاصة- والتي ربما تنتمي إلى نوع جرائم الحرب. وعلى أية حال، فإن التمييز بين جرائم الحرب والجرائم بحق الإنسانية لم يكن واضحاً تماماً في نوريمبيرغ، راجع:
Ann Tusa and John Tusa, The Nuremberg Trial, (New York, 1984), 87.

(16) تقرير «أمنستي» الدولية، 1990 (نيويورك، 1990)، من أجل سجل للمقارنة بصدد إساءات العراق لحقوق الإنسان في الكويت، راجع تقرير «أمنستي» الدولية، العراق / الكويت المحتلة: انتهاكات حقوق الإنسان منذ 2 / آب / 1990 (نيويورك، كانون أول 1990). وتقرير News from Middle East Watch (نيويورك، أيلول 1990، 16 تشرين الثاني 1990).

قدّرت منظمات حقوق الإنسان أنه في أثناء الاحتلال العراقي، قُتل عدة مئات من الكويتيين وتعرض عدة آلاف لاعتقالات اعتباطية.

(17) لنستذكر رغم ذلك، الاستنكار المشين من يوسي ساريد قائد حركة حقوق المواطنين بحق منظمة التحرير لدعمها العراق: «مقارنة بجرائم صدّام حسين، قد تبدو ذنوب حكومة إسرائيل بيضاء كالثلج. فعندما تقرأ الصفحات السوداء عن العراق في الصفحات البيضاء لـ«أمنستي» الدولية، فإنك تتوصل لاستنتاج بأن شارون ورابين هم تقريباً أخيار الأمم»، («دعوهم ينظرون إليّ» هآرتز، 17 آب 1990).

والتفسير اللطيف لذلك، باعتقادي، هو أن ساريد لم يقرأ تقرير «أمنستي» الدولية أبداً.

(18) أترك هنا جانباً النقطة الأكثر أساسية، والتي قالها لي نعوم تشومسكي: «تصور أن دولة ديمقراطية كاملة، وأسوأ دولة بوليسية في العالم ارتكبا جريمة محدّدة. فمن السخف أن نحاجج بأنه من غير العدل مقارنة الجريمتين لهذا السبب، باستثناء اعتبار واحد: أنها أكثر شناعة في حالة الديمقراطية الكاملة، لأن هؤلاء الذين ارتكبوا الجريمة بالفعل، كانوا معرضين للخطر بصورة أقل كثيراً لو أنهم ببساطة رفضوا، لذلك فإن اللوم الأخلاقي عليهم هو أعظم كثيراً. وبعيداً عن ذلك، فالجريمة لا تتوقف عن كونها جريمة، إذا ارتكبتها دولة ديمقراطية. إن المحاججة بالكاد تصل إلى مستوى السخافة. وحقيقة أن المرء يسمعه بصورة شائعة، ما هي إلا دلالة أخرى على آبار اللاعقلانية الإنسانية التي هي بلا قعر».

(محادثة شخصية)

(19)Raja Shehadeh, Occupier's Law (Washington, 1988), Mallison and Mallison, Palestine Problem, Chap. 6.

لقد اعترفت إسرائيل باتفاقية شرعة جنيف الرابعة، وذلك أثناء الشهر الأول من الاحتلال، ولكن في تشرين الأول 1967، ألغت بهدوء أي ذكر لها. ومنذ ذلك الوقت، كان موقف إسرائيل الرسمي أنه، في حين لا تقبل الشرعة كقانون، فإنها نفّذت الشروط الإنسانية في الواقع. وبالقدر الذي كانت فيه عمليات الإبعاد، للعقوبات الجماعية، هدم البيوت وتأسيس المستوطنات تنتهك الشروط الإنسانية من شرعة جنيف الرابعة، فإن هذا الادّعاء زائف بوضوح. مشيراً على الأخص إلى القرارات التي اتخذتها المحكمة الإسرائيلية العليا (والحديثة منها)، استنتج أفيغور فيلدمان، محامي الحقوق المدنية الإسرائيلي بأن

«ما عانى مصدر قانوني من حجم كهذا من التآكل وأصبح خالياً تماماً من المضمون» كما حصل لشرعة جنيف.

(«The Bone – Breaking Codex», Haarez, 10 Octcber 1990). On the 1979 United Nations Code of Conduct, See especially Middle East Watch, The Israeli Army and the Intifada (New York, 1990), 7-8.

«بتسليم» (مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في المناطق المحتلة)، التقرير السنوي 1989 (القدس، 1989)، 41–43. وأشار تقرير «بتسليم» كذلك إلى أن «المحكمة قد رفضت كل التماس تسلمته فيما يتعلق بهدم البيوت، كما تقبلت كل الادّعاءات بالأعذار الأمنية التي كانت أساساً لهدم أو إغلاق بيت». إن اللجنة الدولية المنبثقة من الصليب الأحمر، وهي القيّمة على شرعة جنيف، وقد حرّمت بوضوح «تدمير الممتلكات.. كعقاب أو رادع»، مع هذا فإن المحكمة الإسرائيلية العليا قد حكمت في آذار 1986 بأن هدم البيوت مُبرر كرادع.

(see Al – Haq \ Law in the Service of Man, Punishing a Nation (Boston, 1990), 137-38).

(21) B'Teslem, Annual Report 1989, 53-54; Al – Haq \ Law in the Service of Man, Punishing a Nation, 126.

كما أشار تقرير «بتسليم» كذلك، إلى أنه بالرغم من أن للمبعدين الحق في تقديم استرحام للمحكمة العليا، «حتى الآن، فإن المحكمة العليا قد رفضت كل الاسترحامات التي قدّمت إليها في هذا الموضوع وأقرت كل أوامر الإبعاد».

(22) Shehadeh, Occupier's Law, 12, 18-22, 28, 32.

الاستثناء الوحيد –قضية أيلون موريه– أثبتت في تطبيقها أنها

ليست استثناءً على الإطلاق (راجع المرجع السابق). كما حكمت المحكمة العليا كذلك بأن المستوطنين اليهود يشكلون جزءاً من السكان المحليين في المناطق المحتلة. وطالما أن القانون الدولي يسمح للمحتل بأعمال لمصلحة السكان المحتلين، فمن الممكن أن تُحتَجَز الموارد الفلسطينية من الآن فصاعداً لمصلحة المستوطنين. وقرار المحكمة هذا -وعلى حد تعبير شحادة- «أوقف القانون الدولي على رأسه، إذ أنه يجعل (المستوطنين اليهود) جزءاً من «السكان المحميين» والذي يقف القانون الدولي لحماية مصالحهم، والتي تتباين عن مصالح المحتلين».

(المرجع السابق، 219؛ انظر أيضاً 110-111).

(23)Al – Haq \ Law in the Service of Man, Punishing a Nation, 242; B'Tselem (Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories), The system of Taxation in the West Bank and the Gaza Strip (Jerusalem, 1990), 9.

(24) أحد هذه الأوامر العسكرية يتطلب ترخيصاً من أجل «مسير عشرة أو أكثر من الناس معاً، أو التجمع لغرض المسير معاً من مكان إلى آخر لغرض سياسي، أو لأمر يمكن أن يفسَّر على أنه غرض سياسي، بغض النظر عمّا إذا كانوا يقومون بالمسير أو لا، وبغض النظر عما إذا كانوا قد تجمعوا أو لم يقوموا بالتجمع».

وكان عقاب خرق هذا الأمر عشرة سنوات سجن. والتحدي الوحيد الذي أيدته المحكمة العليا، كان أمراً يفوِّض الحاكم العسكري بتعيين الهيئة التنفيذية لنقابة محامين من الضفة الغربية. وقد حكمت المحكمة بأن النقابة تمتلك الحق في انتخاب مجلسها -ولكن هذا الحق يجب أن يتوازن كذلك مع المتطلبات الأمنية.

See John Quigely, Palestine and Israel (Durham, N. C., 1990), 201-2; Shehadeh, Occupier's Law, 95-100, 224, 226).

إن المراسيم الإسرائيلية المتزايدة لستر المشاريع غير الشرعية أساساً، بعباءة من الشرعية، ليست بلا سابقة مفيدة للبيان. يستذكر أحد مؤرخي المحرقة النازية، أنه وفي أثناء «العملية الخبيثة والتي.. كانت تلجأ للقانون باستمرار.. من أجل تنفيذ الظلم، فإن ما لا يقل عن 1970 قانون ومرسوم وأمر وتشريع قد أُصدرت على مستوى الأمة والولاية والمحافظة» ضد اليهود «تقف شاهداً على عبادة طوطمية لا توصف للنظام».

(Lother Kettenacker, «Hitler's Final Solution and Its Rationalization» in The Policies of Genocide, ed. Gerhard Hirschfeld (London, 1986) 76-77).

Shehadeh, Occupier's Law, Chap. 4, 222-24; (the quoted phrases appear on 86, 87, 222).

بما يتعلق بمسخرة العدالة في المحاكمات العسكرية، راجع أفيغدور في فيلدمان، «سريع، بطيء ومميت» حداش، 1 كانون الثاني 1988، وكذلك داني روبنشتاين، «الفرق بين زمرة عسكرية وفرقة أوركسترا سيمفونية في المحكمة العليا في نابلس» دافار، 1 / كانون الثاني 1988. خلال حزيران 1993، كان أربعمائة ألف فلسطيني، أو خمس مجموع سكان الضفة الغربية وغزة، رهن الاعتقال أو مسجونين. بما يتعلق بالاستعمال الإسرائيلي الضخم للاعتقال الإداري، يمكن للمرء أن يستذكر بأن لجوء النازيين لتطبيق هذا الأمر كان العلامة على الانهيار الكامل للقانون في ألمانيا.

(See Joachim C. Fest, Hitler (New York, 1975), 397-98, and Robert Gellately, The Gestapo and German Society (oxford, 1990), 28).

(26) «بتسليم»، استعمال الأسلحة النارية (القدس، 1990)، 22-28، وأيضاً ميشال سيلا، «حرب الأعلام» دافار، 24 تشرين أول 1990. وفيما يتعلق بموضوع الرصاص البلاستيكي تحديداً، راجع تقرير «بتسليم»، استعمال الأسلحة النارية، 14-21، والذي يصف هذه الذخيرة بأنها «قاتلة من جميع النواحي». راجع أيضاً:

Middle East Watch, Israeli Army and the Intifada, Chap. 1.

وفيما يتعلق بالتوسع في استخدام فصائل الموت، راجع:

Al - Haq \ Law in the Service of Man, Punishing a Nation, 30-34.

وكذلك التقرير الأحدث الذي أعدته «بتسليم»، نشاطات الوحدات المتخفية في المناطق المحتلة (القدس، 1992) وكذلك تقرير:

Middle East Wach, A License to Kill (New York, 1993).

وفي قضية متعلقة بهذا الأمر فإن تقرير، استعمال الأسلحة النارية أورد أنه من ضمن التسعة عشر جندياً ومدنياً الذين قُتلوا في المناطق المحتلة خلال الانتفاضة، فإن واحداً فقط قد قُتل أثناء مواجهة مع مظاهرة. وكذلك «في كل الحالات فإن الموت كان ناتجاً عن هجوم من شخص أو من مجموعة صغيرة»، وهذه الأرقام توضّح أنه «لا يوجد ترابط مباشر بين شدة الخطر على الحياة وبين الظروف التي من الممكن أن يقوم فيها الجنود بفتح النيران».«54»

(27) Middle East Watch، الجيش الإسرائيلي والانتفاضة، 13. وراجع تقرير «أمنستي» الدولية، حالات القتل بواسطة القوات الإسرائيلية (نيويورك، كانون الثاني 1990): «إن السلطات الإسرائيلية تتغاضى عملياً، وربما حتى تشجع التصفيات بدون اللجوء للمحكمة كوسيلة للسيطرة على الاضطرابات».

(28) الكتاب السنوي لـ«أمنستي» الدولية 1989 و1990، وكذلك:

Middle East Watch, Israeli Army and the Intifada, Chap. 2.

وكذلك تقرير «بتسليم»، استعمال الأسلحة النارية، 42-51. من أجل دحض مقنع للحجة بأن سبب توجيه عدد قليل من التهم هو أن الجنود المهاجمين قد تصرفوا ضمن التوجيهات الرسمية، راجع تقرير استعمال الأسلحة النارية.

(29) أفيغدور فيلدمان، هآرتز، 2 حزيران 1989.

(30) Middle East Watch، حقوق الإنسان في العراق (نيويورك، 1990)، 95-142؛ و«أمنستي» الدولية، العراق / تركيا. (نيويورك، 1990).

وصحيفة نيويورك تايمز، 17 و29 أيلول 1990، راجع أيضاً المرجع المذكور في ملاحظة 16 أعلاه. قدّرت «أمنستي» بأن ثلاثمائة ألف كويتي، وكذلك عدة مئات الآلاف من الجنسيات الأجنبية قد أصبحوا لاجئين نتيجة للاجتياح العراقي.

(31) بما يتعلق بعمليات الطرد في العام 1948 راجع:

Norman G. Finketstein, Image and Reality of the Israel – Palestine Conflict. (London, 1995), Chap. 3.

في نهاية الأمر صادرت الحكومة الإسرائيلية كل أراضي اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيشون خارج خطوط هدنة عام 1949 و65 بالمئة من أراضي الفلسطينيين الذين يعيشون داخل تلك الخطوط. كما أن القيمة الإجمالية لممتلكات الفلسطينيين الضائعة مقدرة بالقيمة الحالية للعملة قد قدّرت أكثر من مرة بالبلايين. فيما يتعلق بهذه النقاط راجع:

Quigley, Palestine and Israel, 84-85, 109-11, 212.

(32)Al – Haq \ Law in the Service of the Man, Punishing a Nation, 123-28, 133-39.

وكذلك، غوغا كوغان، «الترانسفير اللامرئي» حوتام، 15 أيلول 1989؛ وغابي نيتزان، «لقد بدأ الترانسفير وتواصل من دون أية عقبة»، «الترانسفير يتواصل بصمت مطلق»، و«ما الجديد في ترانسفير رابين»، حداشوت، بالترتيب: 20 أيلول 1989، 27 أيلول 1989، 18 تشرين أول 1989.

وكذلك، رونت ماتالون، «إلى الجسر في تاكسي»، هاآرتز، 10 تشرين أول 1989 و:

Shehadeh, Occupier's Law, Pt. 1 («The Alienation of the Land in the Weat Bank»), and 213-18.

وكذلك روبن بدهاوزر «استخراج الماء من صخرة النزاع» و«الصنبور العام»، هاآرتز، بالترتيب: 25 نيسان 1989 و3 أيار 1989. ونداف شرغاي، «إنهم يدعونها توسعيّة» هاآرتز، 22 حزيران 1990.

(33)Chmosky, Fateful Triangle, 46; Aryeh Egozi, «Slaves at Night – Workers during the Day», Yediot Ahronot, 6 March 1986; Meron Benvenist, 1986 Report – Demographic, Economic, Legal, Socialand Political Developments in the West Bank (Boulder, 1987), 19; B'Tselem (Israeli Information Center for Human Rights in the West Bank and the Gaza Strip (Jerusalem, 1990) (the quoted phrase appears on 40); Craiy Forman, «Spirit of Palestinian Uprising Remains Alive in Town That Defied Israel with a Tax Boycott», Wall Street Journal, 20 September 1990; Israeli League for Human and Civil Rights, Report (Jerusalem, November 1989), 2.

إن دراسة «بتسليم» التي تم الاستشهاد بها أعلاه، كانت غنية بالمعلومات، وبشكل خاص فيما يتعلق باستعمال النظام الضريبي

بوصفه -على حد تعبير العنوان الفرعي في الدراسة- «أداة لتعزيز السلطة أثناء الانتفاضة». مع ذلك فإنها تقترح بمكر، بأن الكثير من سكان بيت ساحور قد تم إجبارهم على طاعة الإضراب عن دفع الضرائب.(34-35)

(34) «تصريح شفوي لـ«أمنستي» الدولية عن المناطق التي تحتلها إسرائيل» (أمام بعثة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان) وقد وردت في نشرة «أمنستي» الدولية، إسرائيل والمناطق المحتلة: الأمور محط اهتمام «أمنستي» الدولية في 1988 (نيويورك، 1989).

(35) المؤتمر الصحفي لبوش (نيويورك تايمز، 23 / آب / 1990).

(36) خطاب بوش أمام الكونغرس (نيويورك تايمز، 12 / أيلول / 1990).

(37) يمكن الحصول على قرارات مجلس الأمن الدولي التي تم اتخاذها، من النشرة السنوية لقرارت وأحكام مجلس الأمن (هيئة الأمم، نيويورك).

(38) إن افتتاحية نيويورك تايمز في 19 كانون أول 1990. «إسرائيل والعراق، لا تترابطان» قد ذكرت أنه طالما كان العراق قد احتل الكويت من خلال اعتداء، بينما احتلت إسرائيل الضفة الغربية وغزة في حرب دفاع عن النفس، فليس هناك «توازي» بين الاحتلالين العراقي والإسرائيلي. ولكن مع ذلك فإن التوازي الأكثر أساسية أنهم كلاهما احتلال.

وحتى لو أقرّ المرء بالادّعاء المشكوك فيه بشدة بأن الضفة

الغربية وغزة قد احتلتا أثناء حرب دفاعية، فإن إسرائيل تظل لا تمتلك حقاً شرعياً بهما. وكما علّق Jennings في دراسته الكلاسيكية «إنه سيكون قانوناً عجيباً للدفاع عن النفس ذاك الذي يسمح للمدافع في أثناء دفاعه بأن يستولي على ويحتفظ بمصادرة ومناطق المهاجم» .(Acquisition of Territory, 55)

وفي الواقع، فلقد سلّمت إسرائيل ذاتها بهذه النقطة. وفي أعقاب حرب حزيران 1967 والاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وغزة، تبنّى مجلس الأمن قرار 242، وقد تم التصديق عليه رسمياً من الحكومة الإسرائيلية المسلحة» وفقاً لمبدأ -الموضوع في بداية فقرة المقدمة- «عدم جواز الاستيلاء على مناطق بالحرب». ونستذكر أكثر من ذلك إن الرئيس بوش قد استنجد بهذا المبدأ تحديداً لإدانة الاحتلال العراقي للكويت: «إن الاستيلاء على مناطق باستخدام القوة لا يمكن قبوله» (نيويورك تايمز، 9 / آب / 1990). من أجل الاطلاع على خلفية حرب حزيران 1967 وقرار مجلس الأمن رقم 242، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chap. 5.

(39) ذكرت نيويورك تايمز هذا القرار ذكراً عابراً بعد سنة من صدوره. (راجع عدد 23 كانون الأول 1987).

(40) فيما يتعلق بهذا الأمر، فإن إسرائيل معرضة لتهمة النفاق مثل الولايات المتحدة. لقد استنجدت إسرائيل مراراً وتكراراً بسلطة قرار الهيئة العامة رقم 181 والذي تبنّته في تشرين الثاني 1947، ويوصي القرار بتكوين دولتها. (وقد مرّ القرار بتأييد ثلاثة وثلاثين صوتاً، ومعارضة ثلاثة عشرة، وامتناع عشرة عن التصويت، ولم يكن ذلك بدون لوي ذراع ذات قيمة مارسته الولايات المتحدة). لقد أشار

إعلان الاستقلال الإسرائيلي إلى الشرعية التي منحت للدولة بواسطة قرار 181، وهكذا فعل القائد الصهيوني حاييم وايزمان، الذي اعتبره «منح للاستقلال». إسرائيل «الدولة الأولى التي تُعطى الميلاد بواسطة الأمم المتحدة». ولكن إسرائيل طالما استخفّت بالقرارات اللاحقة للهيئة العامة، التي بدت أنها تحكم بالقدر ذاته من السلطة -إن لم يكن أكثر- مثلاً، القرار الصادر في كانون الثاني 1989 والذي يدعو إلى تسوية على أساس قيام دولتين وإلى مؤتمر دولي للسلام، وقد صدر القرار بتأييد 151 ومعارضة 3 وامتناع صوت واحد.

(41)Middle East Watch (MEW), Needless Deaths in the Gulf War, (New York, 1991).

كل مراجع هذه الصفحات تعود لهذا التقرير، إلا إذا أُشير إلى غير ذلك.

(42)See Greenpeace International, On Impacy: Modern Warfare and the Environment – A Case Study of the Gulf War (London, 1991).

(43) إن دراسة (حركة السلام الأخضر Greenpace) التي تم الاستشهاد بها أعلاه، قد توصلت للاستنتاجات ذاتها تقريباً. لذلك فقد قيل إن «الائتلاف المتحالف» قد بقي «ضمن حدود قوانين الحرب كما هي موجودة». في الواقع فإن الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة كان قد امتُدِح لأنه قد قام «بجهد حقيقي لإنهاء واجبهم غير السار بأسرع ما يمكن» و«مهّدوا الطريق لمعايير إيجابية جديدة للسلوك الإنساني والعسكري».

ومن ناحية ثانية فقد أُدين العراق بسبب «الإرهاب الإنساني والتدمير الحاقد، وأكثره بانتهاك مباشر لكل المقاييس الفعلية للقانون

الدولي» و«الغدر» و«السلوك المشين» وإلى آخره. وإقراراً بالفضل، فقد طرحت Green Peace بالرغم من ذلك، إن اللاتوازن بين هجوم «التحالف» والانتصار «يدعو للتساؤل» حول كلٍّ من شرعية التدمير الذي تم توجيهه للعراق، واستيفاء القوانين الإنسانية بحصر السعة التدميرية لذلك النوع من الحرب الذي شُنَّ ضد العراق: وبالنتيجة، فقد يكون التحالف قد تصرّف بتطابق صارم مع نص القانون، ومع ذلك فقد شنوا حرباً لا أخلاقية.(المرجع السابق، 21، 135–36، 145–49)

(44) في إشارة إلى «رفض الهجمات على المدنيين، حتى لو كانت خلال حرب ناجحة للغاية فقط» فإن حركة السلام الأخضر قد اقترحت النقطة ذاتها تقريباً.(المرجع السابق، 145)

(45) في تقريرها On Impact، فإن Green Peace قد قدرت عدد القتلى من المدنيين العراقيين بما يتراوح بين 5000 و15000«10».

وفي تصحيح لاحق، انخفض الرقم وتم تقديره بما يتراوح بين 2500 إلى 3000 قتيل من المدنيين العراقيين من جراء الغارات الجوية.

(Green Peace, The Gulf War One Year Later: The Human Effects (London, 8 January 1992)).

(46) إن المعنى الدقيق «لمعدل الدقة» غير واضح. فقد أخبر أحد جنرالات جيش الولايات المتحدة حركة السلام الأخضر بأن «هناك قدر محدود من الخرافات بخصوص عدم إصابة الهدف. إننا الآن أحسن كثيراً بضرب نقاط الأهداف مما كان عليه الحال في الحرب العالمية الثانية وفيتنام، نحن نقبل الخطأ بضرب الهدف من ضمن 10–20 متراً، بخلاف ما كان عليه 100–200 متراً» (On Impact, 82). ومن ناحية ثانية فقد أوردت Middle East Watch بأنه وفقاً لقول

كولونيل سابق في جيش الولايات المتحدة، فإن القنابل غير الموجهة «كانت هي القنابل الحديدية البكماء ذاتها التي سقطت على برلين، بيونغ يايغ وهانوي»(MEW,Needless Dwaths, 115).

للاطلاع على قضايا متعلقة بهذا الأمر راجع (المرجع السابق، 113-14).

(47) في مقابلة مع أندرو وليسلي كوكبورن، فإن الكولونيل جون أ. واردن الثالث، القائد المفوض للاستراتيجية والمبادىء والخطط للقوات الجوية في الولايات المتحدة، والذي كان مسؤولاً عن التخطيط الاستراتيجي في أركان سلاح الجو، قد صرّح ببساطة بأن الأسلحة الدقيقة التوجيه لم تستخدم في البصرة، وما استخدم كان فقط القنابل البكماء. (محادثة شخصية)

(48) في تقرير حديث حول الأضرار الناتجة عن هجوم «التحالف» وعن العقوبات المستمرة، على حياة المدنيين العراقيين، صدر عن «فريق بحث دولي» في تشرين الأول 1991. بعنوان، الصحة والصالح العام في العراق بعد حرب الخليج. كانت النتائج الأساسية كالتالي: معدل وفيات الأطفال دون سن الخامسة كان أكبر بمقدار 380 بالمئة مما كان عليه قبل بداية أزمة الخليج، بارتفاع ما نسبته 27.8 إلى ما نسبته 104.4 وفاة من كل ألف حالة ولادة. كان هناك «مستوى كبير من سوء التغذية» للفئة العمرية بين سنة وسنتين، التي «عاشت معظم حياتها تحت ظروف الحرب، والاضطرابات، والعقوبات». كذلك فإن الأمراض التي تنتقل بالماء، ومن ضمنها التيفوئيد، أمراض المعدة، الكوليرا، كانت «وبائية». وكانت الخدمات الصحية تعمل «بمقدار يسير فقط مما كان عليه المستوى قبل

الأزمة». إن «أنظمة مولدات الطاقة المدمرة، والمستصلحة بالكاد» كان وسيظل لها «أثر سلبي بليغ» على «تنقية المياه ومعالجة المياه وعلى البنية التحتية للصحة العامة على العموم». كما أن «الكثير» من مياه العراق وخدمات تنقية المياه تعمل «بجزء يسير فقط مما كان عليه المستوى قبل الأزمة أو لا تعمل على الإطلاق». وإذا بقي الحال على ما هو عليه، «فإن كامل أنظمة معالجة المياه ونظام توصيل المياه ستتدهور إلى نقطة الانهيار». يتعرض «الأكثرية» من سكان العراق والذين يبلغ عددهم ثمانية عشر مليون نسمة مباشرة للأمراض التي تنتقل بالماء من خلال مصادر شربهم. كان الاقتصاد العراقي «مشلولاً على نحو عام جرّاء نقص المواد الخام، قطع الغيار، مصادر الطاقة، خدمات البنية التحتية والدخل العام». إن «مستوى التوتر» الذي مرّ به الأطفال العراقيين كان «الأعلى مما شاهده معدّو هذا التقرير خلال عشرة سنوات من البحث في القضايا المتعلقة بالنزاعات». إن الأمور «تفوق كثيراً المستويات التي توصل إليها الباحثون خلال بحثهم في موزامبيق، أوغندا، والسودان».

(International Study Team, Health and Welfare in Iraq after the Gulf War (New York, October 1991)).

(49) في نهاية الأسبوع الثاني من الهجوم على العراق، ادّعى الجنرال شورسكوف، القائد الأميريكي في الخليج، في تصريح صحفي بأن «لم تكن لدينا أبداً أية نية لتدمير جميع الطاقة الكهربائية العراقية، وذلك بسبب اهتمامنا من التأكيد بسلامة المدنيين، لقد شعرنا بأن علينا أن نترك بعض الطاقة الكهربائية عاملة، ولقد فعلنا ذلك». مع هذا، وكما أشارت (Middle East Watch)(Middle East Watch) فإن «هجمات التحالف قد استمرّت» –

ومن ضمن ذلك تدمير المولدين الهيدروليكيين العراقيي الرئيسيين- وقد حدث ذلك بعد تصريح الجنرال شوارسكوف، ولم يُضربا من قِبَل قاذفات «التحالف» حتى أوائل شهر شباط. في الواقع، لقد أورد شوارسكوف خلال الموجز الصحفي بأن 25 بالمئة من خدمات المولدات الكهربائية العراقية قد صيّرت «غير صالحة للعمل بتاتاً»، و50 بالمئة أخرى «حطمت» حتى الآن. ولكن في الوقت الذي انتهت فيه الهجمات الجوية، كان العراق قد خسر 95 بالمئة من سعة توليد الكهرباء مما كان عليه قبل الحرب.

(Middle East Watch, Needless Deaths, 10, 79, 186, 191)

راجع كذلك تقرير رويتر «العراقيون يتساءلون حول قصف محطة الطاقة في البصرة»، ويورد التقرير أنه بعد أن قُصفت محطة الطاقة الكبرى في جنوب العراق، فإن البصرة «أصبحت على شفا الغرق في أوساخها». وقد قُصفت محطة الطاقة بعد ذلك اثنا عشر مرة. وقد كانت «متعطلة عن العمل تماماً» بعد الهجوم الأول، وفقاً لما قاله المهندس المسؤول، «لهذا اعتقدنا أن الأمر انتهى، ولن يكون هناك هجمات تالية، ولكنهم عادوا وضربوا مرة أخرى وأخرى وأخرى». وقد أتت الغارة الأخيرة في 28 شباط، قبل نصف ساعة من وقف إطلاق النار. وفي ذلك الحين كانت المحطة عبارة عن «كومة خردة».

(Detroit Free Press, 27 January 1992)

لقد استشهدت Middle East Watch كذلك برئيس وفد الصليب الأحمر الذي أُرسل إلى العراق، والذي ذهب بالقول «أنا متأكد تماماً بأن ما من أحد من مخطّطي البنتاغون قد قدّر التأثير الذي كان سيتركه قصف الأنظمة الكهربائية على.. الصحة العامة» (MEW, Needless Deaths, 186).

لم يتم إيراد أي دليل بهذا الشأن، وبالنظر إلى السجل الذي تم جمعه بواسطة (MEW)، فإن هذه العبارة لا يمكن أن تُأخذ على محمل الجد.

(50) راجع: MEW, Needless Deaths, 191-92.

«أشارت مجموعة من ضباط سلاح الجو.. إلى أن استهداف البنية التحتية العراقية كان متعلقاً بالسعي من أجل «تسريع نتائج العقوبات». إن الكولونيل جون أ. واردن الثالث، القائد المفوض للاستراتيجية والمبادىء والتخطيط لسلاح الجو. قد أقر بأن شل أنظمة توليد الكهرباء العراقية «يعطينا فائدة بعيدة المدة». ولقد شرح هذا الأمر على النحو التالي صدّام حسين لا يستطيع أن يرمم كهرباءه. إنه بحاجة لمساعدة. إذا كان للائتلاف المنبثق عن الأمم المتحدة أهداف سياسية، فباستطاعته القول، «صدّام، عندما توافق على فعل تلك الأشياء، سنسمح لأشخاص بالذهاب وتصليح الكهرباء».

(51)Hague Convention (1907), Article 43, Section 3 (Military Authority over the Territory of the Hostile state).

(52) في الواقع، فإن الجملة الأولى من تقرير قَتْل لا لزوم له تجزم بأن الهدف من «الحملة العسكرية العالمية بقيادة الولايات المتحدة» كان «طرد العراق من الكويت» «1»، وهذا ببساطة بروباغاندا موجهة سخيفة إذ أن أدلةMEW ذاتها تدحض هذا الادّعاء بوضوح، ومع ذلك فقد أوردت أنه حتى في الليلة اللاحقة لإعلان راديو بغداد بأنه قد تم توجيه الأمر للفرق العسكرية بأن تغادر الكويت وتتحرك إلى المواقع التي كانت تحتلها قبل 1 آب 1990، فإن بغداد قد ظلت تُقصف بلا رحمة، وقد وصف أحد السكان الغارات بأنها «ليلة رعب

خلت من النوم» (255-256). للاطلاع على التفسير الأكثر معقولية بكثير هو أن الهدف الحقيقي للهجوم على العراق كان تشذيب حجم صدّام الذي «كانت استقلاليته القومية تهدد مصالح الولايات المتحدة»، راجع نعوم تشومسكي، إعاقة الديمقراطية، (نيويورك، 1992). الفصل 6 (الاقتباس من صفحة 211) ومن الخاتمة.

(صدرت ترجمة لهذا الكتاب عن مركز دراسات الوحدة العربية، أيلول 1990 (المترجم)).

(53) أرقام الإصابات بين العسكريين والمدنيين العراقيين مأخوذة من:

Michael Cranna, ed., The True Cost of Conflict «A Case Study in Estimating Casualties from War and Its Aftermathe: The Persian Gulf War», PSR Quarterly 3 (June 1993); and Green Peace, The Gulf War One Year Later.

إن أرقام الإصابات بين العسكريين والمدنيين العراقيين لم تتضمن هؤلاء الذين قُتلوا في أحداث العنف التي حدثت بعد الحرب وتقدّر بـ 35.000. أما أعداد الإصابات بين المدنيين الإسرائيليين فقد تضمنت حالة وفاة واحدة حدثت مباشرة بسبب صاروخ و12 حالة أخرى جراء أسباب غير مباشرة كالنوبات القلبية، وقتل سعودي واحد. وقد بلغت الإصابات بين المدنيين العراقيين 3500 وفاة من جراء تأثير مباشر للحرب، و111.000 وفاة من جراء التأثيرات المضادة للصحة بعد الحرب. الأرقام الأخرى أُخذت من:

MEW, Needless Deaths, and Green Peace, On Impact.

(54)Noam Chomsky, «Aftermath», Zeta, October 1991; Jonathan Schell, «A Terrible War But No Contest», Newsday, 20 January 1991, Cited in Green Peace, On Impact, 147.

للاطلاع على فكرة أن ذبح الناس في العالم الثالث هو الجانب السفلي للحضارة العربية، راجع:

Exterminate All the Brutes (New York, 1996).

حيث يلاحظ المؤلف Sevn Lindqvist بأن «فن القتل عن بعد قد أصبح اختصاصاً أوروبياً منذ وقت مبكر». وهنا يقتبس Lindqvist من ونستون تشرشل حيث قال محتفياً بما حدث في أواخر القرن التاسع عشر، إذ ذبح الأوروبيون أفارقة. (معركة أم درمان 1898، قُتل ثمانية وأربعون بريطانياً وفي المقابل قُتل أحد عشر ألف سوداني):

إن الحلقة الأخيرة من السلسلة الطويلة من تلك النزاعات الهائلة والتي فعلت عظمتها الجليلة الساطعة الكثير لتغليف الحرب بالرونق.. بالطبع علينا أن نفوز، بالطبع علينا أن نحشّهم.. لقد كانت مليئة بالإثارة الرائعة، لم تكن كالحرب العظمى. لم يكن أحد يتوقع أن يتم قتله.. لهذه الجماهير العظيمة التي شاركت.، في تلك الأيام الخوالي الخلية، كانت تلك عنصر لهوٍ فقط في لعبة بديعة.

ولكن تشرشل يقر كذلك «لقد بدت كميزة جائرة، أن نضرب بقسوة كهذه، في حين أنه لا يمكنه الرد». ويلاحظ Lindqvist هنا أنه بالنسبة لتشرشل فإن «المفهوم الحديث للشرف واللعبة العادلة لم يكن قد استبدل بعد بالفهم الحديث بأن التفوق التكنلوجي يوفر حقاً طبيعياً لإفناء العدو حتى عندما يكون غير قادر على الدفاع»(46-63). بالنظر على ضوء ذلك إلى الهجوم الإسرائيلي في نيسان 1996 على لبنان، وهو إعادةٌ مصغرة لمذبحة الخليج، علّق صحفي إسرائيلي، «بالضبط مثل حرب الخليج، تم سحق شريط من الأرض بدون أن يتكبد الطرف المهاجم أي خسائر» (داني رابينوتز، «التقارير المتلاعب بها للحرب عالية التقنية و«عناقيد الغضب»» هاآرتز، 18 نيسان

1996). كان يمكن له أن يضيف أنه وفقاً «للفهم الحديث» فإن رئيس الوزراء شمعون بيرس قد تباهى بفخر بأن إسرائيل لم تتكبد إصابة واحدة في أثناء المجزرة التي تركت ما يقارب المائتي قتيل لبناني.

(55) مستضيفين عجمي ووزير الخارجية السابق هنري كيسنجر كمتحدثين، فإن حملة جمع التبرعات التي ترأسها راذر كان صيتها سيئاً على الفور، بسبب الذم العراقي من كيسنجر إذ قال: «لا يمكنك أن تصدق أي شيء يقوله عربي»، وكذلك من ما قدمه عجمي من عذر يوازي ذلك بالإساءة «بأن يتم إعفاؤه من طقوس تناول الطعام مع بدوي»، للاطلاع على المناقشات، راجع:

Extra, October \ November 1992, and Norman G. Finkelstein, «A Replay to Henry Kissinger and Fouad Ajami», The Link, December 1992.

(56)Amnesty International, The Military Justice System in the Occupied Territories (New York, July 1991); B. Michael, Haaretz, 6 November 1987; B'Tselem (Israeli Center for Human Rights in the Occupied Territories), The Interrogation of Palestinians during the Intifada: Follow – up to March 1991 B'Teslem Report (Jerusalem, March 1992); Middle East Watch, Israeli Interrogation Methods under Fire after Death of Detained Palestinian (New York, March 1991); Stanley Cohen «Talking about Torture», Tikkun (November – December 1991).

لقد قدر كوهن، والذي شارك في وضع تقرير «بتسليم» عن التعذيب، أنه «في كل سنة فإن 60.000 على الأقل» من المعتقلين الفلسطينيين يعانون من شكل من أشكال التعذيب. وواضعاً جانباً «أغلبية السكان» والذين «يدل صمتهم على اطّلاع متقبّل» على تعذيب الفلسطينيين، فإن كوهن يشير إلى النفاق القريب للإسرائيليين المتحررين: «في معظم العالم الديمقراطي، فإن التعذيب قضية

جوهرية للأغلبية المتحررة.. ولكن في إسرائيل، فإن القطاع من المجتمع الذي يمكن أن يعتبر متحرراً، لا يلعب دوراً في الحملة ضد التعذيب.. إن الخطاب المتحرر في إسرائيل أقرب كثيراً لموقف الخطاب الرسمي مما يجب أن يكون عليه»، ويؤكد كوهن كذلك على التقصير الأخلاقي الفاضح من الإسرائيليين عموماً: «أريد أن أؤكد على المحيط الإسرائيلي تحديداً، فالأكثر أهمية هنا هو غياب أي خوف حقيقي من حرية التعبير.. إن خطوط الحريات المدنية سليمة على العموم.. إن الكوابح الأساسية للتعبير الحر الموجودة في المجتمعات الأخرى، -الخوف من أنك ستكون الثاني في الدور، بأنك ستعاقب أنت نفسك، ولهذا فمن التعقل أن تبقى صامتاً- هذه الكوابح غير موجودة هنا».

(«The Social Response to Torture», in Torture, Human Rights, Medical Ethics and the Case of Israel, ed. Neve Gorden and Ruchama Marton (London, 1995), 20, 23, 25).

للاطلاع على نتائج تحقيق، فريق تحقيق صحيفة التايمز (لندن) راجع تقرير «بتسليم»، التحقيق مع الفلسطينيين خلال االانتفاضة، الفصل الخامس. كان لاندو رئيساً سابقاً للمحكمة العليا، وكانت المهمة التي ترأسها مشحونة بالتحقيقات حول المزاعم بأن «الشين بيت» قد استخدمت العنف الجسدي لانتزاع الاعترافات. للاطلاع على مقتطفات من تقرير لاندو والتقويض اللامع لها، الذي قام به الأستاذ القانوني الإسرائيلي مردخاي كريمنتزر، راجع:

Israel Law Review (Spring – Summer 1989).

لقد قطعت إسرائيل شوطاً، وبلغت مبلغاً بسوء الصيت فيما يتعلق بقضية التعذيب. إن نقاشاً مستوفياً لهذا الموضوع سيتطلب بحثاً خاصاً مستقلاً، ولكن يكفي القول بأن تقرير لاندو كان، في تفاصيل

مداولاته (وحتى في أسلوب لغته)، منحدراً مباشرة عن تقرير (1995 Wuillaume Report). وقد شرعنت هذه التقارير التعذيب في ألمانيا والجزائر، على الترتيب. وللاطلاع على السابقة النازية راجع:

Ingo Müller, Hitler's Justice (Cambidge, 1991) 177-87.

وللسابقة الجزائرية، راجع:

Pierre Vidal – Naquet, La raison d'etat (Paris, 1962), 55-68.

إن النتائج التي توصلت إليها «أمنستي» الدولية و«بتسليم»، كان قد تم تأكيدها في حزيران 1994 بواسطة دراسة بحجم كتاب أعدتها Human Rights Watch \ Middle East، بعنوان، التعذيب.. عندما تحاول انتزاع اعترافات من فلسطينيين مشتبه بهم أمنياً أو معلومات عن شخص آخر؛ «إن إساءة معاملة الإسرائيليين للفلسطينيين تحت الاستجواب جديرة بالملاحظة بسبب العدد الضخم من الأشخاص الذين كانوا قد جربوها»؛ وكذلك «إن القيادة السياسية الإسرائيلية لا يمكنها الادّعاء بجهل حقيقة أن إساءة المعاملة هي العرف السائد في مراكز الاستجواب، إذ أن عدد الضحايا بالغ الضخامة، كما أن الإساءات منتظمة للغاية». ومما له دلالة هامة، أن الدراسة أضافت بأن إساءة المعاملة والتعذيب «قد استمرا على أسس منتظمة منذ أصبح اسحاق رابين رئيساً للوزراء – وحتى منذ أيلول 1993، عندما وقّعت الحكومة الحالية إعلان مبادىء على مفاوضات سلام إسرائيلية فلسطينية مع منظمة التحرير الفلسطينية». بصدد النقطة الأخيرة راجع تقرير «بتسليم» اللاحق، والصادر في تشرين الثاني 1994 بعنوان، التعذيب خلال الاستجواب: «على الرغم من التطورات السياسية الأخيرة في المنطقة، من الصعب أن نتبين أي تحسّن بما يتعلق بتلك الأمور. إن الاستعمال

المعتاد للتعذيب خلال استجواب الفلسطينيين مستمر». في الواقع، فإن «بتسليم» قد طرحت أنه مع الموافقة الظاهرة لمجلس الوزراء في تشرين الثاني على «أساليب إضافية من الضغط أثناء الاستجوابات مع الفلسطينيين» فالأمور قد ساءت. ورافضة «الادّعاءات المتكررة بأن «الضغط» قد استخدم ضد معتقلين بسبب الحاجة لمنع هجوم قاتل»، فإن «بتسليم» قد أوردت ملاحظة في تقريرها بأن تلك الادّعاءات هي «مجرّد ذريعة.. في الأغلبية الساحقة من الحالات التي تم بها تعذيب معتقلين». لاحظ الأمر ذات الصلة بأن «أمنستي» الدولية قد استبصرت أنه «بالرغم من أن المعتقلين يتعرضون للتعذيب على الأغلب على أساس مزعوم هو أنهم يكتمون معلومات» فإن الهدف الحقيقي هو لكي «يظهروا للمتشككين بأن نظام الحكم يمتلك الوسائل والنية لسحق المعارضين». إن الممارسات الإسرائيلية قد ساهمت بعد هذا الوقت بقاموس التعذيب. إن «تعليق الفلسطيني» وهو »تعذيب قاس« شامل، قد وصفته «أمنستي» بأنه «تعليق الضحية من المِعْصَمَيْن وهما خلف الظهر» مما يسبب «إجهاداً لا يُحتمل على مفصلي الكتفين، واللذين قد ينخلعا، ومن ثم يُغمى على الضحية عادةً بعد دقائق قليلة». لقد أوردت «أمنستي» أن «السلَف» لـ«تعليق الفلسطيني» كان «أساليب التعذيب المتطورة» والتي ابتُكرت في القرون الوسطى «ومن ضمنها الأسلوب المعروف في ألمانيا Aufziehen وفي أمكنة أخرى «ستراباندو» (ملك التعذيب)».

(الاسترياد: شكل قديم من أشكال التعذيب أو العقاب يُرفع فيه الشخص، بحبل مشدود إلى معصميه إلى عارضة خشبية ثم يُترك فجأة ليسقط على الأرض تقريباً (المورد) -المترجم-)

Duncan Forest, ed., for Amnesty International, Aglimpse of Hell (London, 1996), 21-22, 111-12, 16, 127).

(57) راجع ما كتبه الفيلسوف حاييم جوردون من جامعة بن غوريون:

«وفقاً لموشيه لاندو ولجنته، فإن التعذيب الوحشي والعنف الجسدي تجاه السجناء الفلسطينيين مسموح به -ولكن فقط لا تكذب بشأن ذلك في المحكمة!» («الشرور السياسية: شرعنت وحجبت السادية» in Toture, Human Rights, 17).

بإمكان المرء أن يستذكر هنا الإدانة الشنيعة التي حكمت بها المحكمة النازية على ضابط من الـ SS، ليس بسبب قتله ليهود، ولكن لعدة أشياء منها «التقاط وعرض صور للحوادث.. والتي كان من الممكن لها أن تعرّض أمن الرايخ لمخاطر كبيرة».

(Eenst Klee, Willi Dressen, and Volker Riess, eds., «The Good Old Doys» (New York, 1991), 196-207).

الفصل الرابع

لماذا هلّل الفلسطينيون لصواريخ سكود

«ولِمَ لا؟» أجاب كايد، وقد كان مرتبكاً أكثر مما كان منزعجاً من سؤالي. في الواقع بدا القليل من الفلسطينيين مدركين بأن التهليل لصواريخ سكود كان قضية «مثيرة للجدل». لدىَ وصولي إلى بيت ساحور بعد تدمير الخليج، ولدى اقترابي من منزل آل ميخائيل، أخذ أبو عيسى (حما سميرة) يومىء إلي بإشارة من شرفة المنزل بأن أصعد إليهم، وكانت الرغبة الملحة عند عيسى، بعد التحيات المعتادة، هي أن يصور قوساً واسعاً بالفضاء مُصدراً هسيساً كالصاروخ. أخذ كل من في الغرفة يضحك باستحسان، ثم أشرق وجه عيسى بابتسامة عريضة. كانت تلك واحدة من اللحظات القليلة خلال ذلك الصيف التي بدا فيها الناس خاليي البال بشكل حقيقي، ولو أنها كانت لحظات سريعة الزوال.

«إذن، لماذا هلّلت لصواريخ سكود؟» سألت كايد ثانية، وهو مهندس زراعي يعيش في مخيم الفوار قرب الخليل، وفي تلك الأثناء كان الجنود الإسرائيليين يقذفون عشوائياً قنابل الغاز المسيل للدموع

والقنابل الصوتية على البيوت بينما كانوا يعلنون حظر تجول آخر. كان كل من في بيت كايد يلتصق بالحائط ما عدا طفلة في الثالثة من عمرها، فقد جثمت على طرف النافذة وأخذت تصيح وهي تهز قبضتها «ارجموهم!». أجاب كايد أن هجمات سكود كانت هي المرة الأولى التي يرى الرعب في عيون الإسرائيليين. «أريد لهم أن يجربوا الخوف ذاته الذي سبّبوه لي». أما مروى ابنة موسى ذات الست سنوات فقد كانت «سعيدة بأن أطلق صدّام صواريخ على إسرائيل لأن إسرائيل قتلت الكثير منا، ووضعت «بابا» في السجن، وضربتنا»، وقد كان موسى قد عُذب وأُهين مرات متكررة، كما قد وُضع قيد الاعتقال الإداري عدة مرات، وكان من الواضح أن المرة الأخيرة هي بسبب استضافته لي في منزله.

ربما لم يكن «طعم الانتقام الحلو» أرفع الأحاسيس الإنسانية، ولكنه أيضاً ليس إحساساً يتفرد به الفلسطينيون. فلنأخذ بالاعتبار رد الفعل الأمريكي على القصف الياباني لبيرل هاربر يورد John Dower في كتابه War Without Mercy، «لقد أثار الهجوم الياباني المفاجىء غضباً يقارب الرغبة في الإبادة الجماعية بين الأمريكيين»، كما كان الأدميرال وليم هاسلي، قائد القوات في جنوب المحيط الهادي، يحشد رجاله تحت شعارات مثل «اقتل يابانيين، اقتل يابانيين، واقتل مزيداً من اليابانيين»، ولقد قطع الأدميرال على نفسه عهداً بعد بيرل هاربر بأن اللغة اليابانية سيتم التحدث بها بعد الحرب فقط في جهنّم. كما أن استطلاعات الرأي العام في ذلك الحين أشارت إلى أن ما يزيد عن واحد من كل عشرة أميريكيين يؤيدون بثبات «إبادة» اليابانيين كشعب، كذلك هناك نسبة مقاربة تؤيد إيقاع عقاب صارم بعد استسلام اليابانيين

(«العين بالعين»، «العقاب، العذاب» إلخ)، إن القصف بالقنابل الذي تعرضت له طوكيو في آذار من العام 1945 والذي خلّف مئة ألف مدني قتيل -وعلى حد تعبير العقل المدبر للاستراتيجية الجديدة الجنرال Curts Lemay «اصطلوا واغلوا وانخبزوا حتى الموت»- كما خلّف ما يزيد عن المليون من المشردين، لم يستثر ذلك القصف «أي احتجاج جدي» وفقاً لما يقول Dower، حتى أنه لم يكن هناك «همهمة بالاحتجاج في الجبهة الداخلية» لترافق غارات الحلفاء الجوية، ولنستشهد هنا بما قاله المستشار الرئيسي لماك آرثر: «لقد كانت واحدة من أقسى عمليات القتل وأكثرها بربرية لغير المحاربين على مرّ التاريخ، وقد تم قبولها بشكل واسع على أنها عقاب عادل».

كما أن إليوت روزفلت، ابن الرئيس وموضع سرّه، قد نصح في العام 1945 بأن على الولايات المتحدة أن تستمر بقصف اليابان «حتى نكون قد دمّرنا ما يقرب عن نصف السكان المدنيين اليابانيين» وفي الاستطلاع الذي قامت به مجلة فورتشن في كانون الأول من العام 1945، تمنى ربع ممن استجابوا للاستطلاع بأن الولايات المتحدة قد وافتها الفرصة لأن تستخدم «أكثر كثيراً» من القنابل الذرية قبل استسلام اليابان[1].

II

احتجّ ناصر قائلاً: «لا يمكنك أن تلومنا على التهليل للصواريخ بينما تقوم إسرائيل بتعذيبنا»، كنا نجلس في مركز إعادة تأهيل للشباب الفلسطينيين الذين قد أصيبوا بإعاقات دائمة من جراء الضرب أو من رصاص الجنود الإسرائيليين، وقد كان ناصر يديره، وقال: «إنه ليس ذنبنا أن نكره الإسرائيليين، إنه ذنبهم». إن الاستجابة «المقبولة سياسياً» هنا هي أن المواطنين الإسرائيليين

يجب ألاّ يُعتبروا مسؤولين عن جرائم دولة إسرائيل. ولكنها أيضاً كانت بوجهة نظري استجابة باطلة سياسياً.

إن المسؤولية الجماعية هي مفهوم معروف بعدم دقته، مع هذا فهناك ثلاثة نقاط من ضمن ذلك الطيف يمكن أن تتحدد وهي أقل قابلية للجدل. في أحد الأطراف القصوى، هناك الديكتاتورية حيث المواطنين لا يملكون حولاً في سياسة الدولة، أو أنهم يتعرضون لمخاطر شخصية جمة إن تدخلوا، وفي الوسط تقع الديمقراطية التمثيلية والتي يمكن للمواطنين بها أن يشكلوا سياسة الدولة، ومن الممكن ألا يفعلوا ذلك في الواقع، ولكن الوسائل موجودة إذا اختاروا ذلك.

وفي الطرف الأقصى الآخر تقع الدولة الديمقراطية التي يشترك بها كل المواطنين فعلياً، بالإضافة إلى التأثير على سياسة الدولة، في التعبئة لتنفيذ الأداء السياسي، وأحد الأمثلة هي الدولة الديمقراطية التي لها جيش شعبي من المواطنين المجندين. ولدى التحرك خلال هذا الطيف، من الطرف الأقصى الأول إلى الطرف الأخير، فإن المسؤولية الجماعية تزداد بوضوح. فلنأخذ الآن إسرائيل بالاعتبار، والتي تقع، وهذا قابل للنقاش، في الطرف الديمقراطي الأقصى الأخير من الطيف.

خلافاً للاعتقاد السائد، فإن المواطنين الإسرائيليين عموماً قد دعموا أكثر الإجراءات قمعاً من تلك التي طُبِّقت ضد الفلسطينيين. فعندما كانت إسرائيل تعيث خراباً في لبنان في حزيران 1982، وجدت استطلاعات الرأي العام أن شعبية أريئيل شارون قد ارتفعت إلى ما نسبته 56 في المئة من المستجيبين للاستطلاع واصفينه بأنه «أكثر المناسبين ليكون وزير دفاع». (وقد ازدادت النسبة 14 نقطة عن شهر

أيار السابق)، كما أن شعبية بيغن قد وصلت 51 في المئة، ووصف على أنه «أكثر المناسبين ليكون رئيس وزراء» (وقد ازدادت النسبة 11 نقطة عن شهر أيار السابق)، كما رأى أكثر من ثمانين بالمئة من المستجيبين للاستطلاع بأن الاجتياح مبرر تماماً. حتى أنه وبينما كانت إسرائيل تدك بيروت في منتصف شهر آب 1982 وتصل إلى مستويات أكبر من الوحشية، فإن الاستطلاعات استمرت تُظهِر بأن أكثر من نصف الإسرائيليين سيصوتون لحكومة بيغن - شارون، كما أن ما يزيد عن نسبة الثمانين بالمئة مازالت تدعم اجتياح لبنان. وفقط عندما بدأت التكاليف المحلية تزداد إلى مستويات شاقة، أولاً بسبب السخط العالمي على مذابح صبرا وشاتيلا، والذي هدد بعزل إسرائيل دولياً، وثانياً بسبب الخسائر العسكرية المتصاعدة والخسائر في الأرواح، فقط بعد هذا بدأ الإسرائيليون يعارضون اجتياح لبنان. وشبيه بذلك أنه وبينما كان القمع الإسرائيلي للانتفاضة يصل إلى مستويات جديدة من الوحشية في منتصف العام 1989، فقد وجد استطلاع للرأي العام بأن ما يزيد عن سبعين بالمئة من الإسرائيليين يعتقدون بأن ليس هناك تعارضاً بين طريقة الجيش في معالجة التمرد وبين «القيم الديمقراطية للأمة»، كما يعتقد ما يزيد عن النصف بأن على الجيش أن يتوسع في «إجراءات أشد» لإخماد التمرد الفلسطيني السلمي الهائل، بينما أيّد ربع المستجيبين للاستطلاع فقط، بعض التخفيف في مستويات العنف الإسرائيلي.

في الواقع، لقد كانت المعارضة الشعبية الصغيرة للسياسات الإسرائيلية الإجرامية، رمزية بصورة كبيرة. فبالرجوع إلى حركة السلام الآن، الحركة المعارضة الأساسية، فإن الجنرال (احتياط) ماتيتاهو بيليد، وهو ناشط سياسي وبروفيسور في الأدب العربي في

جامعة تل أبيب، قد علّق قائلاً: «إنه من أسوأ ما حصل لنا على الإطلاق» ويتابع قائلاً:

إن الأشخاص اللطيفين في إسرائيل والذين يشعرون بعدم الرضا عن الوضع، ولكنهم غير مستعدين لفعل أي شيء بصدده، يجتمعون معاً مرتين أو ثلاث مرات في السنة، وكما يقول المثل الدارج هنا، يضعون ضمائرهم في الغسالة ويستعيدونها نظيفة ثم يعودون إلى بيوتهم سعداء راضين، ليس هناك ما هو أكثر من ذلك، إنهم يقفون في مظاهرة ويصرخون ببعض الشعارات ويعودون لبيوتهم مقتنعين بأنهم أدوا العمل. ولكنهم ليسوا مستعدين لأن يهزّوا النظام، لذلك فكل هذا عبارة عن بديل عن الفعل الحقيقي[2].

مع كل ذلك فعلى الإسرائيليين أن يتحملوا ليس فقط المسؤولية التي تقع على المواطنين في الدولة الديمقراطية التي تقوم بسياسات إجرامية، ولكن أيضاً الحصة الأكبر بكثير من المسؤولية التي تقع على المواطنين المعبئين، والذين يطبقون مباشرة السياسات الإجرامية لدولة ديمقراطية. ولقد أسهب الصحافي الإسرائيلي آري شافيت بالحديث عن هذه النقطة الجوهرية بصراحة نادرة ونفاذ بصيرة، وقد قال مستعيراً الفترة التي أمضاها كحارس في شاطىء غزة، «واحد من أحسن» معسكرات الاعتقال الإسرائيلية للفلسطينيين:

أكثر الفلسطينيين هنا ينتظرون المحاكمة، أكثرهم قد اعتقلوا بسبب إلقاء الحجارة، وأنه قد قيل عنهم أنهم أعضاء في منظمات غير مشروعة، الكثير من المراهقين، وبينهم هنا وهناك بعض الأولاد الصغار الذين يظهر بأنهم في أعمار صغيرة للغاية.. في السجن هناك اثني عشر برجاً للحراس، ولقد صعق بعض الجنود

الإسرائيليين -واهتزوا بشدة- من التشابه بين هذه الأبراج وأبراج أخرى معينة قد تعلموا عنها في المدارس.. إن التشبيه غير العادل مع تلك المعسكرات التي كانت قبل خمسين سنة لن يذهب أبداً.. وأنا أيضاً وقد كنت أشمئزّ دائماً من ذلك التشبيه، وكنت أتجادل بشدة مع كل من يلمّح إلى هذا التشابه، أنا لم أعد أستطيع أن أمنع نفسي، إذ أن الروابط في غاية القوة.. ومثل مؤمن أخذ إيمانه بالتصدع، فقد أخذت أراجع في ذهني مرات ومرات القائمة الطويلة من الحجج، وقائمة الاختلافات.. ولكنه تبين لي أخيراً أن المشكلة ليست بالتشابه -لأنه لا أحد يستطيع أن يفكر جدياً بأن هناك تشابهاً حقيقياً -ولكن ليس هناك نقص كافٍ في التشابه. المشكلة هي أن نقص التشابه ليس قوياً بما يكفي لإسكات، مرة وللأبد، الأصداء الشريرة والصور الاتهامية. ربما تكون «الشين بيت» هي الملامة على ذلك -بسبب الاعتقالات التي تجريها ولما تفعله لهؤلاء في المعتقل- إذ أنه في كل ليلة، وبعد أن تتدبر في استجواباتها «بكسر» عدد معين من الفتيان، فإن «الشين بيت» تسلّم للجنود قائمة بأسماء أصدقاء هؤلاء الفتيان.. ثم فإن الجنود.. يقومون بالخروج كل ليلة تقريباً إلى المدينة و.. يعودون بأطفال في عمر الخامسة عشرة والسادسة عشرة، يكون الأطفال يصرون على أسنانهم، وتجحظ عيونهم من محاجرها، وبكثير من الحالات يكون قد تم ضربهم.. ثم يتجمع الجنود معاً في «غرفة الاستقبال» ليشاهدوهم عندما تتم تعريتهم، ويشاهدوهم وهم في ملابسهم الداخلية، ليشاهدوهم وهم يرتعدون من الخوف، وأحياناً يقومون بركلهم -ركلة أخرى، قبل أن يتم وضعهم في ملابس السجن.. أو ربما الطبيب هو الذي يلام، إذ نوقظه في منتصف الليل ليعالج أحد هؤلاء الذين أحضروا للتو- فتىً حافي القدمين، مجروحاً،

والذي يبدو وكأنه يعاني من نوبة صرع، ويقول إنهم ضربوه الآن على ظهره وبطنه وعلى قلبه، هناك علامات حمراء بشعة على كل جسده، يذهب الطبيب إلى الفتى ويصرخ به بصوت عالٍ وغاضب ويقول: أتمنى أن تموت! ثم يتحدث إلي ويقول ضاحكاً: أتمنى أن يموتوا جميعاً! أو ربما الصرخات هي التي تلام، ففي نهاية نوبة الحراسة.. فإنك أحياناً تسمع صرخات مخيفة.. في الجانب الآخر من.. سياج قسم التحقيق.. صرخات يقف لها شعر الرأس.. توقف شعر الرأس، حرفياً.. لهذا ففي غزة، فإن جهاز الأمن العام الذي يخصنا يعادل بوليساً سرياً، ومرافق الاعتقال تصبح بحق Gulags، وجنودنا سجانين، ومحققونا معذِّبين (بكسر الذال)، في غزة الأمر واضح ومباشر، ليس هناك مكان للاختباء.

كذلك من هم هؤلاء «السجانين» و«المعذِّبين»؟ يتابع شافيت في وصفه ويقول:

أنا هنا أقوم بواجبي في إعادة الخدمة السنوية، مثل أي رجل إسرائيلي آخر(*).. ما يحدث هنا أن كل سكاننا من الذين يعيدون الخدمة السنوية -موظفو البنوك، وكلاء التأمين، المهندسون، الإلكترونيون، الفنيون، البائعون، الطلاب- يقومون بتنفيذ مهمة سجن شعب أخر بكامله، شعبهم -عمال التبليط، عمال القصارة، عمال المختبرات، الصحفيون، رجال الدين، الطلاب-، وهذا شيء لا يوازيه شيء آخر في أي جزء من عالم اليوم مما يُنظر إليه باحترام، وأنتم

(*) عموماً، فإن الإسرائيليين اليهود ما بين الثامنة عشرة وواحد وعشرين سنة يخدمون لسنتين أو ثلاث في القوات المسحة، ثم يقوم الإسرائيليون الذكور بالخدمة الفعلية لمدة اثنين وستين يوماً على الأقل في معداتهم حتى سن الخامسة والخمسين، ويمضون في الخدمة العسكرية تسع سنوات مجتمعة. (ملاحظة من المؤلف).

شركاء فيه، أنتم تستجيبون.. هناك واحد فقط من كل ستين منا يرفض أداء واجب الحارس في قسم التحقيق، أربعة أو خمسة فقط يبدو عليهم الانزعاج، وأكثر الباقين يعتادون على ذلك بسرعة كبيرة.. وهؤلاء الناس، أصدقاؤكم من الإسرائيليين العاديين.. هؤلاء الناس الطيبون والذين هم مواطنون مخلصون.. يخضعون هنا، بدون أدنى صعوبة، إلى التغيير الجذري الصامت في شخصيتهم والمطلوب منهم.. لقد قمت بحسبة سريعة، وقد قدّرت أن عدة مئات من الشباب على الأقل، يقومون سنوياً بأداء الخدمة العسكرية في معسكر الاعتقال هذا، ولهذا ففي كل المعسكرات التي من هذا النوع، فإن عدد الذين يعيدون الخدمة السنوية يجب أن يعادل عدة آلاف على الأقل. وبهذا ففي الشهور الأربعين من الانتفاضة، يكون ما يزيد عن عشرة آلاف مواطن إسرائيلي قد مشوا في اللباس العسكري بين هذه الأسيجة، واستمعوا للصرخات، وشاهدوا الفتيان الصغار يُقتادون داخلاً وخارجاً. إن واحدا من كل مئة رجل إسرائيلي قد كان هنا (أو ربما واحد من كل سبعين، أو واحد من كل خمسين)، والبلد كان هادئاً وكان يزدهر.. عشرة آلاف (إن لم يكن خمسة عشر ألفاً، وإن لم يكن عشرين ألف) إسرائيلي قد أدّوا عملهم بإخلاص -فتحوا البوابات الحديدية الثقيلة لزنازين الحبس الانفرادي ثم أغلقوها، قد ساقوا رجلاً من غرفة التحقيق إلى العيادة، ومن العيادة رجوعاً إلى غرفة التحقيق، لقد شاهدوا عن قرب أناساً يتغوّطون من الرعب ويبولون من الخوف، ولم يبدأ أحد منهم إضراباً عن الطعام أمام منزل رئيس الوزراء، ليس هناك أحد ممن أعرفهم قال هذا يجب ألا يحدث، ليس في دولة يهودية[3].

لقد ادّعى أعضاء حركة السلام الآن، والتجمعات ذات الميول

المشابهة في «معسكر السلام» الإسرائيلي إنهم وبينما كانوا يؤدون الخدمة في لبنان والمناطق المحتلة، كانوا على أية حال، ممتلئين باللوعة، مع هذا فمن الواضح أن كيفية شعور الشخص ذات أهمية ثانوية بالنسبة لأهمية أفعاله: فالقاتل يظل قاتلاً إذا كان يقتل بقلب قاسٍ أو يقتل بقلب رقيق، هذا النفاق لم ينطلِ على الجميع، فلقد صرح يهودا يعاري محرر جريدة كيبوتس رفيع الشأن أنه ينوي أن «يهاجر من إسرائيل غداً»، كما قد نشر هجوماً مريراً على ازدواجية حركة السلام الآن والتي، على حد قوله، تقرن أرفع الأفكار مع أحط الأفعال. ويقول يعاري:

أنا أهاجر لأن حركة السلام الآن تخدم إيريك شارون.. إنهم يلمّعون أبواقهم، ويؤدون دور قادة كتيبة في مهمة قمعية، ثم يحاضرون بصلاح ونفاق أمام حشدهم المعتاد من بضعة آلاف شخص، .. عندما يتلقون أمراً بتفريق تجمعات الفلسطينيين أن بسجن مئات الألوف في بيوتهم، فإنهم يطيعون الأمر باسم الديمقراطية -التي هي تناسب شعباً وغير ضرورية لشعب آخر. وباسم أمن إسرائيل،.. يقومون بتدمير بيت عائلة كاملة، حتى ولو كان أحد أعضائها فقط مشتبهاً بشيء ما، تاركين أطفالاً وزوجة وأبوين مسنين خارجاً في العراء. بين اجتماع حاشد وآخر، بين شعار وآخر، بين خطبة عظيمة وأخرى.. يقومون باقتلاع الأشجار ويوقظون الأطفال النائمين[4].

يجب كذلك أن نبقي بالبال ذلك اللاتناسق بين وضع الفلسطينيين ووضع الإسرائيليين، فأسوأ ما يمكن قوله عن الفلسطينيين أنهم كانوا يهللون بينما كان الآخرون يطلقون الأسلحة القاتلة على إسرائيل، وأحسن ما يمكن أن يقال عن الإسرائيليين أنهم يشعرون باللوعة وهم أنفسهم يطلقون الأسلحة القاتلة على

الفلسطينيين، إن «الحالة الأسوأ» للفلسطينيين تبدو قانونياً وأخلاقياً أقل جدارة باللوم من «الحالة الأحسن» للإسرائيليين.

حركة السلام الآن وحركة حقوق المواطنين ذات النزعة «اليسارية»، إذ تعارضان بشدة «رفض الأوامر»، تختار أنه إذا تمّت دعوة الإسرائيليين للخدمة في الجيش فعليهم أن يلبوا ذلك، وأحد الأسباب التي يبسطها يوسي ساريد قائد حركة حقوق المواطنين و«معسكر السلام» عموماً كان «هؤلاء المنخرطين بحركات السلام» أقل قابلية لأن يرتكبوا أعمالاً إجرامية خلال أدائهم للخدمة العسكرية. وبالرغم من ذلك، فإن مراقباً إسرائيلياً قد علّق قائلاً، إن أكثر المائة وأربعين طفلاً فلسطينياً الذين قُتلوا بالرصاص أثناء الانتفاضة، لم يكونوا ضحايا الحقد، بل ضحايا «الجنود الجيدين الذين يطبقون قواعد الاشتباك بوسوسة ودقة». إن السبب الجذري لإراقة الدماء هو «حضور الجيش في القرى والبلدات مع النية المعلنة بقمع الانتفاضة الشعبية للشعب الذي تحت الاحتلال». إن حضوراً كهذا «يضمن بأن نساءً وأطفالاً وفتياناً ومسنين سوف يتم قتلهم بالجملة. إن الأمور على هذه الشاكلة، وعلى المرء أن ينضم أو أن يرفض». لقد أشار يوسي ساريد وهو يطفح بالاشمئزاز من منظر الفلسطينيين «يصرخون كالمجاذيب «الله وأكبر» بينما صواريخ سكود المخيفة تسقط فوق رؤوسنا»، ويشي ساريد إلى تناقض معبراً: «عندما تقتل طلقة طائشة أحد أطفالهم، فإنها أيضاً تدمي قلوبنا، ولكن عندما يُطلق صاروخ عمداً على أطفالنا، فإنه يملأ قلوبهم بالفرح»، إنه ليس من المؤكد أن الفلسطينيين الذين «صرخوا كالمجاذيب» كانوا مبتهجين من فكرة مقتل الأطفال الإسرائيليين، ولكن من المؤكد مع ذلك، هو أن ساريد بعدم إقراره للحق برفض الخدمة

العسكرية فإنه (ومثله التيار الإسرائيلي الأساسي في «معسكر السلام» على العموم) قد أقر قتل الأطفال الفلسطينيين، وإن يكن بقلب ملتاع[5].

إن العرض العام للّوعة أثناء أداء الواجب الشاق والمحدد هو تطبيق من أجل تبرير الذات وتبرئة الذات: أنا أعاني، إذن أنا جيد. والأثر النهائي غير المعترف فيه هو كي يصنعوا قاتلاً أكثر فعالية، إذ أنه يصبح قاتلاً بضمير مرتاح. في الواقع، وكما أظهرنا في مكان آخر، فقد كان النازيون خبراء بشكل خاص في هذا النوع من العروض الشعائرية. وبالرغم من ذلك لم يتم تضليل كل الإسرائيليين بهذا التدفق للقلق النفسي المتلاعب بالمشاعر، ولم يكن كل الإسرائيليين غير واعين للهدف الشرير الذي تخدمه تلك المشاعر. لقد وصف الفيلسوف افيشاي مارقاليت تلك العروض بأنها نوع من أدب سَقْط المتاع السخيف، ويذهب إلى القول بأن أدب «إطلاق النار والبكاء» الذي تكاثر في إسرائيل بعد حرب حزيران 1967 هو عاطفة «لتبرير الذات» ويمكن أن تكون «شريرة»: إذ أنها تحوّل «الجنود المقاتلين إلى أشياء كاملة البراءة» ويصبح «العدو أكثر استحقاقاً للعقاب الصارم»، وبسّط كاتب إسرائيلي آخر الحالة النموذجية للجنرال عمرام ميتزنا، والذي جعلته وسامته الممزوجة بنظراته الحزينة مفضلاً بين اليهود الإسرائيليين (واليهود الأميريكيين)، فأثناء إشرافه على أسوأ الفظائع الإسرائيلية خلال الانتفاضة، كان ميتزنا «بارع جداً عندما يصل الأمر إلى وضع تعبير المفجوع وتقليب عينيه كشخص يقوم بأداء مهمة صعبة لبلده العاق»، «بالرغم من المصاعب العاطفية الشديدة الداخلة في أداء المهمة فإن ميتزنا يُبقي شفته العليا مزمومة ويظل ثابتاً.. وفي كل مرة يصاب بها فلسطيني برصاصة في ظهره، يأخذ بذرف الدموع،

وفي كل مرة يُقتل بها فلسطيني، يقوم بإلقاء عظة عن استقامته الأخلاقية والتي، بسبب الواقع المر، لا يمكن لها إلا أن تتلطخ» ثم يخرج الكاتب بنتيجة «إن هذا العرض المسرحي بكامله بغيض جداً ومليء بالنفاق وركيك، لدرجة أنه يدفعك بالنهاية لأن ترغب بالذهاب إلى ميتزنا ودعوته لمواجهة المعضلة بحسم: هل تريد أن تطلق الرصاص أم تريد أن تبكي؟، من الصحيح أنه على الجنرال أن ينفّذ أوامر القيادة السياسية، ولكنه يظل لديه الخيار، إذ كونه يستطيع أن يستقيل، وإذا فعل ذلك فإنه ينهي مسؤوليته عن إطلاق الرصاص في الظهر على الأطفال، وعن الوحشية والإذلال والمضايقة والتعذيب الجسدي والنفسي.. فقط لا تدعوه يرسل لنا أناساً يهمسون لنا بأنه أحسن الموجودين، وأنه إذا ترك الخدمة، فإن قاتلاً حقيقياً سيحل في مكانه، إن «القتلة» الذين وصلوا لهذا المنصب مع سجل سيء، هم بالعادة أكثر حذراً بكثير من هؤلاء الذين من المفترض أنهم «واحد منا» كذلك فإنهم على الأقل لا يلطخّون الصورة بدموع التماسيح»[6].

إن المزاج الإسرائيلي العام الملتاع قد تم احتضانه من وسائل الإعلام الأميركية، سهلة الانخداع عن قصد، لذلك فإن «مشكلة صورة إسرائيل» التي لا تنتهي قد بقيت تحت حدود التحكم. فبعد مذابح صبرا وشاتيلا، طلعت صحيفة نيويورك تايمز بعنوان رئيسي «إسرائيل تتعذب». كما ظهر عنوان ثانوي، «لوعة اليهود الأميركيين»، بينما عالج تقرير داخلي موضوع «روح إسرائيل المضطربة». وعندما كانت إسرائيل تطلق العنان لموجة غير مسبوقة من القمع الوحشي لكي تسحق النشاطات الأولى من الانتفاضة، صدرت صحيفة نيويورك تايمز بعنوان رئيسي «التكتيكات الإسرائيلية العنيفة الجديدة توقع الخسائر في الجانبين»، كما ظهر قسم مرجع الكتب في الصحيفة

ذاتها مزركشاً على الصفحة الأولى بعنوان كتاب «اللوعة في إسرائيل»[7].

عندما وُجّه سؤال لشلوميت الوني قائدة حركة حقوق المواطنين عما إذا كانت قد خُذلت برد الفعل الفلسطيني على أزمة الخليج أجابت:

لماذا علي أن أكون محبطة؟ هل فعلت أنا أي شيء من أجلهم؟ هل فعل اليسار الإسرائيلي أي شيء من أجلهم؟ إن اليسار الإسرائيلي عبارة عن مواطنين إسرائيليين مخلصين، يدعمون المؤسسة ويؤيدون النظام الأمني، أحياناً نظن بأننا نختلف، ولكن في واقع الأمر فإننا لم نفعل شيئاً لقد استمرت الحكومة في السيطرة على المناطق المحتلة - وقمعت حقوق الإنسان، ودمرت وقتلت- ونحن حصة في ذلك، لأننا لم نتمرد، لقد أطعنا القوانين، لقد خدمنا في الجيش.. باختصار، نحن تمسكنا بقوانين اللعبة الديمقراطية، وكذلك نحن شركاء.. كلنا، نحن عبارة عن ورقة التوت لديمقراطية إسرائيل.. ليس على الفلسطينيين 0أي التزام نحونا، نحن لم نفعل لهم شيئاً وهم ليسوا مدينين بأي شيء لنا[8].

III

لكي يشرح سبب تهليل الفلسطينيين، أكد موسى على تصاعد الوحشية من قبل الاحتلال، وأخذ يستذكر بأنه لا هو ولا أصدقاءه قد أيدوا الهجمات على المدنيين الإسرائيليين. ومع هذا ففي أثناء الأشهر الرهيبة التي تبعت الاجتياح العراقي للكويت، يعترف موسى، فإن الموقف قد تبدل، فعندما ضيّقت إسرائيل قبضتها على المناطق المحتلة وبقي سائر العالم صامتاً، بل مؤيداً فإن الكراهية التي تراكمت لدى الفلسطينيين تبلورت في توق الانتقام.

إن أسوأ الإجراءات كان حظر التجول المديد المفروض بالقوة، فقد أصبحت الضفة الغربية وغزة، على حد تعبير صحفي إسرائيلي «معسكر اعتقال ضخم»، لقد احتُجز معظم الفلسطينيين في بيوتهم لمدة خمسة وأربعين يوماً كاملة، مع رفع الحظر لمدة ساعتين أو ثلاث فقط كل ثلاثة أو أربعة أيام، وفي غزة كان الحظر يرفع مرة واحدة فقط في الأسبوع ولمدة ساعتين، وسُمح للنساء فقط بمغادرة البيوت، أما مخيم الدهيشة فقد أُخضِع لحظر التجول لما يقارب مائة يوم مستمرة. اعتبر موسى أن حظر التجول ظلم صارخ، مشيراً إلى الهدوء الذي كان يسود في الفترات المتقطعة التي كان يرفع بها الحظر، ويتفق معه بالرأي ميرون بينفنيستي ويقول: «إنه لا يمكن للاعتبارات الأمنية أن تبرر» حظر التجول والقمع المرافق له: «يعرف الجميع ومن دون شك بأن الحكومة تفرض عقوبات جماعية كرد فعل على دعم الفلسطينيين لصدّام حسين». حتى في فترات الراحة المؤقتة من الحظر، كان الفلسطينيون يُمنعون من التنقل من منطقة إلى أخرى بدون إذن خاص، قال أحد مؤيدي تكتل الليكود اليميني، واصفاً التنقل عبر المناطق بأنه «العبور من بوابات الجحيم السبع» إن الجنود الذين كانوا يؤدون الخدمة معه في الضفة الغربية «كانوا مفعمين بالكراهية، إذ أنهم فعلوا كل ما في وسعهم ليقوموا بالمضايقة والإذلال».

لقد تم احتجاز الفلسطينيين الحائزين على الإذن بالتنقل لمدة ساعات في المرة الواحدة على الحواجز الأمنية، بينما كان الجنود «قد أمروا السائقين بفك مقاعد السيارات وإخراج الإطار الاحتياطي والاستماع إلى أشرطة الكاسيت واحداً تلو الآخر»[9].

مع أمر المؤسسات التعليمية بالإغلاق، فإن السنة الدراسية للفلسطينيين قد اختُصرت بشكل كبير وللمرة الرابعة كما في السنوات

الأخرى. (تابعت المدارس الإسرائيلية العمل ببرنامج جزئي في الأسبوع الثاني للحرب، ثم بدوام كامل بعد ذلك بفترة قصيرة)، كما انهارت الخدمات الصحية، فبسبب حظر التجول لم يستطع مستخدمو القطاع الصحي الفلسطينيون الوصول إلى أمكنة عملهم، ولم يستطع الفلسطينيون الذين هم بحاجة لعناية طبية أن يستدعوا سيارة إسعاف أو أن يقودوا سياراتهم إلى المستشفى. وقد كان الجنود الذين في الخدمة يعيدون بشكل روتيني الفلسطينيين الحائزين على إذن تنقل سعياً للعلاج الطبي ويتشككون من أنهم مرضى فعلاً، يتأمل الليكودي ذاته «إلى أي وضع وصلنا، عندما يقوم الجنود البسطاء بتشخيص الحالة الصحية للسكان؟» وأيضاً «عندما تم الإمساك بطبيب عند حاجز أمني أثناء حظر التجول، وجعلوه يقف ويداه مرفوعتان ومستندتان إلى الحائط لمدة ساعة ونصف إلى أن قرروا ما يفعلون بشأنه». لقد سجّل مستشفى المقاصد في القدس مائة وخمسين حالة ولادة فقط في فترة حظر التجول المديد، في حين أن المعدل في الشهور العادية هو خمسمائة حالة[10].

كان النشاط الاقتصادي قد تقهقر إلى الحضيض، فالعمال المستخدمون في إسرائيل وكذلك في الصناعة المحلية، لم يتمكنوا من السفر إلى أماكن عملهم، ولم يتمكن المزارعون من جني محاصيلهم، ولقد قُدّر معدل الخسائر اليومية أثناء حظر التجول، بما يزيد عن الخمسة ملايين دولار يومياً في الضفة الغربية وغزة. لقد كان الهم الأكبر لموسى عائلته في مخيم الفوار، إذ إنه لعدم تمكن أحد من العمل فإنهم لم يملكوا مالاً حتى لشراء الطحين. وكانت الأوضاع تقترب من الكارثة، وقال الصحفيون الإسرائيليون «إن بعض المسؤولين الكبار، وإن كانوا لا يسعون إلى تجويع الفلسطينيين حتى الموت، فإنهم

مستعدون لترك الجائعين لرحمة الله، حتى إن موكباً متجهاً إلى نابلس، مكوناً من أطباء إسرائيليين وفلسطينيين في مهمة لتوصيل أغذية أطفال إلى «أطفال جائعين.. يعانون من جوع حقيقي»، قد تعرض مراراً لمضايقات من السلطات العسكرية الإسرائيلية. وحتى بعد أن بدأ النزاع العسكري يتجه للحل، فإن وضع المدنيين قد استمر بالتردي. أحد الصحفيين الإسرائيليين قال «لكي يُسمع جرس الإنذار.. لكل شخص محترم» في تقرير له عن غزة واصفاً «الحقائق الخطيرة» عن «البطالة الهائلة» والتي كانت «تُحوّل القطاع أكثر وأكثر.. إلى منطقة كوارث على شفا الجوع وأكثر من ذلك»، وأضاف «إن الأطفال نصف الجائعين، يبكون حالياً في الشوارع أثناء الليل بسبب الجوع، والأهالي اليائسون يقفون عاجزين وجيوبهم فارغة، يغذّون مشاعر الكراهية والانتقام وقد يعدّون القروش لشراء الأرغفة والخضار بينما هم قلقون على شراء الحليب في اليوم التالي» ثم يحذّر هذا المراسل الصحفي قائلاً: «سيأتي اليوم الذي يُطلب فيه من الحكومة الإسرائيلية -ومنا جميعاً- أن تجيب عن هذا السؤال: أين كنتم وماذا فعلتم عندما أصبح القطاع جيتو، عندما سُجن سكانه الـ 700.000 وأصبح العاطلون عن العمل يقاتلون من أجل قطعة خبز لأطفالهم الجياع؟»[11].

لقد حُكم على الفلسطينيين الذين اتهموا بخرق حظر التجول (ويبلغ عددهم ما يقارب الألفي شخص) بغرامات تتراوح ما بين 250 و500 دولار، وحتى في الأوقات الجيدة فإن الغرامة ستكون شاقة، إذ أن معدل الدخل الشهري للعامل الفلسطيني يبلغ 500 دولار. ولم يتمكن أكثريتهم من الدفع، فأودعوا في السجن لمدد تتراوح حول الستة أسابيع. كما أن السلطات العسكرية قد استغلت مناسبة حظر

التجول لكي تطالب بدفع الضرائب، والتي لم تكن مستحقة حتى بداية السنة التالية، وقد علق الصحافي الذي كتب من غزة وقال:

لم تكتفِ الحكومة الإسرائيلية بأنها لم تحرك إصبعاً لمنع الكارثة التي لا سابق لها، بل إنها جعلتها أسوأ بأن أرسلت محصلي الضرائب لتعقب الناس التعساء والذين قد فرغت جيوبهم،.. كل شخص يقوم بواجبه، كل شخص يطيع الأوامر، إن أذرع الحكومة الألف تؤدي ألف عمل.. بلا مبالاة، والنتيجة هي كارثة فظيعة: تجويع منظم لسكان القطاع.

لقد وصف أحد أبناء غزة الوضع بوضوح تام: «أنتم تقتلوننا بدون استخدام بنادق، إنكم تقتلوننا بالأنظمة والشكليات والتعليمات»[12].

بالإضافة إلى حظر التجول، فإن أكثر الذكريات المزعجة للفلسطينيين في ذلك الوقت هي السؤال حول الأقنعة الواقية من الغازات. فعندما غادرتُ المناطق المحتلة في أواخر آب 1990، كان العراق قد اجتاح الكويت، وبدا خطر نشوب حرب في المنطقة يلوح وشيكاً، وأخذت سميرة تتوقع بمزيج من اليأس والسخرية بأنه إذا اشتعلت الحرب، فسيتمتع الإسرائيليون ببعض الحماية «بينما نحن سنُترك لنموت كالجرذان». وعندما عدتُ إلى الولايات المتحدة، قمت بإيصال صوت تخوفاتها، وتم نبذ هذه التخوفات ووصفت على الدوام بأنها تخيلات فزعة لشخص بلغت به المرارة بحيث لم يعد قادراً على الحكم بصواب، وإن إسرائيل لا يمكن أن تكون بهذه القسوة، مع هذا، وبعد كل شيء، لم تكن سميرة بعيدة عن الواقع، إذ أن الحكومة الإسرائيلية رفضت مبدئياً القيام بتزويد الفلسطينيين بأقنعة واقية

مدّعية بأن «مناطق يهودا والسامرة وقطاع غزة ليست مستهدفة من هجمات صاروخية عراقية محتملة». مع ذلك، فإن عرض الأسباب هذا لم يحل دون توزيع أقنعة واقية لكل المستوطنين اليهود في المناطق المحتلة، وحتى بعد أن قامت المحكمة الإسرائيلية العليا بنقض قرار الحكومة، وبعد أن ضَربت عدة صواريخ عراقية الضفة الغربية بالفعل، تلقى ثلاثة بالمئة فقط من الفلسطينيين أقنعة واقية، ولم يُعطَ أي طفل فلسطيني قناعاً واقياً، لهذا كان على الفلسطينيين أن يتوقعوا الاحتمال القاسي بأن يتمكنوا من التنفس بسهولة بينما أطفالهم يهلكون. لهذا اختار سكان مخيم طولكرم بأن يموتوا مع أحبائهم ورفضوا تلقي الأقنعة الواقية، أما وسائل الإعلام الأميريكية فإنها أمطرت المشاهدين بصور مؤثرة لأطفال إسرائيليين يرتدون أقنعة واقية، مع هذا، وكما قالت إيمي جودمان، منسقة الأخبار في محطة باسفيكا، بانشقاق نادر عن الرأي العام «الصورة الأسوأ من صورة الأطفال الإسرائيليين وهم يرتدون الأقنعة الواقية، هي صورة الأطفال الفلسطينيين بدون هذه الأقنعة». وعندما رأت ابنة موسى ذات الثلاثة سنوات، الأطفال الإسرائيليين يرتدون الأقنعة الواقية من الغاز على التلفزيون، أضحت برعب وأخذت ترجو أباها باكية بحرقة بأن يحضر لها واحداً. ومع أن موسى كان متشككاً بأن القناع سيكون له فائدة ملموسة في حالة هجوم بالغازات السامة، إلا أنه قد أنفق العدة مئات من الدولارات التي هي ثمن القناع لكي «يعطي أروى الأمان». وبعد أن انتهى النزاع، أخبرني موسى بأن طفله عروة ما يزال يرجوه بأن يحضر له واحداً[13].

لسخرية الأقدار، فلقد هلل الفلسطينيون لحريق الخليج الهائل، كعقاب لمعذبيهم الإسرائيليين، ولكن وكما رأينا فقد عانى الفلسطينيون

أكثر من الإسرائيليين بكثير كنتيجة للنزاع. وإذا أخذنا بالاعتبار السؤال الأساسي حول الخسائر الفادحة في الأرواح، فإننا نجد أنه وفقاً للأرقام الإسرائيلية الرسمية حول الإصابات، فقد قتل شخص على الفور وقتل اثني عشر شخصاً آخر بشكل غير مباشر من جراء الهجمات بصواريخ سكود. ولكن فإن «بتسليم» (المركز الإسرائيلي لحقوق الإنسان في المناطق المحتلة) قد أوردت بأنه في شهر كانون الثاني من العام 1991 وحده، سقط خمسة عشر طفلاً فلسطينياً قتلى بواسطة قوات الأمن الإسرائيلية. ومن ضمنهم خمسة أطفال. وقد حذّرت هذه المنظمة لحقوق الإنسان من أن «العدد المرتفع بصورة استثنائية من الأطفال يجب أن تتم ملاحظته». لقد كان تركيز وسائل الإعلام الغربية شديداً على أزمة تلم بالأطفال الإسرائيليين، لم تكن موجودة في الواقع[14].

IV

«لقد عانينا بصورة فظيعة أثناء حرب الخليج» أفضت إليّ سميرة في إحدى الأمسيات «ولكنني لا أتذكر وقتاً كنا فيه نحن الفلسطينيين أكثر سعادة»، إن شقيقَي سميرة مايزالان يرزحان في السجن، وشقيق زوجها أطلق سراحه منذ فترة وجيزة، ولكن شقيقة زوجها ما تزال تصارع الإبعاد. زوجها، وكان قد أُجبر على السعي للعمل في الخارج، يعيش منذ عشرة سنوات في الخليج. وتابعت سميرة القول: «في كل مرة كنت أرى فيها صاروخ سكود في السماء يتجه نحو إسرائيل، كنت أرى أملاً، كل صاروخ كان يعادل أملاً» وقد استخدمت إصبعيها السبابة والوسطى لتشير للتعادل، وتابعت سميرة تشرح «الأمل بأن إسرائيل ستجبَر أخيراً على التفاوض، وإن كابوس الاحتلال سينتهي أخيراً».

لقد استمعت للتعبير عن هذه المشاعر، بشكل أو بآخر، لمرات

ومرات، فقد قال أحد الجيران: «لم يكن الأمر أننا كنا نريد أن تقتل الصواريخ الإسرائيليين، ولكننا أردناهم فقط أن يشعروا بما يكفي من الخوف بحيث أنهم أخيراً سيصنعون السلام». وقال آخر من أهالي بيت ساحور، «لقد اعتقدنا بأن صواريخ سكود ستجعل الإسرائيليين يفهمون بأن الأمن الحقيقي يأتي بالسلام وليس بالأرض». وقال ثالث، «تأملنا بأن الصواريخ ستجعل الإسرائيليين يرون بأن هناك ثمناً عليهم دفعه بسبب استمرارهم بتعذيبنا».

تعتقد سميرة بأنه إذا تم التركيز على مسألة الإصابات المدنية، فإن معظم الفلسطينيين كانوا سيعيدون التفكير حول هجمات صواريخ سكود. وفي الواقع، وفقاً لما يقول موسى، فإن الفلسطينيين اعتبروا أنه من المسلم به أن الهجمات كانت رمزية إلى حد كبير، والسبب هو أنها لو أدت إلى أضرار حقيقية، فإن إسرائيل سترد بالقصف. مع هذا، فإن التهليل لصواريخ سكود كان سببه أن الفلسطينيين أصبحوا مقتنعين بأن إسرائيل تفهم لغة القوة فقط، وأن إسرائيل ستتفاوض من أجل السلام فقط إذا وعندما يكون عليها أن تُدخِل في حسابها عواقب عدم التفاوض من أجل السلام. كما أكد جورج حنا، الفيزيائي من جامعة بيرزيت، بأن «اليسار» الإسرائيلي إذ كان يحث الفلسطينيين على التوسل لإسرائيل من أجل السلام، وبأن يبحثوا ثم يناشدوا الحس الأخلاقي لإسرائيل، فإنما كانوا يضللون الفلسطينيين عن قصد أو عن غير قصد. ويشير جورج حنا إلى أن اليمين الإسرائيلي كانوا أكثر واقعية فيما يتعلق بمجتمعهم: بأن إسرائيل تخضع للقوة وليس للأخلاقيات.

إن السجل التاريخي يدل تماماً على هذا التقدير المتشائم، وكما عرضنا سابقاً، فإن أنور السادات كان قد عرض السلام على

إسرائيل في العام 1971 بالصيغة ذاتها التي في معاهدة كامب ديفيد في العام 1977، ولكن إسرائيل تجاهلته، ولقد ذهبت إلى طاولة التفاوض فقط بعد أن أثبتت مصر نفسها في حرب تشرين الأول من العام 1973 كقوة عسكرية يحسب حسابها، ومثل ذلك فإن الجيش الإسرائيلي انسحب جزئياً من لبنان في العام 1985 فقط بعد أن قام حزب الله «بهجمات.. منظمة، بخسائر إسرائيلية متراكمة»، وكذلك فإن التيار الأساسي في منظمة التحرير قد عرض على إسرائيل منذ السبعينات، تسوية على أساس قيام دولتين، وفقط بعد تفجير الانتفاضة بدأت إسرائيل وللمرة الأولى، تأخذ هذا الاحتمال جدياً، وحالما تم سحق عصيان الفلسطينيين، فإن كل الاهتمام الإسرائيلي بالتسوية على أساس قيام دولتين قد تلاشى[15].

لقد تم التهليل بصدّام حسين للأسباب ذاتها التي دعت للتهليل بصواريخ سكود، ففي عشية الاجتياح العراقي للكويت، وصلت المعنويات في فلسطين إلى الحضيض، فقد كان الفلسطينيون يقاومون القمع الوحشي الإسرائيلي منذ ثلاث سنوات، ومع هذا لم تكن لديهم أي نتائج ليعرضوها. ويئس الكثيرون من إمكانية أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم. لقد كان أحد المؤشرات على هذا الشعور بفقدان الأمل هو غياب أي مقاومة لحظر التجول أثناء «حرب» الخليج، وكان الفلسطينيون يفقدون الثقة أيضاً بأهمية الرأي العام العالمي، وقد روى أحد الاقتصاديين المقدسيين، أنهم عرفوا دائماً بأن الأطفال بحجارتهم لن يتمكنوا من هزيمة الجيش الإسرائيلي، فقد كانت الانتفاضة تعتبر في المقام الأول كنداء للضمير العالمي، ولكن المجتمع الدولي قد أخفق بتلبية النداء. لم يكن الفلسطينيون، بالطبع، هم الشعب الأول الذي يضع (خطأً) أمله بالإنسانية، ففي مذكراته عن

جيتو وارسو، يتذكر يتسحاق زوكرمان بأن «كل الناس كانوا يعتقدون بالشيء ذاته: لو أن العالم يعلم فقط.. وحالما يسمع العالم بما يحدث هنا، فإن الأمور ستتغير، والحقيقة أنه عندما علم العالم، ظل صامتاً». ثم إن ثلاث سنوات من الانتفاضة قد تركت الفلسطينيين يشعرون بالعجز، كما قد أصبحوا ساخرين. لقد دخل صدّام حسين إلى هذا الخواء السياسي والخواء في المعنويات، وقد كان للفلسطينيين اليائسين الشخص المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب[16].

أخذ طلال شقيق سميرة يشرح، أنه طالما كان الفلسطينيون مقتنعين بأن «رجلاً قوياً فقط» بإمكانه حل مشكلتهم، فمن الطبيعي أنهم هلّلوا لصدّام حسين، وقال: «لقد بدا قوياً بشكل لا يصدّق، وكنّا نشعر بالضعف بشكل لا يصدّق، فلا يمكن أن يكون هناك تطابق أتم من ذلك». إثر عواقب كارثة الخليج، ادّعى كثير من الفلسطينيين بأنهم لم يدعموا اجتياح صدّام، لقد كانت تلك نصف الحقيقة، النصف الآخر كان أنهم أيضاً لم يعارضوه، كانت الحقيقة أن الأكثرية ببساطة لم تكترث. وما كان من أحد في آب 1990، إذا ألححت عليه، سيدافع عن أفعال صدّام. في الواقع لا يمكنهم ذلك، فمن بين كل الناس، ربما كان الفلسطينيون في أسوأ وضع لكي يبرروا بشكل متسق الاجتياح أو الاحتلال أو الضم. وبالنهاية فإنهم نبذوا كل الحجج إلا تلك التي تستند إلى السياسة الواقعية. لم يكترث أحد مقدار ذرة بالأخلاقيات عندما كان الأمر يتعلق بالفلسطينيين، لماذا إذن على الفلسطينيين أن تُقضّ مضاجعهم بسبب الأخلاقيات عندما يتعلق الأمر بالكويتيين؟ ويقول طبيب نفساني من الخليل محللاً «كان الأمر وكأنما عُلّق الفلسطينيون في بئر وأخذوا يصرخون طلباً للمساعدة، وكان العالم

كله يحدق بنا، ويسمع التماساتنا ولكنه لم يفعل شيئاً، حينئذ أتى صدّام، ديكتاتور وحشي؟ نعم، نحن كلنا نعرف ذلك، ولكنه مدَّ يداً للمساعدة، فهل تتوقع حقاً بأننا كنّا سنرفض ذلك؟» كما أن صدّام قد اكتسب الثناء كونه أول قائد عربي يدعم الفلسطينيين، ليس بالجعجعة فقط ولكن بالفعل أيضاً، وبمهاجمته لقلب الأراضي الإسرائيلية، ووقوفه بوجه الولايات المتحدة مباشرة.

أخذ أحد كتّاب الأعمدة في صحيفة إسرائيلية يناقش بأن رد فعل الفلسطينيين على أزمة الخليج كان متوقعاً كما أنه ليس مستغرباً:

> **«طالما أن الانتفاضة لن تؤدي إلى شيء، وأن «حوار» الولايات المتحدة ومنظمة التحرير هو مضيعة للوقت، وأن العالم يقف متلكئاً -فمن الطبيعي أن تتشبث بأية قشة، حتى لو كانت القشة في الحقيقة طُعماً مسموماً. كنت ستصبح متشوقاً لمشهد قائد عربي يجرؤ على مجابهة العالم ويهزّه من طرف إلى طرف، حتى ولو أنك لا تتخيل نفسك تعيش تحت حكمه حتى في أسوأ كوابيسك. فجأة أخذت دولة عربية تُعامَل وكأنها قوة عظمى وليس من السهل التعامل معها، لقد فعل هذا شيئاً ما «للأنا» الجمعي، إن الحماس لصدّام هو في الحقيقة الإحباط من أميريكا ومن أوروبا ومن اليسار الإسرائيلي- ومنا جميعاً، نحن من أخفقنا بسحب نظام الاحتلال للخلف حتى بمقدار بوصة».**

يضيف الكاتب الصحفي ملاحظة بأن تحالف الفلسطينيين مع «الشيطان» لم يكن بدون سوابق وفيرة، فهناك الصفقة التي حاول اسحاق شامير، رئيس الوزراء السابق وزعيم مجموعة شتيرن أن

يعقدها مع هتلر لقتال الإنجليز «مع أن، أسوأ الأشرار ما كان ليقول بأنه يريد هتلر أن يحكم هنا» كما أنه «بالرغم من أن طبيعة نظام ستالين كانت مفهومة تماماً ولم يكن أحد يريد تحت أي ظرف أن يعيش في روسيا السوفيتية» مع هذا فقد كان هناك تعبئة عالمية خلف الديكتاتور السوفييتي، على أنه الشخص المتمترس ضد النازية. حتى أن اليهود كانوا يُعدّون أشد المتعصبين حماساً لستالين، فعلى النقيض من أماكن أخرى في زمن الحرب كما في أوروبا، يقول المؤرخ السوفييتي موشيه ليفين، ففي روسيا ستالين لم يكن اليهود «محكومين بالموت» لأنهم ببساطة يهود، ولهذا فإن اليهود قد فضلوا الديكتاتور السوفيتي بنسبة ساحقة. لقد اجتاح ستالين واحتل وضمّ دول البلطيق في عشية الحرب العالمية الثانية، وتصدّر أكثر الطغاة قسوة، ولكنه كان «جيداً مع اليهود»نسبياً، لهذا فقد هلّلوا له[17].

V

«لماذا أداننا العالم لأننا هلّلنا للهجوم على إسرائيل»، تساءل أحد الطلاب من الخليل بمرارة «ولكن لم يُدَن الإسرائيليون لأنهم هلّلوا للهجوم على العراق؟». واقترحتُ أنا الجواب البسيط هو أن الفلسطينيين، وليست هذه هي المرة الأولى، ضحية للمعايير المزدوجة.

لقد كان تأييد الإسرائيليين للهجوم بقيادة الولايات المتحدة على العراق إجماعياً، بقدر ما كان تأييد الفلسطينيين للهجوم بصواريخ سكود على إسرائيل. بل إن تدمير العراق اكتسب استحساناً من «معسكر السلام» الإسرائيلي. مؤكدة بأن هذه الحرب «مختلفة» فإن حركة السلام الآن قد شدّدت على أنها «غير مستنكرة» وأن كل مبادرات السلام يجب أن تعلق إلى حين نتائج الحرب «الناجحة». كما تم توبيخ (الحركة العالمية ضد الحرب) علناً بسبب «كونهم متشككين

حيال المصالح الأميريكية في المنطقة» (A. B. Yehoshua)، كما أثير شبح «أوشويتز ثاني» لتبرير استخدام أسلحة نووية ضد العراق (Amos OZ)، مع هذا وبحسب لائحة الاتهام ضد العراق والتي تتضمن «جرائم بحق السلام»، «جرائم حرب» و«جرائم بحق الإنسانية» وإذا طبقناها بنفس القوة على إسرائيل، فسيظهر أن صدّام كان مبرراً بمهاجمة إسرائيل بقدر ما كانت الولايات المتحدة مبررة بمهاجمة العراق، فقد كان باستطاعة القائد العراقي بالتأكيد أن يشير إلى أن قرارات للأمم المتحدة قد تجاهلتها إسرائيل أكثر بكثير مما تجاهله هو نفسه بل إنه يمكن للمرء أن يناقش الأمر أنه بانتظاره لسنين عديدة، وليس الستة أشهر التي سمح بها جورج بوش قبل الشروع بفرض قرارات الأمم المتحدة، فإن صدّام قد أظهر الكثير من الصبر. من الصحيح أنه ليس بإمكانه أن يشير إلى قرار لمجلس الأمن يخوّله باستخدام القوة، ولكن هذا ببساطة لم يكن قضية مبدأ: فالأداء الذي قام به بالميزانية المحدودة لبلد من العالم الثالث، هو نتيجة لأن صدّام ببساطة لم يكن يستطيع أن يوفر كميات المال الهائلة التي استخدمتها الولايات المتحدة كي ترشي أعضاء مجلس الأمن. قد يرغب المرء أيضاً بأن يناقش: أن صدّام لم يكن مهتماً بمصير الفلسطينيين عندما هاجم إسرائيل، قد يكون هذا صحيحاً، ولكن الهجوم على إسرائيل كان مهتماً بمصير الفلسطينيين بالقدر الذي كان به.. الهجوم على العراق مهتماً بمصير الكويتيين[18].

فضلاً عن ذلك، لنأخذ بالاعتبار المقارنة في التدمير الذي حصل في حريق الخليج على إسرائيل وعلى العراق. فنتيجة لهجمات صواريخ سكود التسع والثلاثين، فقد قتل اثني عشر إسرائيلياً بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وقدرت الأضرار بالممتلكات ما بين

50 و150 مليون دولار. ولكن خلال مجريات الهجوم بقيادة الولايات المتحدة، وقد تم إلقاء ما يعادل سبع قنابل من حجم القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما، فقد وصل عدد القتلى بشلك مباشر أو غير مباشر من العراقيين إلى 150.000، وثلثي هذا الرقم كان إصابات بين المدنيين وغالبيتهم من الأطفال. كما قدرت الأضرار بالممتلكات ما بين 100 إلى 200 بليون دولار. وإذ تؤكد التقارير على أن الآلاف من العراقيين قد دفنوا وهم أحياء وبصورة متعمدة، فإن هذا يدلل أكثر على أن الهجوم بقيادة الولايات المتحدة كان بعيداً جداً عن الحرب «النظيفة». في الواقع إن الإسرائيليين (كما هو الحال مع آخرين كثيرين في الغرب) قد هلّلوا فعلاً ليس لهزيمة المعتدي بل لتدمير حضارة، ما هلل له الفلسطينيون فعلاً لا يصل، بالمقارنة، إلى لطمة على المعصم[19].

يقول طلال: «نحن الفلسطينيين نتذكر أيضاً من بدأ الحرب بين إسرائيل والعراق» وقد كان يشير إلى تدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في العام 1981، وقد تم تعليل ذلك في حينه بالمبدأ الأخلاقي الفريد بأن إسرائيل فقط من بين دول الشرق الأوسط تمتلك الحق بتهديد جاراتها بالإبادة النووية. في الواقع، فحين وقف صدّام رابط الجأش ليطلق صواريخ سكود على تل أبيب فقد كان لديه قائمة طويلة من التظلم المشروع ضد إسرائيل. يروي إيان بلاك وبيني موريس أنه و«بحسابات باردة» و«عزيمة ساخرة» لإضعاف العراق، وبدءاً من العام 1968 مروراً ببداية السبعينات، فقد موّلت إسرائيل وأثارت مباشرة العصيان المدني بين الأكراد العراقيين وعطّلت الجهود الرامية إلى التفاوض من أجل إيجاد تسوية بين القادة الأكراد وبغداد. وأورد الكاتبان أندرو وليزلي كوكبورون إنه

وكما ادّعى العراق أثناء أزمة الخليج، فإن إسرائيل «قد خططت لهجوم على قدرات العراق غير التقليدية» قبل سنة من ذلك، «ومع أسف المهاجمين الشديد» فإن «البيت الأبيض قد رفض منح الإذن» ويتابع الكاتبان كوكبورن قائلين، وبينما كان الرئيس بوش يستعد «لعاصفة الصحراء فقد كان رد الفعل الإسرائيلي.. حماسياً، فقد دعا المتحدث الإسرائيلي الرسمي الرئيس بوش لأن لا يظهر أي رحمة ضد صدّام»، وكان أن طلبت إسرائيل في الشهر الأول لتطور الأزمة من الولايات المتحدة، وكما عبّرت عن ذلك صحيفة هاآرتز في عنوانها الرئيسي «اضربوا الآن». كما أن الرئيس الإسرائيلي حاييم هيرتزوغ قد حث الولايات المتحدة، وفقاً لتقرير صحيفة التايمز اللندنية الصادرة في تشرين الأول، على استخدام الأسلحة النووية، كما أن وزير الخارجية ديفيد ليفي قد هدّد رسمياً ممثلين رسميين للولايات المتحدة «بمحي» الترسانة العسكرية العراقية، فإن إسرائيل ستهاجم العراق من جانب واحد.

لقد تمعّن المعلقون الإسرائيليون بتهديدات ليفي وقالوا بأن الضغط على الولايات المتحدة لأن تشن هجوماً فورياً كان ربما جهداً لكي يستولي ليفي على تسوية تفاوضية. ويقول الكاتبان كوكبورن «منذ الدقائق الأولى من الحرب» إنما كانت تلك القنابل «التي تسقط على العراق» نتاجاً إسرائيلياً. بالطبع فإن لإسرائيل شكاويها المشروعة ضد العراق، ولاسيما استضافة بغداد للإرهابيين الفلسطينيين. ومع هذا، فإن الموازنة في الشكاوى المشروعة ستُظهِر أنها مائلة بوضوح إلى جانب العراق. وعلى كل الأحوال، فإن تظاهر إسرائيل بالطهارة المجروحة في الوقت الذي كانت الصواريخ العراقية تحط فيه على تل أبيب هو نفاق محض[20].

VI مازال الفلسطينيون، حتى بعد الذروة الكارثية لأزمة الخليج، ممتنعين عن انتقاد صدّام. فمتشككين، مثلاً، بالعدد الصغير من الإصابات المسجلة بالتقارير بين الأميركيين، فقد استمر البعض بالتمسك بأوهام عن القتال ذاته. في الواقع، لقد كان تشكك الفلسطينيين بخصوص جميع التصريحات الأميركية عن عاصفة الصحراء مفهوماً، فمن ناحية: فقد سلّم الفلسطينيون حتى بأنهم خُدعوا بالدعاية الأميركية المضللة بأن صدّام قد استجمع آلة عسكرية رهيبة، ومن ناحية ثانية، فقد كان باستطاعة الفلسطينيين المشاهدة، ومن أسطح منازلهم ببساطة، أن صواريخ باتريوت لم تكن تؤدي كمفخرة تكنولوجية تحبس الأنفاس، والتي تباهت بها نشرات أخبار «التحالف» مراراً. ولاحقاً، فقد أظهرت الدراسات في الواقع أنه في أحسن الظروف نجح صاروخ باتريوت واحد فقط باعتراض صاروخ سكود، وأن وضع إسرائيل كان سيصبح أفضل لو أن صواريخ باتريوت الخرافة، والتي سببت الكثير من الأضرار بالممتلكات، لم تطلق أصلاً[21].

حتى عندما يقرّوا بالحجم الكامل للهزيمة السياسية والعسكرية التي عانى منها العراق، فمازال الفلسطينيون يرفضون التنصل من صدّام علناً، فهو قبل كل شيء قد وقف للدفاع عن الفلسطينيين، حتى وإن كان لأسباب انتهازية بحتة، لا أحد ممن قابلتهم لديه أية أوهام عن الدوافع الحقيقية لصدّام حين رفع قضية «الربط» بين احتلال فلسطين والكويت، وعندما أطلق لاحقاً صواريخ سكود على إسرائيل. ربما كان طَعْن صدّام من الخلف هو الفعل السياسي الملائم الآن، ولكن الفلسطينيين أبوا أن يفعلوا ذلك، كمسألة شرف، وفي مستوى أعمق، كان على الفلسطينيين إذاً أن يقرّوا بانتهازية صدّام بالكامل، أن يعترفوا بأن استشهادهم قد تم استغلاله

مرة أخرى من قبل قائد عربي، وهذا ما لا يستطيع الفلسطينيون فعله، ولو كان السبب فقط أن ذلك يجعل من التأييد الذي قدموه لصدّام أثناء أزمة الخليج يبدو حمقاً شديداً. أخيراً، فمازال الفلسطينيون يؤمنون بأنه ما بين العراق والتحالف الذي انتظم بقيادة الولايات المتحدة ضدّه، فإن الاتجاه الصحيح كان، ولو أنه كارثة سياسية، هو تأييد العراق، وفيما يتعلق بهذا الأمر، فقد انضم الفلسطينيون ربما إلى غالبية الرأي العام العالمي (على اعتبار أن العالم يضم ثلثي البشرية الذين يعيشون خارج أوروبا وأميريكا الشمالية). والذي انقلب لدى الدلائل التي كان يبشر بها انتصار الولايات المتحدة و«النظام العالمي الجديد» الذي دعا له بوش[22].

إن تخبّط تكتيكات صدّام، للتأكيد، قد تعرضت لبعض الانتقاد. فمثلاً، استذكر كايد، مقارناً صدّام بشكل يخلو من الدقة مع لينين، فقال أن القائد السوفييتي، ولكي يحمي مكتسبات ثورة أكتوبر فقد وافق على الشروط المذلّة لمعاهدة بريست - ليتوفسك. عموماً، ومع كل ذلك، فإن الفلسطينيين لن يذهبوا بالانتقاد حتى بهذا المقدار. ومن الدلائل الأخرى على عواطف الفلسطينيين، ولو كان بشكل مضخّم، كانت رؤى والد سميرة، غسان، فلقد ظل يصرّ على أن صدّام قد تصرّف أثناء أزمة الخليج بألمعية، فقلت له، ولكن كل حسابات صدّام كانت خاطئة، فلم يكن يعتقد بأن الولايات المتحدة ستقاتل، ولكنها فعلت، ولم يعتقد بأن الاتحاد السوفييتي سوف يتعاون معهم ولكنه فعل، ولم يظن بأن الدول العربية كانت ستتحالف مع الولايات المتحدة وإسرائيل علناً ضد العراق، ولكنهم فعلوا، لقد اعتقد بأن إسرائيل سوف تدخل الحرب إذا هاجمها العراق، ولكنها لم تفعل، لقد توقع بأن الجماهير العربية سوف تتدفق إلى الشوارع إذا صمد العراق

لفترة كافية، ولكنهم لم يفعلوا، إذاً أين كان صدّام لامعاً؟ حينئذٍ ردّ غسان صائحاً متحدياً، «صدّام كان على صواب والعالم على خطأ»، ولكن التعبير الذي كان على وجهه، مع ذلك، كان تعبيراً عن يأس وإحباط تامّين.

علقت سميرة في إحدى الأمسيات وقالت، لم يهلل كل الفلسطينيين لهجمات صواريخ سكود «لقد كان هناك استثناءات قليلة، فأنا على سبيل المثال، لم أقم بالصعود إلى سطح المنزل عندما كنت أسمع عائلتي تقوم بالصفير، بل لقد كنت أشعر بإحساس غثياني في داخلي بأننا كلنا تحولنا إلى وحوش ومسوخ». لقد أثار قرار صدّام بالانسحاب من الكويت، حالة مزاجية عامة وعكسية، وعلى نحو مفاجئ، فلم يعد هناك أي أمل بأن العراق ستقيّد يدي إسرائيل، والاحتلال سوف يستمر. تتذكر سميرة وتقول: «صعدت الدرجات ببطء إلى سطح المنزل، وأخذت أحملق بالسماء السوداء، لقد شعرت كأنني ممسوسة، وأردت أن أرى ملايين الصواريخ تتوجه إلى تل أبيب، وأردت أن أرى العالم بكامله مدمَّراً. ونحن معه».

* * *

فيما بعد سألت والدتي، وهي ناجية من جيتو وارسو ومن معسكر اعتقال ميدانيك، عن مشاعرها عندما تسربت الأخبار أثناء الحرب بأن الروس يقصفون المدن الألمانية، فردّت ومن غير تردّد: «لقد أردت أن يموت الألمان، لقد كنت أعرف بأنني لن أعيش، لهذا أردت لهم أن يموتوا أيضاً، لقد هلّلنا للروس، لقد أردناهم أن يدمِّروا أي شيء وكل شيء ألماني، لقد تمنينا لهم الموت في كل لحظة من اليوم لأننا كنا نواجه الموت في كل لحظة من اليوم».

ملاحظات الفصل الرابع

(1)John Dower, War without Mercy (New York,1986), 36, 40-41, 53-55.

(2)Avner Yaniv, Dilemmas of Sercurity (New York, 1987), 127-28; Noam Chomsky, The Fateful Triangle (Boston, October 1991).

للاطلاع على خلفيات حركة السلام الآن، راجع:

Reuven Kaminer, The Politics of Protest (Brighton, England, 1996).

إن Kaminer يظهر هنا، بأنه بعيداً عن المنشورات القليلة، فإن حركة السلام الآن لم تنحرف جوهرياً عن برنامج حزب العمل على الإطلاق. وهكذا، وحتى بعد أن أيدت منظمة التحرير رسمياً التسوية على أساس قيام دولتين في تشرين الثاني 1988، فقد ظلت حركة السلام الآن لا تدعم حتى الفلسطينيين في إقامة دولة، وكانت تدعو إسرائيل فقط لأن تعترف «بالوجود الوطني للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، على أن يتحقق ذلك بطريقة يتفق عليها الطرفان». وقد أيدت الحركة بصراحة الضم الإسرائيلي للقدس من جانب واحد («القدس الموحدة كعاصمة لإسرائيل..») (113-14, 163).

كذلك فإن الدراسة التي وضعها كامينير تسجل وقائع المعارضة المبدئية والشجاعة لليسار الإسرائيلي، وإن تكن هامشية.

(3)Ari Shavit, »On Gaza Beach«, New York Review of Books, 18, July 1991.

للإطلاع على إقرار مبكّر من اليسار الإسرائيلي بأن «من المستحيل التعامل مع الاحتلال بدون الأخذ بعين الاعتبار وحدته المتكاملة، والتي تجعل منا كلنا في واقع الأمر، متعاونين تابعين لها»، راجع:

Kaminer, Politics of Protest, 58.

في دراسته النقدية الشهيرة، Hitler Willing Executioners فإن جولدهاجن يعرّف أي «مرتكب» للمحرقة النازية كالتالي:

أي شخص ساهم بشكل قريب في الذبح الجماعي لليهود.. وهذا يتضمن كل الناس الذين أنهوا حياة يهود بأنفسهم، وكل أولئك الذين أعدّوا المكان للفعل النهائي المميت، والذين كانت مساعدتهم ذات أثر في تنفيذ الموت باليهود. لذلك فإن أي شخص أطلق النار على يهود، كعنصر في فصيل إعدام كان مرتكباً للجريمة، وأولئك الذين حاصروا هؤلاء اليهود أنفسهم ونقلوهم (عارفين بالمصير الذي ينتظرهم) إلى موقع القتل، أو الحراس الذين أحاطوا المنطقة حيث قام أبناء جلدتهم بإطلاق النار عليهم، فهم أيضاً مرتكبون للجريمة كذلك، مهندسو السكك الحديدية والإداريين الذين عرفوا أنهم كانوا ينقلون يهوداً إلى موتهم..

في الواقع، فإن جولدهاجن يحاجج بصراحة بأن نقل اليهود وقتلهم بالفعل كانا «متكافئين عملياً» (164-65، 196، 523، n.3) وإذا حكمنا بواسطة هذه المعايير، فإن أي إسرائيلي قام بتسهيل الاعتقال، والنقل، أو اعتقل فلسطينياً ممن يرمون الحجارة -أي، تقريباً كل ذَكَر إسرائيلي بالغ- هو «مرتكب» للتعذيب ضد الأطفال.

(4)Yehuda Ya'ari, «The Alarm \ The Body's Place Means Nothing, »Davar,22 September 1989. See also Kaminer, Politics of Protest, 57.

(5)Gabi Nitzan, «Against Refusal \ For Refusal», Hadashot, 3 Augest 1990; Yussi Sarid, «Don't Bother Looking for Me», Haaretz, 31 January 1991.

للاطلاع على المعارضة الشديدة «لرفض الأوامر» من قبل «معسكر السلام» -ويتضمن حركة السلام الآن، وحركة الحقوق المدنية، واليساريين من الكيبوتسات- راجع:

Kaminer, Politics of Protest, Chaps, 5,9.

علّق أحد الإسرائيليين مدافعاً عن «رفض الأوامر العسكرية» وقال: إن الجندي لم يعد يمتلك خياراً بألا يرتكب جريمة حرب، ويقول:

طالما أن الأوامر ليست عبارة عن نزوة من بعض القادة المتطرفين، ولكن عرفاً يعبّر عن النوايا الشريرة للقيادة السياسية العليا، ففي حالة كهذه، فحتى أكثر الجنود عدلاً وحساسية مجبر على أن يصبح شريكاً، سلبياً على الأقل، في الجريمة. وحتى لو رفض أن يعذب ملقي الحجارة الذين يقبض عليهم، فإنه لا يستطيع أن يمنع تعرّضهم للضرب، حتى الموت أحياناً في مجمّع الاعتقال في وضع كهذا ليس هناك، بالطبع، فائدة من الشكوى وتحت ظروف كهذه، فإن رفض الخدمة في المناطق يصبح شرعياً، بل إلزامياً. لقد علّمتنا سنوات الثلاثينيات في أوروبا بأنه ليس للأغلبية السلطة بأن تفرض على الأقلية ارتكاب

جرائم حرب، وإن الأقلية يجب ليس فقط أن ترفض، ولكن عليها أيضاً أن تثور بالقوة ضد أوامر كهذه. (موشيه نيجبي، «ما مدى عدالة أن ترفض الأوامر؟». حداشوت 3 آب 1990).

(6) للاطلاع على مسألة العرض العام للقلق من قبل النازيين، راجع:

Norman G. Finkelstein, Image and Reality of the Israel – Palestine Conflict (London, 1995), Chap. 4; Avishai Margalit, «The Kitsch of Israel», The New York Review of Books, 24 November 1988; Amnon Denker, «To Shoot or to Cry», Hadashot, 23 January 1989.

نستذكر فيما يتصل بهذا الأمر بأن أكثر المتهمين في نورينبورغ قد التمسوا عذراً بأنه «لو كان أحد آخر في موضعي لكانت الكارثة قد أصبحت أعظم».

(See Ann Tusa and John Tusa, The Nuremberg Trail (New York, 1984), 172, 303, and Martin Gilbert, Nuremberg Diary (New York, 1995), 245).

(7) ورد اقتباس عناوين News Week في كتاب:

Robert Fisk, Pity the Nation (New York, 1990), 401.

ويعلق المؤلف: «كانت تلك التعابير مليئة بالمعنى، كان من الممكن لأي شخص في بيروت الغربية أن يستنتج بأن الفلسطينيين -وليس الإسرائيليين- من كانوا في «عذاب» وأن الناجين من صبرا وشاتيلا - وليس اليهود الأميريكيين- من كانوا أساساً يمرون باللوعة. وإذا كانت لإسرائيل «روح معذَّبة»، إذن ماذا كانت مشاعر الفلسطينيين الذين تعرضوا للخيانة من الوعود الأميريكية بحماية المدنيين الذين تابعوا البقاء بعد رحيل منظمة التحرير؟». أما العناوين الصحفية الأخرى

فهي من صحيفة نيويورك تايمز: 22 كانون الثاني 1988، ومن: New York Review of Books, 7 January 1988.

وفيما يتعلق بهذه النقطة العامة راجع ما كتبه ميرون بينيفينسكي وما كتبه عن رد فعل الإسرائيليين على المذبحة التي تمت في المسجد الأقصى في تشرين أول 1992، ويقول: «كان الجرح بليغاً، وكانت ردود فعلهم، ليس بسبب عدد الضحايا العرب، ولكن بالأحرى بسبب الضرر الذي لحق بتصورهم لأنفسهم وبسمعتهم في العالم».

Intimate Enemies (New York, 1995, 14).

(8)Tom Segev, «They Won't Have to Look for Shulamith Aloni,» Haaretz, 24 August 1990.

(9) B'Tslem, Human Rights in the Occupied Territories during the War in the Persian Gulf (Jerusalem, February 1991), 2-5; Benveisti, Intimate Enemies, 133; Moshe Engbi, «We Do Not Think about Them and Their Syffering», Hadashot, 15 February 1991; Yizhar Be'er, «Why Haras Them?» Haaretz, 24 March 1991; Dannt Rubinstein, «The Trritories Are Being Punished», Haaretz, 18 February 1991.

(زعمت «بتسليم» أنه وبحلول «الأسبوع الرابع من الحرب» ما عادت الدوافع الأمنية تبرر حظر التجول).

(10)B'Tselem Human Rights, 5, 10-12, Be'er, «Why Harass Them?».,

(11)B'Tselem Human Rights, 7-9; Negbi, «We Do not Think»; Vered Levy, «Sealed Palestinian Room» Al Hamishmar, 22 February 1991; Oded Lifshitz, «You Are Killing Us without Guns» Hotam, 26 April 1991.

(12)B'Tselem Human Rights, 4, 6; Rubinstein, «The Territories Are Benig Punished»; Lifshitz, «You Are Killing Us».

(13)B'Tselem Human Rights, 17-21; Michal Sela, «No Gasmasks for Palestinians: Asystem of Double Morality», Davar, 10 February 1991. Pacifica news – anchor Arny Goodman quoted from the sally Jessy Raphael Program, 28 January 1991.

(14)Information Department of the Consulate General of Israel in New York, «For your Information: Scud Missile Attacks on Israel» (28 February 1991); B'Tselem, Human Rights, 23.

(15) للاطلاع على مبادرة السادات من أجل السلام في العام 1971، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chap. 6; and Avraham Tamir, A Soldier in Search of Peace (New York, 1988), 157-58.

وبما يتعلق بالسجل التاريخي لمبادرات السلام العربية / الفلسطينية والرفض الإسرائيلي، راجع خصوصاً:

Noam · Chomsky, Fateful Triangle, Chap. 3; and idam, Necessary Illusions (Boston, 1989), 286-320.

إن النتائج التي تم التوصل إليها في أيار 1990 من خلال استطلاع الرأي الذي قام به كل من:

Giora Goldberg, Gad Barzilai, and Efraim Inbar.

والتي وردت في تقرير بعنوان، تأثير النزاعات بين المجتمعات: الانتفاضة والرأي العام الإسرائيلي. (القدس، 1991).

تلك النتائج قد عززت بالكامل الاستنتاجات التالية:

«1» «لقد قادت الانتفاضة العديد من الإسرائيليين لتبني نزعة أكثر حمائمية مما كانوا يتبنونه من قبل.. وأحد التفسيرات الممكنة لنمو الدعم للمواقف الحمائمية هو الشعور بأن الحرب ضد الانتفاضة لا يمكن الفوز بها» ولهذا «هناك زيادة واضحة في تأييد

إجراء محادثات مع منظمة التحرير الفلسطينية» و«ميل واضح لدعم أقوى بصدد إقامة دولة فلسطينية. «2» إن تلك النزعات الأكثر حمائمية لم تكن قد تلازمت مع تضاؤل المخاوف من التهديد الذي يتعرض له أمن الإسرائيليين من قبل دولة فلسطينية، إذ إن فرض التغيير بالمعتقدات بين الإسرائيليين لم يكن مجاهرة الفلسطينيين بالسعي للسلام ولكن بالأحرى كانت أعمال المقاومة من الفلسطينيين هو ما فرض ذلك. وبالرغم من ازدياد الحمائمية، فإن أقل من 10 بالمئة من الإسرائيليين قد أيدوا فعلاً الإجماع الدولي المنادي بانسحاب إسرائيلي كامل من المناطق المحتلة وإقامة دولة فلسطينية مستقلة استقلالاً تاماً.

(وحتى بين مؤيدي حزب العمل، فقد كان الرقم هزيلاً وبلغ 13 بالمئة) بل إن نسبة أكبر من الإسرائيليين قد فضلت «طرد العرب بالقوة». كما أن معدّي التقرير يستذكرون كذلك أن «أغلبية الجمهور الإسرائيلي دعمت حرب لبنان (في حزيران 1982) إلى أن أصبح الثمن الباهظ لتحقيق الأهداف واضحاً» (5، 19، 22-23، 39-40، 48).

لقد كان رد الفعل الشعبي على هجوم رئيس الوزراء بيرس في نيسان 1996 على لبنان، متوافقاً جوهرياً مع النمط الظاهر في الفقرة السابقة، إذ أن الإسرائيليين كانوا قد بدؤوا بالتساؤل عن الحكمة في القيام بالمذبحة، فقط بعد الاحتجاج العالمي على مجزرة قانا، والتي قتل فيها أكثر من مئة مدني لبناني. وزيادة في التأكيد، فإن وحدة المدفعية الإسرائيلية المسؤولة عن المذبحة، وكما ورد في التقارير «لم تندم للحظة على إطلاق النار» وقال قائد الوحدة، «ما الفرق، زيادة عربي، نقصان عربي» «العرب، كما تعلم، يوجد منهم ملايين».

(جيل ريفا، «الجنود الذين قصفوا قانا لا يكترثون بالمذبحة» كول هايلر، 10 أيار 1996). للمصادفة، فهناك سوابق وفيرة في سجلات الغزو لحالة الرأي العام الإسرائيلي، فلقد أورد إيان كيرشو بأنه وبينما كان جيش هتلر يجتاح بولندا، فقد أظهر الألمان «قليلاً من الارتياب الأخلاقي بصدد التدمير الوحشي». كما لاحظ كاتب يوميات من برلين ويدعى وليم شيرير: «لم أقابل ألمانياً واحداً، حتى بين أولئك الذين لا يحبون النظام القائم يرى أي شيء خطأ في تدمير ألمانيا لبولندا.. وطالما ظل الألمان ناجحين وغير مضطرين لشد الأحزمة على البطون كثيراً فهذه لن تصبح حرباً ولا تتمتع بالشعبية». لقد انقلب الرأي العام ضد حرب هتلر الغازية وأيدوا تسوية بالمفاوضات فقط بعد الهزيمة التي عانوا منها في ستالينغراد.

ولنتوسع في المقارنة، يمكن للمرء أن يلاحظ أن الألمان عشية الحرب العالمية الثانية لم يكونوا متحمسين بتاتاً لاحتمال الحرب، وبالمثل فإنهم آمنوا أيضاً بأن هتلر كان ملتزماً بالسلام، كما أن هتلر قد تدبر إقناعهم بأن «حلقة من الأمم المعادية» تهدد الأمن القومي وأن الحرب «قد فُرضت» على ألمانيا. ولنلاحظ، أخيراً، بأن الألمان بدؤوا يعجبون بالسلاّف Untermenschen الذين كانوا يحتقرونهم حتى تلك اللحظة، وذلك بعد المقاومة العنيدة والانتصارات العسكرية للجيش الأحمر والشعب الروسي. إن الانتصار في ساحة المعركة بالنسبة للشعب الذي تحت الاحتلال، هو الشرط المسبق لكسب احترام المحتلِّين.

(Ian Kershaw, The »Hitler« Myth (Oxford, 1987), 123, 128, 136 143-45, 156, 187, 192-93, 200-2d; Marlis G. Steinert, Hitler's War and the Germans (Athens, Ohio, 1977), 38-39, 41-42, 50-52, 163-64, 194, 209-10, 231, 239,333, 337).39, 41-42, 50-52, 163-64, 194, 209-10, 231, 239,333, 337).

(16)Yitzhak Zuckerman, A Surplns of Memory (Berkeley, 1993), 164-65; See 439.

(17)Boaz Evron, «The Excited among Us», Yediotb Ahronot, 24 August 1990, Moshe Lewin, Nation, 30 September 1991.

في إقرار نادر من نوعه في الأدبيات الأكاديمية حول المحرقة النازية، يشير المؤرخ أرنو ماير إلى أن ستالين استقبل ما يقارب 350.000 لاجئاً يهودياً من أوروبا المحتلة من النازيين. حتى أنه منحهم حق المواطنة السوفيتية، «هذا في الوقت الذي كان يتم به إرجاع لاجئين كهؤلاء، في أماكن أخرى، أو يتم اعتقالهم بوصفهم إما حلفاء للعدو أو أنهم لا يحملون وثائق أو لأنهم بدون تأشيرة». كما أن ستالين قد ساهم بصورة غير مباشرة بإنقاذ ما يقارب مليون ونصف المليون يهودي كان قد تم إخلاؤهم من مناطق سوفييتية سيطر عليها النازيون. وبالمقارنة، فإن الولايات المتحدة كانت قد استقبلت فقط 20.000 لاجئاً يهودياً، وساهمت بصورة غير مباشرة بإنقاذ، ربما، ما يقارب مائتي ألف.

(Arno Mayer, Why Did the Heavens Not Darken? (New York, 198?), 187, 198, 257).

راجع أيضاً استنتاجات David Wyman المخادعة في كتابه الأكثر شهرة The Abandonment of the Jews (New York, 1984) والتي مفادها «أن سجل الولايات المتحدة في الإنقاذ، على قلّته، كان أحسن من سجل بريطانيا العظمى وروسيا أو الأمم الأخرى من الحلفاء».

(X, Xi; emphasis added).

(18)Hannan Kim, «Israel's Left – wing All – Stars Vs. the Rest of the World», Hadashot, 29 January 1991; Gabi Nitzan, «While the Pateriot Whistle, the Muses Sing, Hadashot, 1 February and 8

February 1991; Lilly Galilee, «Peace Now Vs. the European (Peace) Movements over Their Attitude to the Gulf War», Haaretz, 30 January 1991; «Round on the Gulf War», Tikkun, March – April 1991 (including Shulamith Aloni and Amos OZ); Kaminer, Politics of Protest, Chaps. 12-13 (Peace Now quotes on 203-4).

فيما يتعلق بالرشاوي في مجلس الأمن فإن المؤرخ Theodor Draper قد أورد: إن الأصوات في الأمم المتحدة لم تكن بلا ثمن، فمن الحالات التي نعرف عنها، وحالات أخرى يمكن الحدس بشأنها، فإن ما يقارب سبعة مليارات دولار من الولايات المتحدة وستة ونصف مليار من دول الخليج قد قيل أنها أسقطت من دَيْن مصر. واحتفظت تركيا بمبلغ 500 مليون دولار سنوياً كانت تأخذها كمساعدات عسكرية، واستلم الاتحاد السوفييتي مليار دولار كمساعدة من السعودية وقرض بكفالة الولايات المتحدة. أما اليمن فقد حُجبت عنها مساعدات أجنبية قدرها 70 مليون دولار بسبب تصويتها بالطريقة الخاطئة. وبعد أن تم التصفيق استحساناً للمندوب اليمني بسبب تصويته السلبي، قال بيكر وزير الخارجية: «أتمنى انه استمتع بذلك التصفيق، لأن هذا سيظهر أنه أكثر الأصوات كلفة قام بأدائه على الإطلاق». وبالنسبة للصين، فبسبب عدم ممارستها لحق التصويت، فإن وزير خارجيتها قد حظي باستقبال في البيت الأبيض بعد معاناته من عزلة دبلوماسية لمدة سنة ونصف عقب مذبحة تينيامين.

(Theodor Draper, «The True History of the Gulf War», New York Review of Books, 30 January 1992).

بما يتعلق بسجل المقارنة بين إسرائيل والعراق راجع الفصل الثالث. وبما يتعلق بالدوافع الحقيقية للولايات المتحدة في أزمة الخليج راجع مرجع Chomsky في ملاحظة رقم 52 للفصل الثالث.

(19)Tel Aviv Foundation, «Update» (September 1991); the

«Economic Division» of the Israeli embassy in Washington D. C. Patric J. Sloyrn, «Buried Alive,» Newsday, 12 September 1991.

(20)Ian Black and Benny Morris, Israel's Secret Wars (New York, 1991), 327-30, 332-37; Andrew Cockburn and Leslie Cockburn, Dangerous Liaison (New York, 1991), 346, 351,353 (the Times (London) dispatch is cited on 353); Uzi Benziman, «Strike Now», Haaretz, 31 August 1990; Akiva Eldor, Haaretz, 5 December 1990; Shlomo Ginossar, «How Tall Can We Stand?» Davar, 7 December 1990.

(21) «Patriot's Scud Busting Record is Challenged», Science, 3 May 1991; New York Times, 21 November 1993; Theodore A. Postal, «Lessons of the Gulf War Experience with Patriot», International Security (winter 1991-21).

من شرفة فندق هيلتون في تل أبيب، وصف الكاتبان أندرو كوكبورن وليزلي كوكبورن مشهد الأوبرا الهزلية، إذ انطلق صاروخ باتريوت كي يعترض صاروخ سكود مهاجم: الباتريوت الأول «تدمر من ذاته» حين «تفجر إلى زخّة من معدن أبيض ساخن هبط عامودياً على المدينة»، الثاني انطلق كشهاب في سماء مظلمة، طائراً على علو شديد الانخفاض وكان من الممكن بسهولة أن ينفجر بواحدة من بنايات المكاتب العالية، قبل أن يندفع أخيراً إلى المدينة، والثالث «انفجر بوهج أحمر مباغت»، والرابع «انطلق للأعلى.. ثم وعلى الفور تقريباً، عاد على أعقابه على نفس المسار وانسحق على الأرض، ليس بعيداً عن مطعم معروف يسمى ماندي». وأضاف الكاتبان: «كان التصريح الرسمي الملطف في الموجز العسكري المعتاد في منتصف الليل في الهيلتون، إن سبعة صواريخ سكود قد أطلقت على تل أبيب وأنها جميعها قد أُسقطت». (347-48)

(22) فيما يتعلق برأي العالم الثالث بحرب الخليج، راجع:
Noam Chomsky, «Aftermath», Zeta, October 1991.

خاتمة

نهاية فلسطين ؟

I . أوسلو

في أعقاب حرب حزيران عام 1967، وصل المجتمع الدولي لإجماع على إيجاد تسوية شاملة للنزاع العربي الإسرائيلي، وتجسدت التسوية في قرار مجلس الأمن رقم 242، ودعا القرار إلى «انسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من مناطق احتلتها في النزاع الأخير» وفقاً لمبدأ «عدم جواز اكتساب مناطق بالحرب»، وكذلك اعتراف العرب بإسرائيل وفقاً للمبدأ بأن «كل دول المنطقة» لها الحق في «العيش بأمن». وكان الإجماع الدولي ولغاية منتصف السبعينات مهيأً بشكل حاسم لأن يأخذ الطموح القومي للفلسطينيين بالاعتبار، فعندما تنسحب إسرائيل إلى حدود ما قبل 1967، يكو للفلسطينيين أن يمارسوا حق تقرير المصير في إطار دولة مستقلة في الضفة الغربية وغزة. وما انفك هذا الإجماع الدولي يتأكد في ميادين شتى على مر العقدين السالفين، كما ظلّت الأمم المتحدة تقرّه سنوياً. وعلى سبيل المثال، فإن قراراً للهيئة العامة قد دعا بشدة في العام 1989 إلى تسوية

النزاع الإسرائيلي الفلسطيني على أساس قيام دولتين، وقد أيدت القرار 151 دولة في حين عارضته الولايات المتحدة، إسرائيل والدومينيكان[1].

قد يكون الافتقار للدولة هو أكثر الأوضاع إذلالاً في العالم الحديث، وكما عرضت حنّة أريندت (Hannah Arendt) بجلاء في كتابها أصول الديكتاتورية (The Origins of Totalitarianism)، فإنه ليس فقط حقوق الإنسان، ولكن كذلك فإن بإمكان الكرامة الإنسانية الأساسية أن تجد الحماية والتعبير عن نفسها في إطار الدولة القومية فقط. وللتغلب على وضع عدم وجود الدولة، يجب أن يتوفر أحد خيارين: المواطنة في دولة «علمانية» موحدة أو السيادة في دولة «عرقية» منفصلة. ولقد أيدت القيادة الفلسطينية رسمياً، ومنذ وقت مبكر، قيام دولة لا طائفية على كامل فلسطين التاريخية، وكونهم ملتزمين برؤية كهذه أو لا تبقى مسألة قابلة للنقاش. وحتى قوى «اليسار» من الوطنيين الفلسطينيين قد رأت. على سبيل الجدال، أن دولة ديمقراطية علمانية هي نوع من الصهيونية المعكوسة: لأن الأكثرية العددية تعني أن الدولة ستكون للعرب بينما اليهود، وعلى أحسن الأحوال، سيتم احتمالهم كمواطنين زائفين.

في منتصف السبعينات، قام التيار الرئيسي للفلسطينيين، كما هو الحال للقوى العربية الرئيسية. وبالمصادقة على الإجماع الدولي الداعي لقيام دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل. حتى أن قبول عرفات للتسوية على أساس قيام دولتين، وكما أسلفنا في الفصل الثالث، كان هو ما أطلق الاجتياح الإسرائيلي للبنان في العام 1982. كما قام المجلس الوطني الفلسطيني في تشرين الثاني 1988 في الجزائر بالاصطفاف رسمياً مع المجتمع الدولي، وأكّد على «قرار

مجلس الأمن الدولي رقم 242 و.. الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ومن ضمنها، وفي المقام الأول، الحق في تقرير المصير»[2].

لكن إسرائيل، مع الدعم الأميريكي الشديد، سدّت الطريق إلى حل على أساس قيام دولتين، أو في الواقع إلى أي حل عادل للنزاع. كما أن كلاً من الخطين السياسيين الأساسيين في إسرائيل قد عارضا بشدة أي اعتراف متبادل على أسس متكافئة. ويعتقد الخطان، وكشرط من عقيدة أيديولوجية، بأنه لا يجب إعطاء حق المواطنة للفلسطينيين ضمن دولة إسرائيلية مركزية، ولا أن يمارسوا حق تقرير المصير في دولة مستقلة. كما يفضّل الليكود مد السيادة الإسرائيلية على كامل المناطق المحتلة، وضمنياً سيكون الطرد هو مصير الفلسطينيين. بينما يؤيد حزب العمل ضم ما يقارب نصف الضفة الغربية وغزة (ومن ضمنها المصادر المائية الهامة) في حين تسلَّم المناطق ذات «الاستيطان العربي الكثيف» إلى حكم ذاتي مصطنع[3].

وهكذا فإن كل الجهود لحل نزاع الشرق الأوسط قد غرقت في المياه الضحلة للرفض الإسرائيلي الأميريكي. ومع هذا، لم يطابق الجمود السياسي جمود على الأرض. فلقد كانت إسرائيل «تبني الحقائق» بوتيرة عالية في الضفة الغربية وغزة من خلال التوسع المستمر للمستوطنات الإسرائيلية مما أدى إلى أن الحل على أساس قيام دولتين كان مهدداً بأن يؤول إلى الإهمال. كما أن ما تبقّى من فلسطين كان يمحى عن الخارطة بشكل منهجي. وبانطلاق التمرّد في كانون الأول من العام 1987، سعى الفلسطينيون لأن يكسروا الجمود السياسي. ففي سنتها الأولى بدت الانتفاضة أنها على حافة النجاح. وإذ أخذت تكاليف الاحتلال تتصاعد بشدة بسبب الانتشار العسكري الواسع وبسبب الصورة الملطخة لإسرائيل وحتى بين اليهود

الأميريكيين بأن الدولة الفلسطينية قد تكون محتومة. مع هذا، وحتى قبل «حرب» الخليج في 1991 فقد كانت الانتفاضة قد بدأت بفقدان الزخم، إذ قد تسبب الركود الاقتصادي بتكاليف باهظة. كما أن ما لم تفعله إسرائيل لتحطيم الانتفاضة، فعلته منظمة التحرير. فلقد أخمدت المنظمة الاندفاعات الديمقراطية للانتفاضة وبددت المصادر الفلسطينية في لعبة دبلوماسية عقيمة. ومع حلول العام 1989، كان باستطاعة المرء أن يتوقع بأن منظمة التحرير ستقبل في النهاية «سيادة زائفة» تعطي الفلسطينيين «علَم، ونشيد وطني، ولا شيء آخر». في ذلك الوقت كانت هذه الكلمات الأخيرة تقال من باب المجاز، وعندما حدث ذلك ثبت أنها صحيحة حرفياً.

لدى بدء كارثة الخليج، كانت الآفاق معتمة أمام الفلسطينيين، كما أن معارضة منظمة التحرير للانضمام إلى «التحالف» الذي صممته الولايات المتحدة، قد استثمرت بشكل رخيص لانتزاع تنازلات جديدة منها. مع هزيمة صدّام، فقد وجِّهت كارثة شديدة لما تبقى من القومية العلمانية في العالم العربي، وكذلك فإن الكتلة السوفييتية والتي كانت العائق الوحيد أمام الولايات المتحدة والتي كانت أداةً مؤقتة لمطامح العالم الثالث، فقد مسخت إلى أداة محددة لقوة الولايات المتحدة. وقد بدت اللحظة يانعة لتوجيه ضربة قاضية للآمال بدولة فلسطينية ذات سيادة، حينذاك أتت مبادرة أوسلو.

كانت الخيارات المفتوحة للفلسطينيين بحلول صيف 1993، تتراوح ما بين السيء وما لا يمكن احتماله، وبدت المقاومة غير ذي جدوى إذ أصبحت الانتفاضة بحكم المنتهية. وكان باستطاعة الفلسطينيين الاختيار فقط ما بين «حكم ذاتي ملزم للفلسطينيين فحسب» بينما يتركون لإسرائيل أن تفعل ما تشاء ولكن بدون تصديق

رسمي منهم، وبين استسلام رسمي. ومع هذا كان هناك ثمن يجب دفعه لعدم الإقرار بالهزيمة رسمياً. فبينما كانت المزاعم تنتشر حول فساد منظمة التحرير وعدم أهليتها، فقد هبطت سمعة منظمة عرفات بين الفلسطينيين بشدة. وأصبح على عرفات أن يعقد صفقة -أي صفقة- لانتشار منظمة التحرير من حافة الهاوية. وإذ كان الفلسطينيون وهم مهزومون قد تمسكوا بشدة بحق تقرير المصير، فما عاد باستطاعتهم حتى أن يعتمدوا على الفتات من مائدة الأسياد على سبيل الرشوة. أما ما كان الفلسطينيون أنفسهم سيختارونه لو عرض عليهم الخياران، فإنه يبقى موضع نقاش. وفي الوقت الذي كانت به عباءة منديلا أبعد كثيراً من أن يصل لها، فإن عرفات -مدعياً بأن «لا بديل»- قد أمسك بعباءة الزعيم القبلي بوثيليزي (Chief Buthelezi) وذهب إلى ما هو أبعد من الاستسلام الرسمي، فقد عرض عرفات خدمات منظمة التحرير كداعم للنظام الغازي.

لقد دلت اتفاقية أوسلو على استسلام منظمة التحرير الكامل للرفض الإسرائيلي الأميريكي[4]. لقد كان الأمر، وكما علّق إدوارد سعيد باقتضاب «فرساي فلسطينية». وبتوقيعه فقد ألغى عرفات الحقوق الأساسية للفلسطينيين، والتي مازال الإجماع الدولي متمسكاً بها حتى الآن. إن نصوص أوسلو لم تذكر حق تقرير المصير للفلسطينيين أو الاستقلال بدولة، ولكن بدلاً من ذلك فإنها حدّدت أن التسوية النهائية ستستند فقط على قرار الأمم المتحدة رقم 242، والذي لا يقدم أي شيء للفلسطينيين، والأكثر من ذلك، ستكون الولايات المتحدة من سيقوم بالفعل «بتفسير» معنى قرار 242. ومنذ بداية السبعينات فإن الإدارة الأميريكية كانت في واقع الأمر قد خضعت لوجهة النظر الإسرائيلية، وضد سائر الرأي

العالمي، بأن قرار242 يدعو لانسحاب إسرائيلي جزئي فقط من المناطق المحتلة.

إذا كانت اتفاقية أوسلو قد أشارت إلى استسلام منظمة التحرير، فإن الرسائل اللاحقة المتبادلة بين رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق رابين وعرفات قد حددت الاصطفاف الفعلي لمنظمة التحرير مع القوة الإسرائيلية. لقد ألزم عرفات منظمته بأن تفرض اتفاق أوسلو، بغض النظر عن المشاعر الشعبية، وفي الواقع فقد كان هذا هو السبب الذي دعا رابين للدخول في معاهدة مع عرفات. لقد كانت إسرائيل تسعى لاسترجاع الأيام الهادئة التي كانت قبل الانتفاضة، عندما كانت شبكة من المتعاونين الفلسطينيين تساعد في إدارة النظام الغازي بدون تكلفة نسبياً. إن التقييم الموثوق الذي قام به ميرون بينيفينستي بصدد أوسلو والاتفاقيات اللاحقة بين المنظمة وإسرائيل يستحق الاقتباس:

> **لقد ارتكب عرفات فعل استسلام.. إن الفلسطينيين.. قد شرعنوا الوجود المستمر للمحتل.. إن الاحتلال سيستمر وإن كان بجهاز التحكم عن بعد، وبقبول من الشعب الفلسطيني ممثلين بواسطة «ممثلهم الشرعي والوحيد» منظمة التحرير الفلسطينية. بأن ما حصل هو اتفاقية استسلام كاملة.. إنها للإسرائيليين سلام بدون ألم أو تضحية، وعرض لصفقة رابحة.. إنها تتواصل بدون أن تقول أن «التعاون» في ظل ميزان القوى القائم، لا يزيد عن كونه سيطرة إسرائيلية دائمة من خلف قناع، وحكم الفلسطينيين الذاتي، هو تحديداً تعبير لطيف عن حالة محميات قبائل البانتو في جنوب أفريقيا[5].**

إن أكثر ما هو مرجَّح للمستقبل المنتظر هو أن إسرائيل ستمتص تدريجياً رقعاً كبيرة من الضفة الغربية وغزة، بينما يعلق الفلسطينيون بوطن على شكل كانتونات منفصلة تتمم الاقتصاد العالمي كقطاع خدمات. وسيسلمون لرحمة اتحاد إسرائيل، الولايات المتحدة والبنك الدولي. ومجرداً من أي خرقه من سيادة فعلية، يكون «الحكم الذاتي» الفلسطيني إسقاطاً للمصير الذي تكنّه القوى الصناعية لكل الشعوب الأقل شأناً بشكله الأقصى. إنه «السيناريو الكابوس» للعالم الثالث. إن درس فلسطين قديم قدم التاريخ: مطبقاً بدون رحمة أو تردد، القوة تحكم.

II . الحاضر . الماضي . المستقبل

في كانون الثاني 1993، قررتُ أن أستعيد خطواتي لكتابة فصل الختام في هذا الكتاب، وبدا لي أن بيت موسى هو المكان المناسب لبدء الرحلة من البداية حتى المستقبل، وفي الليلة التي وصلت بها، أسرَّ لي موسى وقال: «لم أكن بهذا الإحباط أبداً من قبل».

«في السنوات الأولى من الانتفاضة» شرح لي موسى، «حاولتْ إسرائيل كسرنا جسدياً، باستعمال الهراوات، والآن هم يحاولون كسرنا نفسياً». وكانت الخليل قد وُضعت في وقت سابق من ذلك الشتاء، تحت حظر للتجول لمدة تسعة أيام وعلى مدار الساعة. وبالإضافة إلى سقوطه في الإحباط، فإن موسى والذي يبلغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً فقط، يعاني مما يبدو أنه جلطة.

عندما وصلت إلى الخليل كانت ما تزال تحت حظر التجول من الساعة السابعة مساءً إلى الخامسة صباحاً. ولقد شاع بشكل واسع،

أن عرفات، كونه متوجساً من أحداث معرقلة أثناء التفاوض مع إسرائيل، قد قبل ضمنياً بحظر التجول. بينما كانت ساعة حظر التجول تقترب، أخذ الضيوف في بيت موسى يلتفتون إلى ساعة الحائط بقلق متنام، وقد كان الخوف الأكبر هو أن لا تقوم إسرائيل برفع الحظر أبداً. ففي مجتمع ملتحم بشدة كالفلسطينيين، مجتمع نما على الاتصال الاجتماعي ويعتبر أن الاتصال الاجتماعي الآن هو السلوى الوحيدة من الضجر المتصل للحياة اليومية، فإن حظر التجول يشكّل تعذيباً صامتاً.

لقد تراكب مع حظر التجول إغلاق للحدود، وقد كان العرب الذين لا يقتنون تصريحاً خاصاً للمرور ممنوعين من دخول القدس الشرقية، في حين كان المستوطنون اليهود يمرّون بحريّة. في أحد ضواحي القدس وعلى نقطة التفتيش، كان هناك طابوراً طويلاً من الفلسطينيين، ينتظرون بينما يقوم الجنود الإسرائيليون بالتفتيش عن عرب «مخالفين للقانون» ممن يبحثون بيأس عن أي عمل. ليس الأمر فقط أن المؤسسات المدنية الفلسطينية الأساسية كمستشفى المقاصد تقع في القدس، ولكن أيضاً فإن شرايين المواصلات لمواقع أخرى في الضفة الغربية تمرّ من خلالها، فما بين الإغلاق والتوسيع الإسرائيلي المتنامي «للقدس الكبرى» فإن الضفة الغربية قد شطرت فعلياً إلى كانتون إلى الشمال من القدس وآخر إلى الجنوب منها، وقبل الإغلاق كانت الرحلة من الخليل إلى رام الله تستغرق ما يقارب الساعة، وبعد الإغلاق على المرء أن يستعد لساعتين ونصف من السفر عبر ما يدعى «الطريق العربي».

في إحدى الليالي أجبرتُ على أن أسلك «الطريق العربي» من القدس إلى بيت ساحور. كان هذا الممر الأفعواني ضيقاً وخادعاً

ويتعرج على جانب الجبل، ويغور أحد جانبيه عميقاً إلى الهاوية، كان هناك ضباب كثيف، وفي كل مرة كان الباص القديم يمر فيها على أحد المطبات كانت راحتا يديّ تنديان بالعرق أكثر وأكثر. لقد تحولت الرحلة التي كان يجب أن تستغرق ثلاثين دقيقة إلى عذاب ساعتين ونصف.

في إحدى المناسبات، انضممت إلى «حوار» كان يُعقد مرتين شهرياً بين ناشطين من حركة السلام الآن وأهالي بيت ساحور، وعندما طرحتُ موضوع الإغلاق، أخذ أحد المهاجرين الجدد من روسيا بالدفاع عن الإغلاق كاحتراز «أمني» ضروري. حينئذٍ أخذتُ أمحّص الأمر وقلتُ، فلنتخيل أن عمدة لمدينة نيويورك منع السود من دخول منطقة منهاتن إثر تفجر موجة من القتل العرقي ترتكب من السود من مناطق أخرى، ألن تكون الاحتجاجات سريعة ومبررة؟ وسألتهم، لماذا إذن يمكن الدفاع عن السياسة ذاتها في إسرائيل؟ فرد نشطاء حركة السلام الآن فوراً على التشبيه الذي طرحتُه قائلين: «كيف يمكنك أن تقارن الحالتين؟ إن إسرائيل محاطة بعشرين بلد عربي» وإلى آخره.

أحد الفلسطينيين ممن شاهدوا الكثير من أفلام الغرب الأميريكي أخبرني ذات مرة: «هناك دائماً ذلك الرجل النبيل الأبيض الذي يحاول إقناع الهنود بالاستسلام والرحيل، لا أدري لماذا، ولكن هذا يذكرني دائماً بحركة السلام الآن».

بعد سنة من اتفاق أوسلو المنعقد في 1993، استمرت المستوطنات اليهودية بالازدياد بخطى مسعورة، ووصلت سيطرة إسرائيل على أراضي الضفة الغربية إلى ما نسبته 75 بالمئة، قافزة،

من نسبة الـ 65 بالمئة التي كانت عليها عندما تم توقيع الاتفاق، كما أن التمويل الحكومي للمستوطنات قد ازداد بنسبة 70 بالمئة. ولم تعد المستوطنات قلاعاً نائية على رؤوس التلال البعيدة، لقد أخذ الهبوط الأخير لمستوطنة كريات أربع والمسمى كريات «خمسة» يجور أكثر فأكثر على الحي الذي يقطن به موسى، بينما أصبح صخب المستوطنين أمراً روتينياً. يعلق جان بول سارتر في كتابه اللاسامية واليهود فيقول: «لأن الشر بالنسبة للاّسامي يتجسّد برجال مسالمين وغير مسلحين فإن اللاّسامي لم يجد نفسه أبداً خاضعاً للضرورة المؤلمة بأن يكون بطولياً، فلقد كان من الممتع أن يكون المرء لاسامياً، إذ يستطيع المرء ضرب وتعذيب اليهود بدون خوف». ولفهم عقلية الكثير من المستوطنين، على المرء فقط أن يستبدل مفردة «اللاّسامي» ويضع مكانها «اليهودي» ومفردة «اليهود» ويضع مكانها «العرب»[(6)].

يفضل أهل الخليل وجود الجيش الإسرائيلي، والسبب فقط حتى لا تترك الساحة مفتوحة أمام المستوطنين الجاهزين لإطلاق النار بسرور، ومع هذا، فنادراً ما تدخّل الجيش لردع عنف المستوطنين، ولا كان الجنود الإسرائيليون كذلك محصنين من تفجّر العنف منهم أنفسهم. في أحد الأيام وبينما كان موسى يقود سيارته إلى عمله، أساء فهم إيماءة من جندي كان يوجّه السير، فصرخ الجندي بغضب وهو يأمر موسى بالتوقف «كان من الممكن أن أقتلك من أجل ذلك»، ولاحقاً قال موسى وهو يهزّ رأسه متفكّراً «كم هي رخيصة حياة الفلسطيني بالنسبة للإسرائيلي!».

كان التضييق الاقتصادي القاسي يذل الفلسطينيين بشكل مستمر، وكتب ميرون بيفينستي:

بين عامي 1988 و1991، كان هناك هبوط سنوي يقارب ما نسبته 20 بالمئة من الناتج القومي الإجمالي للمناطق.. وكنسبة من قوى العمل، وصلت نسبة البطالة إلى 30-40 بالمئة. كما توقفت مئات الملايين من الدولارات التي كانت تُرسل إلى المناطق من الفلسطينيين العاملين في الدول العربية من الوصول. وبعد حرب الخليج، فإن المساعدة المعطاة للمناطق من دول الخليج والبالغة عشرات الملايين من الدولارات، قد تم قطعها[7].

كان توجيه سؤال لطالب في الجامعة عما ينوي أو تنوي فعله بعد التخرج يثير الابتسامة الساخرة ذاتها باستمرار، فآفاق العمل معدومة. أما موسى، وإذ لم يتقاضَ راتباً لمدة أشهر من المدرسة الثانوية التي يعمل بها، فقد قرر أن يفتح محلاً ليتمكن من العيش بكفاف. ولكن حظر التجول كان مدمّراً للأعمال. وكان أهل الخليل راغبين عن صرف مدخراتهم، كونهم غير متأكدين مما يمكن أن يجره المستقبل عليهم. لقد تحملت مخيمات اللاجئين العبء الأكبر للكارثة الاقتصادية، وكان الإغلاق يعني موتاً بطيئاً. وعندما كان النمو الاقتصادي للضفة الغربية متوقفاً بسبب سلطات الاحتلال، فقد كان الآلاف من الفلسطينيين في مخيم الفوار يسعون للعمل في إسرائيل، وفي العام 1993 فإن حفنة منهم فقط استطاعت أن تقوم بذلك[8]. فمن بين أخوة موسى السبعة القادرين، كان هناك خمسة بدون عمل، كانوا فقط يجلسون في الجوار فاتري الهمة. في إحدى الليالي، حاولتُ أن أدخل في حديث عن السياسة مع عائلة موسى، وفي السنوات السابقة كانت أحاديث كهذه تصبح مناقشات حامية بسرعة،

أما هذه المرة فقد غرقت الغرفة بالصمت بعد عدة لحظات، وكانت التعابير ترتد من وجه لوجه إلى التعبير البليد الموحش الخالي ذاته.

كانت سميرة مبتهجة بسبب رجوع زوجها ستيفان بعد سبعة عشر عاماً من الإقامة في الخليج. مع ذلك، فلم تكن سعادتها من دون شائبة، فلعدم تمكنه من إيجاد عمل في فلسطين، أصبح ستيفان محبطاً ونزقاً باستمرار، ووضّحت سميرة: «بالنسبة لزوجي، فإن عدم العمل يعني الموت». أصبحت سميرة الآن هي المعيلة الوحيدة للأسرة، في حين كان ستيفان يقوم بالأعمال المنزلية، ومتابعة الوظائف المدرسية مع أبنائه، والعمل في الحديقة. حتى في أكثر الأُسر تفتّحاً، فإن هذا التبادل الإجباري في الأدوار، كان سيسبب ضغوطاً شديدة على أعضاء الأسرة. مع هذا، فإن سميرة لن تتقبل أن تسمع أن زوجها سيعود للبحث عن عمل في الخارج ثانية.

في البداية، استقبل أكثر الفلسطينيين اتفاق أوسلو ببهجة، مع هذا، فإن القليل منهم قد قرأ الاتفاق بالفعل. لم يكن هناك أحد ممن قابلتهم في بيت ساحور قد رأى نسخة غير موجزة من الاتفاق. وفي الخليل، كان النشطاء السياسيين فقط من قرأ النسخة الكاملة من الوثائق، وأقرّ قادة الطلاب في جامعة بيرزيت بأنهم درسوا النص الكامل وسلموا مع هذا بأنه من المحتمل أن أكثرية الطلاب في صرح الوطنية الفلسطينية هذا لم يقرؤوه. ما كان أكيداً هو أن منظمة التحرير لم تبذل أي مجهود لنشر النص الحقيقي للاتفاقية، ولقد بدا الناس متفاجئين بالفعل ومهتمين عندما كنت أقوم بالاستشهاد بفقرات جوهرية.

كان من الواضح أن كثيراً من الناس قد تم إغواؤهم بادّعاء

منظمة التحرير الخادع بأن أوسلو يمهّد لدولة فلسطينية. في عشية احتفال التوقيع في البيت الأبيض في أيلول، علّق قائد فلسطيني بأن على أهالي المعتقلين السياسيين أن يتوقعوا أنباءً سعيدة قريباً. حينها انفجرت أم سميرة بالبكاء، إذ أن اثنين من أبنائها كانا في السجن خلال الأعوام التسعة الماضية، ولكن الوعد بتحرير السجناء لم يتحقق أبداً. وقالت سميرة باشمئزاز: «آه كم استغلونا». وبعد أن ضاق صدر الكثير من الفلسطينيين بأكاذيب قيادة منظمة التحرير، فقد أخذوا الآن يعتمدون على نشرات الأخبار الإسرائيلية فحسب، وأشارت سميرة وقد استشاطت غضباً إلى رابين على أنه القائد الوحيد الذي تثق به وقالت: «إنه يقول الحقيقة لشعبه».

ربما لم يهدأ روع أكثر الفلسطينيين بواسطة التصريحات الرسمية المسكّنة، إذ أنهم عرفوا بأن الاتفاق الذي تم التفاوض عليه سراً بين رابين وعرفات قد أشار إلى أنهم خسروا في الكفاح من أجل السيادة الفلسطينية، ولكنهم مازالوا لم يستنكروه، إذ أنهم قد ضاقوا ذرعاً، فقد أرادوا للكابوس أن ينتهي، أن أوسلو يعني عودة إلى وضع أقل فظاعة من الوضع الذي كان موجوداً في السابق، فبالوعود بمساعدات واستثمارات أجنبية هائلة، بدا أن المستقبل لم يكن معتماً تماماً، حتى وإن تكن الدولة لم تُكتسَب. كان موسى (الشيوعي السابق) قد استقال من حزب الشعب بعد أن ساند الحزب الاتفاقية، وقال أن قرار الحزب كان خيانة تامة لمبادئه ولمبادئ الحزب ذاته، ومع هذا فقد اعترف موسى بخجل بأنه هو أيضاً لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفكير بأن «أي شيء هو أحسن مما لديهم الآن».

تشككت سميرة أنه خلف النشوة الفورية، فإن الفلسطينيين قد شعروا باللوعة، وعلّقت: «لا يمكنك أن تتخيل كم كان الابتهاج بأوسلو

مبالغاً فيه، لقد كان الأمر وكأن الفلسطينيين كانوا يحاولون إقناع أنفسهم بشيء لم يقتنعوا به فعلاً». ربما كان ذلك أيضاً هو سبب الانفعال الذي أظهره المحتفلون بأوسلو للمعارضة التي كانت تظهر من حين لآخر، ولخنق أي شكوك مثبطة، فقد أرادوا من الفلسطينيين أن يشاركوا أجمعين، وكان ظهور مظهر واحد من المعارضة كفيلاً بأن يوقظ الشكوك. لم يردْ الفلسطينيون أن يعترفوا بأنهم خسروا، لذلك تظاهروا بأنهم كانوا من اليأس بحيث يحتفلون بأي شيء.

بينما كان أهالي بيت ساحور يمرون من تحت شرفة بيت آل ميخائيل في مسيرة احتفالية، بدأت شقيقة زوج سميرة تنشج من غير أن تستطيع السيطرة على نفسها، وصرخت، أنهم لا يستحقون تضحيات زوجها، والذي مايزال يقبع في السجن. أما كايد، فبينما كان يشاهد المراسيم في واشنطن على شاشة التلفزيون، فقد استسلم إلى دموع متفجّعة. من ناحية أخرى، فلقد جعل إعلان أوسلو المتعاونين السابقين مع الاحتلال في حالة من الغبطة، قام متعاون سيء السمعة بقيادة الاحتفالات في الخليل، وقد عُثر عليه ميتاً فيما بعد. ولم يطل انتظار المكافآت، فلقد منح عرفات أحد المتعاونين من أكثر المكروهين في مدينة الخليل والذي كان قد أطلق الرصاص على شاب فلسطيني وقتله، وظيفة في تونس، معلناً أن «ما مضى قد مضى». وتساءل موسى بصوت مسموع، ماذا تعتقد والدة الشاب القتيل بشأن عفو عرفات الملكي؟

في الوقت الذي وصلتُ به في كانون الثاني 1993، كانت المساندة لأوسلو قد هبطت بشدة، وبالرغم من أن منظمة عرفات، «فتح»، والأحزاب الحليفة مازالت تؤازر الاتفاقية، فلقد كان من الصعب عليهم تقديم حجّة إيجابية بخصوصها، قال أحد مؤازري

«فتح»، إذ احتدّ من تشككي، وقد كان يجلس متكئاً في محل التصوير المزدهر الذي يملكه (ويترأس أخوه منظمة «فتح» في الخليل) قال: «لقد تعبتْ إسرائيل وهي تنوي الرحيل، أنا أعرف ذلك، لقد أخبرني الجنود بذلك!» كانت الجهود للدفاع عن أوسلو بوجه ما يُحطّ من شأنها تعود بسرعة إلى حفنة الكلاشيهات الفارغة: «يجب أن نسير مع التاريخ»، «لا يوجد لدينا بديل، لا خيار». «علينا أن نتمسك بالأمل» وإلى آخره.

حتى دعم «فتح» لأوسلو، فإنه صادر بقدر ضئيل من الاقتناع، وكانت القشرة الرقيقة من التفاؤل المفرط تخفي لباً جرانيتياً من التهكم. ولقد أصبحت منظمة عرفات -ولربما كانت دائماً كذلك- نظام رعاية ضخم، ولقد كانت تتضح بالفساد. وحيث ظلت منظمة «فتح» محافظة على توازنها بينما كان الفلسطينيون على حافة هاوية اليأس، فإنها تدبرت أن تفسد الكثيرين، ولو أراد المرء أن يتنفس فقط، فعليه أن يستنشق الرائحة القذرة لـــ«فتح». بالرغم من أن نور يشمئز من «فتح»، إلا أنه قد انضم لها مع ذلك، ليحصل على رسوم الجامعة وثمن الكتب. كما أن بروفيسوراً معروفاً بعدم الكفاءة قد تم تهديده بالفصل، فانضم لـــ«فتح» للمحافظة على منصبه، ثم حصل على ترقية لاحقاً في القسم الذي يعمل به. أما وليد، فلكي يدرس فن التصوير السينمائي في كيبوتس إسرائيلي، كان عليه أن يلبي شرطاً مسبقاً أساسياً: الانضمام لـــ«فتح». سألتُ طلال، لماذا كان أهالي بيت ساحور يحيون اسم عرفات بأصوات عالية في التظاهرات؟ فأجاب: «لأن جيوبهم الآن ملأى». كان يمكن للمرء أن يقدم حجة مخففة (بكسر الفاء الأولى) هي أن الكثير من المدرجين على لائحة رواتب «فتح» كانوا قد تعرضوا لفترات طويلة من السجن، ومع هذا

فقد كان موسى لا يميل عن رأيه: «لقد كانت مسألة خيار مع ذلك، لقد أخذ بعض السجناء السابقين الرشوة، وبعضهم لم يفعل ذلك، أنا لم أفعل».

في الواقع، كان المرء يتأثر بواقع كم من الفلسطينيين وقعوا في مصيدة «فتح» -إذ أن الأوضاع كانت صعبة، وقد عانوا كثيراً- أقل مما يتأثر بواقع كم منهم وجد الوسائل المالية اللازمة لكي يرفضه. ولكن ما لم تحصل عليه «فتح» الصنارة، قد حصلت عليه بالعصا، فلكي يفوزوا بانتخابات مجلس الطلبة لجامعة الخليل، فقد أُعطي عدة مئات من الطلاب (ومن ضمنهم من كان قد تخرج فعلاً) دفعات رسوم الجامعة، من أجل أن يسجلوا ويصوتوا لـــ«فتح». ولم تكن «فتح» كذلك فوق استعمال ثنائي الجنس والتوظيف المغري لتضمن الأصوات الضرورية.

أثناء زيارتي في كانون الثاني 1993، كانت التقديرات لحجم المعارضة لأوسلو متفاوتة بشدة، وما كان من الممكن تقرير أي من التقديرات هو الأصوب، ولم يكن من الواضح دائماً ما هو سبب المعارضة، أهي نصوص الاتفاقية أم الإخفاق في تطبيقها، وكان يبدو أن معظم الاعتراضات ناجمة عن الإخفاق في التطبيق، ولو كان المال قد انهمر من المساهمين في الخارج، لربما كانت المعارضة بين فئات الفلسطينيين قد تبددت، وإن يكن بصورة مؤقتة. ولكن في هذه اللحظة فلقد كان السخط حقيقياً بما يكفي، وقد كان عرفات محوره في العادة. لقد صدّق الفلسطينيون الواعون سياسياً، وباقتناع تام، أغرب الإشاعات، مثل أن عرفات يهودي فعلاً، أو أن والد وعم عرفات كانا قد اغتيلا لتعاونهما مع الإنجليز، وأوسلو كان انتقام عرفات. وإن عرفات يتبع لحلقة التجسس ذاتها التي اخترقت القيادة السورية

العليا. (عندما سمع موسى العبارة الأخيرة علّق قائلاً: «إن عميلاً إسرائيلياً لن يكون بهذا الغباء»). وما كان يدور بين الناس كذلك، هو العدد الذي لا يحصى من النكات عن عرفات، ومعظمها فاحش. «لماذا رفضت زوجة عرفات أن ترافقه لمراسيم حفل التوقيع في واشنطن؟ لأنها كانت خائفة من أن عرفات سيتنازل عنها كذلك؟!».

عند سؤاله عن أكثر شيء يتمناه، أجاب العسكري السابق بـ«فتح» والعاطل عن العمل باقتضاب «موت عرفات». لم يكن كل التقريض بعرفات ينبع من دوافع غير مغرضة، فلقد استشاط أكثر من بروفيسور من بيرزيت لأن عرفات قد تجاهلهم في الترقيات.

لم يكن عرفات فقط، ولكن فإن أكثر الرموز قوة ودواماً، العلَم، قد تعرض للازدراء كذلك. في الواقع ليس بإمكان الزائر إلا أن يندهل من قلة الأعلام الفلسطينية المرفوعة في الضفة الغربية. لقد فقد الكثير من الفلسطينيين حياتهم أو تم سجنهم لرفعهم العلَم، وعندما أصبح ذلك مشروعاً وبعد انتظار طويل، أصبح بالكاد يُرى، وضّح موسى: «لكثير من الناس، لم يعد نفس العلَم» واعترف نديم عيسى غاضباً «في اليوم الذي تم فيه توقيع أوسلو، كنت خجلاً بالعلَم الفلسطيني، لقد كرهته». وقال كايد، باصقاً الكلمات: «بعد أوسلو لم يعد ثمة معنىً لشيء». والأسوأ من ذلك، أنه أصبح يمثل الهزيمة، الخيانة، خداع النفس. إن المرء يكاد يعرف بأن بيتاً يرفع العلَم الفلسطيني لابد أنه بيت لعضو في «فتح»، أو متعاون سابق، أو لشخص سخيف نوعاً ما. في الواقع، فقد كانت المفارقة أن ما انخرط الفلسطينيون من أجله لسنوات من الكفاح والتضحية، هو الآن رمز لا يساوي شيئاً: بدلاً من الدولة حصلوا على علَم. العلَم بدون الدولة كان نكتة سمجة، سخرية خفّاقة. إن هذه الرمزية الجديدة لم تفت

الإسرائيليين، ففي مظاهرة لمناهضي أوسلو رفع المتظاهرون علَماً أسود إلى جانب العلَم الفلسطيني كعلامة على الاحتجاج والحزن، ثم كان أن طلب ضابط إسرائيلي من منظمي المظاهرة أن يسلّموا له العلَم. فأذعنوا بعد تمنّع وسلموا له العلَم الفلسطيني، فقال الضابط: «لا، يمكنكم الاحتفاظ بهذا العلَم، أنا أريد العلَم الأسود».

كان انقلاب القَدَر هذا الذي تعرض له عرفات والعلَم إشارة إلى تغيير هائل في المجتمع الفلسطيني عموماً، فلمدة ست سنوات لاهثة، اعتلتْ عاطفة الفلسطينيين دولاباً متدحرجاً، متصاعداً بشدة نحو ذرى جديدة من الانتعاش، ثم تبع ذلك وبسرعة سقوط حر باتجاه يأس مذلّ: السنة الأولى البهيجة من الانتفاضة، ثم الإدراك المحض بأن الدولة ليست وشيكة، وعد صدّام بتحرير فلسطين ثم كابوس التدمير المنهجي للعراق، الآمال العريضة بمدريد ثم العوائد التافهة في أوسلو، وأخيراً، لا شيء، كفراغ الكهوف. وكانت النتيجة مجتمع بأزمة وجود، ويتعرّض للإفساد والانفكاك عن السياسة مجتمع محبَط.

بالرغم من أنه متشائم في العادة بشأن النجاح في المدى القصير، إلا أن موسى لم يكن أبداً بدون أمل، فقد كان هناك دائماً إمكانات خلق ما يلوح بالأفق، والآن فإن تشاؤمية موسى قد أُسقطت على ما بعد المستقبل القريب: فقد كان المستقبل بكامله بالنسبة له، فراغاً كبيراً، بل إنه قد أخذ يستسلم أكثر فأكثر إلى نوبات ليس فقط من اليأس، بل كذلك من رثاء الذات، وهذا ما كان يخالف شخصيته تماماً. ومثل ذلك فإن مدرساً في مدرسة ثانوية أخذ، بعد أن وجهتُ له سؤالاً عن الوضع السياسي، يدير الحديث إلى موضوع فلم شارون ستون، فسألته بانزعاج: «ألا تريد مناقشة سياسية؟» فأجاب: «من

أجل ماذا، نحن نتحدث ونتحدث ونتحدث، وهم يفعلون ما يشاؤون في كل الأحوال» واتفق معه زميله في الرأي وقال: «السياسة لم تعد في أيدينا، قبل ثلاث سنوات كان لنا قول، أما الآن فكلها تقف على رابين، عرفات والولايات المتحدة». لم يكن لأي من الذين قابلتهم أمنية للسنة الجديدة، وعندما وُجّه لعفاف، زوجة موسى، سؤال عما إذا كانت تريد أن تتمنى نهاية الاحتلال، أشارت برأسها، لا: وقالت: «أنا لن أخدع نفسي».

يخطط الكثير من الفلسطينيين، أو على أي حال يريدون، أن يغادروا المناطق المحتلة. في الواقع لو أن الأعداد المسموح بها من المهاجرين في دول الغرب (وخصوصاً الولايات المتحدة) قد توسعت، لربما كانت المسألة الفلسطينية قد حلّت نفسها بين ليلة وضحاها. في السابق، عندما كانت رنا تجلس مع أصدقائها حول الراديو، اعتادت أن ترفع هتافات التحية عندما تذيع إذاعة مونتي كارلو أخباراً عن أعمال مقاومة في بيت ساحور، وهي الآن تريد المغادرة إلى ألمانيا، وعندما أخذت تتذكر ذلك الصيف الذي أمضته هناك في بعثة دراسية، فإنها تنهدت بأسىً وقالت: «إنهم يعيشون حياة حقيقية». أما نديم عيسى فقد اعتاد أن يستلقي مستيقظاً في الليل ويحلم بدولة فلسطينية، وفي إحدى المرات انتفض غاضباً لمجرد التخمين بأن كثيراً من الفلسطينيين قد يفضلون الهجرة يوماً ما، ولدى سؤاله حديثاً عن خططه المستقبلية، أجاب نديم بلا مبالاة بأنه إن لم تُفتح فرص عمل في بيت لحم «ربما سأنتقل للعيش في الخارج». واعتاد نور أن يعبّر عن رغبته في البقاء بقرب عائلته وأصدقائه في مخيم الفوار، مزدرياً خرافة إغراء الغرب، ولكن السنوات القاسية والموحشة من البطالة قد أخذت منه كل مأخذ، فأثناء ما كان يرجوني لمساعدته في الحصول

على تأشيرة سفر قال متوسلاً: «إنها أملي الأخير». كما أن مديراً لمدرسة ثانوية، وقد كان يتشبث بقشة أن هناك ملاحق سرية من اتفاق أوسلو تعطي الفلسطينيين أكثر مما وُعدوا به رسمياً، قد صرّح ببساطة «إذا لم يكن الأمر كذلك، فسوف نغادر». أما سميرة التي تزدري الفلسطينيين الذين هجروا الكفاح السياسي، فقد اعترفت أنها هي أيضاً، قد فتحت الموضوع ببساطة مع أصدقائها المقربين متحدثين عن فرص الرحيل إلى مكان آخر في العالم العربي، وقالت: «كلهم ابتدؤوا بالضحك، ولكن بعد حين أطبق الصمت على الغرفة».

لم يكن كل الفلسطينيين شغوفين بتبصر الأفق البعيد، وهؤلاء الذين لم يكونوا كذلك، لم يروا أبعد من أرنبة أنوفهم على العموم. لقد حلّت المبادرة الفردية محل الأعمال الجماعية كطرق للخلاص: Sauve qui Peut وعلّق نديم عيسى بدفاعية نوعاً ما: «لقد سلم عرفات كل شيء، الأرض ومستقبلنا، لذلك فكل شخص الآن يبحث عن مصلحته، هل هذا خطأ؟» وأضاف «أنا بالتأكيد لن أخاطر بحياتي من أجل حكم ذاتي!» في الواقع، بالنسبة لأغلبية الطبقتين الوسطى والعليا من الفلسطينيين، والذين سعوا لأن يجدوا لأنفسهم مكاناً في الاقتصاد إذ أخذ بالصعود -أو كان من المفترض أن يأخذ بالصعود- فإن المستقبل لم يكن يبدو مقفراً تماماً، ولكنه كان مستقبلاً استثنى الكفاح الجماعي من أجل اكتساب الحقوق الجماعية. قبل عدة سنوات، كان مفيد حنا يريد فقط أن يقتل «اليهود الفاشيين»، وهو الآن منتج فيديو ناجح، وقال وهو مستغرق في التأمل: «على المرء أن يحدد لنفسه هدفاً شخصياً، وعليه أن يعيش من أجله، وإذا حققه تكون تلك هي السعادة» أما السياسة، أو على الأقل الطريقة التي كانت تمارس بها في فلسطين، فقد جعلته يشعر بالاشمئزاز، وقال مفيد حنا مغالياً:

«قال عرفات ألقوا حجارة، فألقينا حجارة، قال توقفوا فتوقفنا، هؤلاء القادة، كلهم سببوا لنا آلاماً، ونحن لم نستخدم عقولنا بتاتاً. نحن لم نفكر من أجل أنفسنا، عرفات ليس إلهاً، حبش ليس إلهاً» وأشار مفيد بإصبع السبابة إلى صدغه وأعلن: «أنا إله».

هؤلاء القلة من الفلسطينيين الذين مازالوا مكرسين للكفاح، بدا أنهم مساقون بالطاعة أكثر مما هم مُساقون بالقناعة. لقد كان في الواقع التزاماً ميكانيكياً، التزاماً بدون شغف أو جذور عميقة. عندما سُئل عدنان، طالب الجامعة التلحمي «النشط» عما إذا كان مايزال لديه أمل، أجاب: «ربما 3 بالمئة»، وفي هذه الأيام، فإن أغلب ما يفعله هو أن يتكاسل في غرفته ويقرأ الروايات. عندما حاولت أسرة سميرة أن تحشد الدعم للسجناء السياسيين، فإن حفنة من الناس فقط أزعجت نفسها بالمجيء، مع هذا فإن تظاهرة لاحقة في بيت ساحور لإطلاق السجناء، قد جذبت جمعاً غفيراً. لقد كان السبب هو حضور وسائل الإعلام، وفحّت سميرة: «لقد أتوا من أجل الكاميرات».

الاستثناء الرئيسي لكل ذلك السخط كانت «حماس»، الحركة الإسلامية. فبعدم اكتراث مطلق بالواقع، مازالت «حماس» تكافح ومازالت تتوقع النصر. وفي الواقع ربما كان هذا هو مصدر قوتها الأكبر، لأن تأمل الواقع كان يعني الخضوع له. لم تكن «حماس» مغتاظة من تقاعس الدول العربية أو اتفاقية أوسلو أو استئناف المفاوضات وانقطاعاتها.. فلقد كانت نظراتها معلقة على قوى الاحتلال، ولم يزغ نظرها عنهم بتاتاً، وكل طاقاتها مستغلة لإلحاق الهزيمة بهم. علّق قائد من «حماس» في جامعة النجاح: «نحن نعلم بأن خطة رابين السرية هي أن يقلب الانتفاضة إلى اقتتال أخوة،

ولهذا أراد من قوة البوليس الفلسطينية، التسبب بحرب أهلية، ولكننا سنهاجم الإسرائيليين فقط، ونحن لن نسقط في الشرك» وسألته، وكيف ستتجنب «حماس» ذلك؟ فسلم أن ذلك سؤال صعب جداً وقال: «ولكن الله سيرينا الطريق».

لقد أتى زخم «حماس»، كالحركة الشيوعية في الأوقات السابقة، من «الإدراك» بأن هناك تحت السطح المقفر «قوى أعمق» تعمل، وكانت للشيوعيين «القوانين الحديدية للتاريخ» أما للإسلاميين فكانت، الله. إن محاربي «حماس» يتفصدون بالصبر الواثق الذي كان للشيوعيين سابقاً: ربما لن يأتي العهد السعيد في حياتنا، ولكنه سيأتي «على المدى البعيد». وعندما ذكّرته بالتعليق الطريف المشهور للورد كينيس بأن «على المدى البعيد سنكون جميعاً أمواتاً» أجاب الإسلامي بتواضع: «ولكننا مدينون لأجيال المستقبل بأن نستمر بالكفاح». لقد كان بإمكان «حماس» أن تحشد الدعم ليس بسبب إيديولوجيتها، وهي تبسيطية، ولكن لأنها كانت تقوم بالأفعال. عندما سُئل قائد من «حماس» عما كانت الحركة الإسلامية ستفعله بشكل مختلف لو أنها قادت الانتفاضة، أجاب: «كنا سنقتل ثلاثين، وليس ثلاثة من المستوطنين». إن المنضمين الجدد يأتون غالباً من الطبقات الفقيرة وغير المتعلمة. كان الخيار واضحاً نسبياً: أن يلتهم المرء ذاته بالإحباط والمرارة، أو أن يقاتل.

بدا أن الفلسطينيين، عموماً، منقسمين إلى رأيين متعارضين تماماً بشأن «حماس». فمن ناحية، كانت موضع إعجاب كقوة فعلية تقاوم الاحتلال، فالعمليات العسكرية المستمرة لـ«حماس» ضد الجيش والمستوطنين قد حازت على دعم واحترام شبه عالمي. قال موسى: «إن المستوطنين سيفكرون الآن مرتين قبل أن يقتلوننا»

(الإجراءات العقابية القاسية لم تثبط بعد الحماس الفلسطيني لأعمال «حماس»). ومن ناحية ثانية، كان الخوف هو أن تثبت «حماس» نجاحاً أكثر مما يلزم، لقد أراد الفلسطينيون من «حماس» أن تقاوم، ولكن لا أن تنتصر فعلاً، لأن ذاك سيعني حكماً إسلامياً، كانت «حماس» جيدة كوسيلة، وفظيعة كنتيجة. في الواقع، لكثير من الفلسطينيين، فإن انتصاراً لـ«حماس» سيعني النهاية. لا يسع المرء إلا أن يعجب بوقار وزهد وكرامة وتركيز «حماس»، ولقد كانت فريدة أيضاً باهتمامها بالحاجات الحقيقية لحياة الناس، لهذا فإن شعبيتها تتزايد حتى في معاقل العلمانية، كجامعة بيرزيت، وفي هذا الصدد فهي تذكرنا من جديد بالحركة الشيوعية. ولكن، ويا للحسرة، فمثل الشيوعيين بإمكانها أيضاً أن تضيق بالنقد وأن تصبح غير ديمقراطية بشكل كبير.

عندما سُئل جمال أن يقدّر قوة «حماس»، أجاب بمزيج من التحفّظ والثقة، «إنها تنمو» (كان جمال واحداً من أربعمائة إسلامي أُبعدوا بالجملة في كانون الأولى 1992، وهو من قادة «حماس» الذين هم محط احترام في الخليل، وقد عاد حديثاً من الإبعاد)، وعندما سألته لماذا يرتعب الكثير من الفلسطينيين من «حماس»، وأصر «لأنهم لا يفهموننا» فتابعتُ بالسؤال -وبالمناسبة، جمال يعرف بأنني يهودي- «أليس صحيحاً أن «حماس» تنتهك الحريات الشخصية؟». فأشار باحتشام إلى مثال الخليل حيث لم يُفرض على النساء ارتداء الحجاب. فسألتُ: أليس ذلك لأن «حماس» ليست قوية بما يكفي لكي تفرض قيمها؟ «نحن نتدخل فقط عندما يتعرض الكفاح الشعبي للخطر».

ربما كان الأمر كذلك، ولكن من الممكن أن يكون تصور

«حماس» لما يعرِّض الكفاح الشعبي للخطر في غاية التعصب، ففي مرة تجاهل المحتفلون بعيد الميلاد إنذاراً نهائياً لـ«حماس» بألا يحتفلوا، بعد ذلك وُجِدتْ كل السيارات المصطفة خارجاً محطمة. كما حدث في الصباح الذي تبع حفل العرس الباذخ الذي أقامه الياس، إذ وجد تهديداً من «حماس» مكتوب بدهان الرش على بلاط صالة الحفلات. وعندما كنت أقترح أنه بافتتاح سينما وسط هذا الضجر والعتمة، يمكن لأي مستثمر أن يجني ربحاً جيداً، وكان رد الفعل المألوف «لكن «حماس» ستقوم بحرقها». في البداية المبكرة للانتفاضة، كان الإجماع الشعبي قد تبلور ضد أي شكل وأي نمط من الاحتفال، كان التحريم يخدم كميثاق للجدية الأخلاقية للأحداث وكإشارة احترام لهؤلاء الذي هلكوا خلالها. ولكن ذلك الإجماع كان قد كُسر منذ وقت طويل، لقد أراد الناس أن يعيشوا. إنه في وسع المرء أن يتعاطف مع جهد «حماس» للحفاظ على جذوة الانتفاضة، ولكن ليس بالأساليب التي اعتادت أن تمارس بها ذلك.

عند سؤاله عما إذا كانت الدولة الإسلامية ستقوم بكسر أي معارضة تتعهد بالفوز بالسلطة ديمقراطياً، أجاب عضو من «حماس»: «ليس هناك دولة تتخلى عن سلطتها بسلام، سنقاتل أي حزب ينزع لأخذ السلطة، بالضبط كما قاتلت الدولة الأميريكية الشيوعيين». وكان هذا التشبيه في محله، وإن كان من سوء الطالع. وكذلك للمقارنة مع الفتوى المعلقة فوق رأس سلمان رشدي، طرح: «هناك فرق بين احتمال رأي مناوىء من ناحية، وبين رأي مهين ومسبب للأذى من ناحية ثانية»، ثم قدم حجة مرة أخرى من خلال تشبيه يخلو من العيب، «أليست دول كثيرة في العالم تمتلك قوانيناً في الكتب ضد

التحريض العرقي والكراهية الدينية؟ قد يكون حكم الإعدام خاطئاً، ولكن ليس المبدأ الذي خلقه».

تثير «حماس» الرعب فقط لدى مفيد حنا: «كيف لي أن أدعمها؟ قريباً ستكون عدوي. في الحقيقة، عدوي الأول هي «حماس» وليس إسرائيل، فمع إسرائيل، أستطيع العيش بالنهاية، ولكن مع «حماس»، أبداً».

اقترح اسماعيل، القائد النقابي من مخيم الفوار، والذي يخدعك مظهره بأنه هشّ: «ما عاد الفلسطينيون ينظرون للانتفاضة بعاطفية، وإنما يحاولون أن يحللوها كموضوع خبرة شعبية»، مع هذا، وإن لم نقل ذلك، فمازال لديهم عاطفة قوية تجاهها.

معبراً عن عاطفة منتشرة، أعلن نديم عيسى بصورة قاطعة: «نحن دمرنا الانتفاضة». و«نحن» هذه تشير في العادة إلى منظمة عرفات للتحرير. وذكر أحد نشطاء بيت ساحور «القيادة السيئة، وليس القمع الإسرائيلي، هو ما حطم الكفاح» وقال، كان بإمكان الفلسطينيين التنقل بين خيارين متساويين بإمكانية تطبيقهما: مثال بيت ساحور، بمقاومة الضرائب اللاعنفية، أو مثال غزة بالمواجهات العنيفة. «لم تنجح إسرائيل تماماً بهزيمة أي من التحديين، ولكن ماذا فعل عرفات؟ لقد تبنى استراتيجية التنازلات، محاولاً إرضاء الجميع، وعلى ماذا حصلنا في المقابل؟ على مجاملة بأن الفلسطينيين كانوا - كما أخبر أحد الموظفين الرسميين الأميريكيين حنان عشراوي- «أكثر الوفود مرونة»!». أخذ موسى على منظمة التحرير، ليس أنها حرفت زخم الانتفاضة، ولكن إطالتها من دون جدوى. كان الفلسطينيون مستعدين في البداية لبذل المزيد من ذواتهم، ولكن منظمة التحرير،

وضعت كل إيمانها بالدبلوماسية، قد طلبت أقل. ثم تصرف عرفات وكأن الانتفاضة تستطيع البقاء للأبد، وكأن الفلسطينيين يملكون سعة لانهائية للتضحية. «لا أحد» شدّد موسى «أخذ عامل الوقت بالاعتبار، كان على منظمة التحرير أن تعلق العصيان بعد السنة الأولى أو على الأكثر السنة الثانية. وبدلاً من ذلك أتت المنشورات لتحمل أكثر الطلبات لاواقعية، كان هناك حديث عن «التصعيد» و«تطوير» الانتفاضة. ولكن لم يقل أحد كيف. لقد انخدع الناس بتصديق أن الانتفاضة مستمرة عندما كانت قد انتهت فعلاً. في النهاية كانت الانتفاضة ملهاة».

إلى جانب الخراقة السياسية، كانت المنظمة ملامة على تأثيرها المفسد. تتذكر سميرة، وهي تربط هزيمة الانتفاضة في بيت ساحور بدعم منظمة التحرير المالي أثناء الإضراب عن دفع الضرائب: عندما أتى المال منصباً من تونس، توقف الناس عن انتقاد عرفات، لقد اشترى ولاءنا، لقد أخذنا المال ودفعنا من حريتنا، خلد الناس للصمت، ولكن ليس من دون عار. في الواقع، وبينما كان أحد أهالي بيت ساحور الفخورين ممن أعرفهم يضع الرشوة في جيبه محساً بالذنب، فإنه أخذ ينسحب تدريجياً إلى التقوقع. «لقد خربنا كل شيء، كل المبادىء» أخذ اسماعيل يندب «مشاعرنا، وسلوكنا، كلها أُفسدت بالمال والسلطة، أنا الآن أثق بعدد قليل جداً من الناس». مع هذا، فباستثناء الحجم الذي كان عليه الفساد «يجب أن تتذكر أن كل شخص، بشكل فردي أو بالمجمل، قد شارك بالانتفاضة، وليس من الطبيعي أن نفترض بأن كل شخص سيبقى وفياً للقيم والمبادىء».

بالرغم من أنه كان نشطاً سياسياً منذ عمر مبكر، أقر موسى بأن الانتفاضة كانت كشفاً حقيقياً عن المدى الذي كانت عليه قذارة

اللعبة السياسية. «كنت لا أزال بريئاً قبل الانتفاضة، لم أكن أتخيل بأن القيادة ستستغل حتى دماء الشعب لمنافع شخصية. لقد قبضوا كل شيء وتركوا لنا، نحن جيش الانتفاضة، لا شيء» إن أكثر الأمور مرارة كانت السهولة التي تُشترى بها المبادىء وتباع. «كنت متأكداً من أن الحزب الشيوعي سيبقى ثابتاً، ولكن عرفات اشتراه أيضاً، ما عاد الشيوعيون يؤمنون بكلمة يقولونها، إنهم يقولونها فقط من أجل المال»، ومسقطاً من حسابه كل المنظمات الفلسطينية، صرح موسى برزانة: «إنهم يرتكبون جريمة بحق تاريخ فلسطين، لا أستطيع أن أنتمي لأي حزب سياسي بعد الآن، ليس منهم من يعبر عن مصالحي أو مصالح الناس، عليّ أن أنتمي للشعب»، في الواقع إن موسى يؤمن بأن «التجربة قد أثبتت أنه يمكن الثقة بالناس، الكثير منهم أصبحوا فاسدين، ولكن الأغلبية لم تفسد»، كما أن الضغط القاسي للاحتلال هو ما سبب الفساد الأخلاقي. «لا يمكنك أن تتوقع من الناس أن يظهروا القيم والمسلكيات الطبيعية في الظروف التي عشناها بالسنوات القليلة السابقة، نحن أناس عاديون، نحن لسنا قدّيسين» ثم تدخلت زوجته عفاف وقالت: «أعطني أولاً شيئاً لآكل ثم اطلب مني أن أكون أخلاقياً!».

لقد فعلت إسرائيل كذلك كل ما في وسعها لتضاعف التأثير المهلك للاحتلال، فلقد عيّنت أوغاداً غير أكفاء لملء المناصب العليا في كل المؤسسات الاجتماعية الفلسطينية، وعلى سبيل المثال، فلقد جنّدت إسرائيل محتالاً معروفاً يملك شهادة الثانوية فقط ليرأس إدارة التعليم في الخليل. ومن ناحية ثانية، ولكي يحافظ على الإمساك بروافع السلطة، فلقد وضع عرفات الكثير من هؤلاء الموظفين على لائحة رواتب منظمة التحرير. عندما بدأت الانتفاضة، فإن القيادة في

تونس قاتلت بشدة ضد أي تطهير داخلي حقيقي. ويقول موسى، «كان الموظفون الرسميون فاسدين وغير ديموقراطيين -ولكنهم كانوا في جيب عرفات. لقد أخفقت الانتفاضة لأن المؤسسات الفلسطينية لم تغير شكلها، وما كانت منظمة التحرير لتقوم بانتفاضة ضد نفسها».

كان موسى مقتنعاً بأن أكثرية الفلسطينيين يتمنون سراً لو أن الانتفاضة لم تحصل أبداً، وقد اعترف بصراحة: «لو كان لدي الفرصة أن أقوم بذلك مرة ثانية، لكنت سأعارض الانتفاضة لقد كانت حياتنا أفضل بكثير في السابق». في الواقع، عندما سألت موسى أن يعدد الأشياء الرئيسية التي حققتها الانتفاضة، فقد احتار وقال: «لم أفكر يوماً بأية نتائج إيجابية من الانتفاضة» ولكن وبعد لحظة تفكير أضاف، «مثل أية تجربة أخرى فإن الإيجابيات هي أننا تعلمنا دروساً» عارضه اسماعيل وقال: «بالرغم من أن الفلسطينيين قد عانوا بسبب الانتفاضة، فإننا كنا أصلاً نفقد مواقعنا شيئاً فشيئاً قبلها، وهذا بعد كل شيء ما كان قد أطلق الانتفاضة، علينا أن لا نفقد الرؤيا تجاه المصدر الحقيقي لتعاستنا، ليست الانتفاضة بل الاحتلال».

معتبرة أن الانتفاضة كانت: «أكثر اللحظات إشراقاً» في التاريخ الفلسطيني، تابعت سميرة بحذر: «كانت صائبة وكانت عادلة، وقد أدت دورها بصورة جيدة جداً. الشيء السيء كان أن توقعاتنا كان مبالغاً بها، كان الناس مشغوفين بالأمل، وآمنوا بأن التمرد سيقود للدولة» ثم حددت، لم يكن الجميع يفكرون بهذا الشكل، ولكن هؤلاء الذين يعلمون بشكل أحسن، لم يكونوا أقوياء سياسياً بما يكفي لكي يضعوا الانتفاضة على مسار أكثر جذرية «نضع ثورة حقيقية» ثم أخذت سميرة تنتقد أوهامها في هذا الصدد، وأخذت تتذكر «لم

أرغب أن أستمع للحقيقة، لقد أسأت حساب عناد إسرائيل، واعتقدت أنه بعد سنوات قليلة من الانتفاضة -احتجاجات، إلقاء حجارة- فإن الإسرائيليين سينسحبون، لقد كنت ساذجة، لقد اعتقدت أن الإسرائيليين كانوا أكثر سهولة، كان عليّ أن أستمع للأصوات القليلة التي كانت تقول الحقيقة، أنا لن أخدع نفسي ثانية».

«في النهاية» تستنتج سميرة: «استسلم الفلسطينيون ليس لأنهم شعب سيء، ولكن بسبب محدودية قدرتهم على القتال والتفكير» مع هذا، حتى سميرة تتمنى الآن لو الانتفاضة لم تحدث: «لقد كان وضعي أحسن قبل ست سنوات مضت، كنت أعيش تحت الاحتلال ولكن من دون محادثات سلام» ومُلمِحّة إلى اتفاقية أوسلو، علّقت بمرارة: «على الأقل في ذلك الوقت، لم يكن لدى الإسرائيليين وثائق قانونية تعطيهم حقوق في أرضنا، قبل ست سنوات مضت، كان اسمهم محتلين، والآن؟ حتى لم يعد مسموحاً لنا أن نقول إننا تحت الاحتلال».

في ليلتي الأولى في بيت ساحور قابلتني ابنة سميرة، رنا، ووضّحتْ أن الكثير من التغييرات قد طرأت منذ رحلتي السابقة، وأكدت بأن ما من أحد، وهي نفسها كذلك الأمر، عاد يكترث بالسياسة بعد، فالناس قد استسلمت. ولكن هل كانت تعتقد بأن الانتفاضة كانت جهداً ضائعاً؟ أطرقت بالتفكير لعدة لحظات ثم أخيراً هزّت رأسها بإشارة لا وقالت: «على الأقل لقد حاولنا».

* * *

القضية السياسية التي أثارت المخاوف والآمال بين الفلسطينيين كانت الديمقراطية. فأي مناقشة حول المستقبل

السياسي تتحول جذرياً وبسرعة إلى مناقشة حول الديمقراطية المنتظرة. لا يسع المرء إلا أن يعجب بالحجم غير العادي الذي كان الفلسطينيون منشدّين به لطريقة حياة كانوا نادراً ما ملكوا الفرصة لممارستها. ولربما تتوجب الإضافة بأن التقديس الذي يكنّه الفلسطينيون للديمقراطية لم يكن مجرد شعارات، لقد آمنوا بجوهر الديمقراطية الحقة.

«إن مسؤوليتي الأولى» تقول سميرة «هي أن أعلّم الديمقراطية لأطفالي وطلابي، ليس بالمحاضرات، ولكن بتطبيقها، هذا ما نفتقده نحن كشعب» وأكدت على أن الشعب الفلسطيني يجب أن يتجدد من جذوره، وعلى الأخص يجب تغيير طغيان رب الأسرة، ولا يمكن للمجتمع أن يكون ديمقراطياً إلا إذا كانت الأسرة ديمقراطية. «طالما بقينا نتبع أوامر أجدادنا وأعمامنا بشكلٍ أعمى، وطالما قبلنا عبارة «هكذا هي الأمور» عندما نتساءل بصدد أمر ما، فإن فلسطين لن تصبح أبداً ديمقراطية». في الواقع، وإذ كان جون ستيوارت مل ينتقد الأُسر المتمحورة حول الذكَر بوصفها «مدرسة الطغيان» فإنه قد اقترح في مقالته «إخضاع المرأة» إنه «إذا تأسس على العدل، فإن الأسرة ستكون المدرسة الحقيقية لفضيلة الحرية». ربما كان الأمر أكثر من صدفة أن سميرة كانت في ذلك الحين تقرأ كتاب جون ستيوارت مل «عن الحرية».

«في الحقيقة، عند المقارنة مع المجتمعات العربية، إننا ديمقراطيون جداً» أقرّت سميرة «على الأقل لدينا مناقشات حرة هنا» مع هذا، تابعت سميرة، المقياس هنا غير مثير للإعجاب، لكن الفلسطينيين فقط من تجاوزوه، «نحن نتكلم، ولكننا نهدد ونقتل أيضاً». في إحدى الليالي وجدنا، مفيد حنا وأنا، أنفسنا محاصرين

بين عصابتين متنافستين من مؤيدي «فتح» ومؤيدي الجبهة الشعبية، وكانوا على وشك المواجهة مسلحين بالهراوات. «هذه هي مشكلتنا» قال مفيد بسخرية «الناس يفكرون بهراوات». لاحقاً رويت الحادثة لرنا، فهمست بصوت شاك: «لهذا السبب أنا لا أريد دولة فلسطينية، وحقيقة أريد لإسرائيل أن تبقى، لأننا سننتهي بقتل بعضنا».

على الجانب المدين من سجلات حسابات الديمقراطية، على المرء أن يسجّل أيضاً انتعاش النزعة ضد الإسلام في بيت ساحور والتي أغلب سكانها مسيحيون، لقد اعتاد الناس في الماضي على تأليف النكات على حساب «تخلف» المسلمين في الخليل، والآن عاد الاستهزاء منهم بنفور أكثر من قبل. ربما كان الأمر مظهراً على القلق في مجتمع يتناقص عدده (إذ أن الكثير من المسيحيين قد هاجروا، وأكثر منهم من المتوقع أن يتبعوهم، في حين كانت فئات الحركة الإسلامية تتزايد بسرعة. ولربما كانت أيضاً مظهراً على تشظي وحدة الهدف والتي كانت قد أشعلت الانتفاضة، كان التعصب والإقليمية قد انغمرا بالحماس الشعبي العفوي للتمرد، وقد عادا للسطح من جديد. كان يتم لعن الشباب الآتين من الخليل باستمرار بوصفهم شرسين يترصدون فتيات بيت ساحور. لن يتمكن عدنان من أن يخبر عائلته بأنه وقع في حب فتاة مسلمة، «سيطردني أبي خارج البيت، حتى أصدقائي لن يقبلوا ذلك، ولا أي شخص من بيت ساحور كذلك»، إن والد عدنان أبعد ما يكون عن القروي الجاهل: إنه مدير مدرسة متقاعد، وقد أضاف حديثاً اللغة الإسبانية للغات التي يتقنها لكي يقرأ سرفانتس بلغته الأصلية[9].

أكد موسى، مشيراً إلى الانتخابات المفعمة بالحيوية والتي جرت في اتحاد المعلمين على أنه «لو أننا نعطى الفرصة، لأمكننا أن

نكون ديمقراطيين». بإمكان المرء كذلك أن يستشهد بالتسامح الهائل الذي ظهر في مدرسته الثانوية، فكل وجهات النظر التي من الممكن تصورها في الطيف السياسي داخل هيئة التدريس -من «فتح» إلى «حماس»، ومن المناضلين الشيوعيين إلى الأشخاص المهذبين غير المبالين- قد تم تمثيلها. كما أن المناقشات لم تصبح محتدّة أبداً لدرجة تجاوز حدود اللياقة. وكان هذا حقيقياً أيضاً في اجتماعات هيئات الطلاب في جامعة بيرزيت. يتمنى المرء لو الشيء ذاته يمكن أن يقال عن هيئة طلابية أو في قسم من جامعة من الجامعات الأمريكية العادية. في الواقع، حتى الاستجواب العدائي الذي قام به طالب يهودي من الولايات المتحدة، أثار عموماً استجابات ودية وصريحة من الفلسطينيين.

إذا كانت التوقعات بصدد الديمقراطية الفلسطينية معتمة، فإن ذلك ليس بسبب ضعف الأساس، بقدر ما هو بسبب روتين البنية الفوقية ثقيل الوطأة. لقد شاهدت نشرة أخبار تجريبية أنتجتها شبكة التلفزيون الفلسطينية التجريبية، وعرض الفيلم تقارير مليئة بالحقائق عن مصادرة إسرائيل لأراضي الضفة الغربية ومياهها، كما عرض نقاشاً شرساً بين مؤيد ومعارض لاتفاق أوسلو. «هذه هي الديمقراطية» هتف أحد المنتجين، بفخر وحماس بينما أومأ الآخرون مؤيدين، واتفق جميع المنتجين، أنه عندما تكون المسؤولية لعرفات، فإن شكل نشرة الأخبار الليلية سيكون متوقعاً تماماً: «عرفات في الحمّام، عرفات في غرفة العائلة، عرفات في المطبخ، والنهاية». ومن الجدير ذكره، أن اسم عرفات لم يذكر حتى، في نشرة الأخبار التجريبية.

قال موسى متفكراً، لو أن الفلسطينيين قد فازوا بالدولة في السنوات الأولى من الانتفاضة، لكانت الديمقراطية قد بدأت بمد

جذورها، «على الأقل لم يكن هناك تعارض أساسي بالمصالح بين القيادة والجماهير» ولكن منظمة التحرير الآن تتصرف بوصاية إسرائيلية، ولهذا فهي لا تمثل ولا تستطيع أن تمثل الشعب الفلسطيني «إن أوسلو خانت طموحنا الأساسي وحرمتنا من حقوقنا الأساسية، إن عمل عرفات الآن هو أن يفرض أوسلو، فكيف يمكن إذن أن تكون هناك ديمقراطية؟».

أكثر مما كانوا يتفجعون على ردة عرفات، فإنهم كانوا يتخوفون من توابعها، وأكثر ما ارتعبوا منه كان قوة الشرطة الفلسطينية والتي ستكون قريباً تحت إمرة عرفات. لا أحد ينكر أن الفلسطينيين، كأي شعب آخر، لديهم الإمكانية على التوحش على بعضهم. أشار موسى، مستذكراً أيام سجنه، إلى التعذيب الرهيب الذي قام به رفاق نزلاء في السجن ضد متعاونين مزعومين من الفلسطينيين. كذلك لم يكن هناك من ينكر بأن عرفات سيكون مستعداً وقادراً على استغلال وتوظيف تلك الإمكانية. منذ الآن فقد بدأت «فتح» فعلاً تصبح أكثر صرامة تجاه المعارضة، كان الفلسطينيون الذين رفضوا الانضمام للاحتفالات بأوسلو قد هوجموا بشراسة. ارتكب أحد السجناء السياسيين السابقين الغلطة بتعليق صورة قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، جورج حبش، على باب منزله، فقام عشرات من نشطاء «فتح» بالتمثيل به. قال عمر ساخراً من على فراشه في المستشفى «هؤلاء سيكونون الشرطة الفلسطينية» وبعد خروجه، استمرت «فتح» بتعقبه في الجامعة، ناشرين إشاعات خبيثة بأنه قد التقط عدوى السفلس، وكنتيجة لذلك، يخطط عمر لمغادرة الجامعة لمغادرة بيت لحم وفلسطين للأبد.

اقترح ابراهيم أبو لغد نائب رئيس جامعة بيرزيت، ناسباً

الخوف من شرطة عرفات إلى الدعاية الإسرائيلية، بأن الفلسطينيين قد تمثلوا لا شعورياً الافتراض الإسرائيلي العنصري عن «تخلف ووحشية العرب». إن القضية لم تكن ببساطة، طبيعة الفلسطينيين، ولكن بالأحرى فإنها كانت طبيعة المنصب الذي يُجنَّد الفلسطينيون لملئه. إن قوة الظروف ستتسبب بأن الشرطة الفلسطينية ستقوم بالتوحش. إذاً فما هو دورهم إن لم يكن تسهيل الاحتلال الإسرائيلي؟ في الواقع، فإن وزير الشرطة الإسرائيلي موشيه شاحال قد أعلن بأن قوة الشرطة الفلسطينية ستكون موضع ترحيب «حتى إن لم يتمكن رابين وعرفات من التوصل لاتفاق».

ما كان أكثر إزعاجاً للكثير من الفلسطينيين هو الحقيقة بأن السلطة القمعية ستمارس نشاطها بوجود حصانة، إن القيود المفروضة على إسرائيل بواسطة الرأي العام العالمي، وإن تكن ضعيفة، كانت قد لطّفت من وحشية الاحتلال نوعاً ما. والآن سيكون بوسع إسرائيل أن تختبىء خلف واجه فلسطينية، ويمكن للمرء منذ الآن أن يتخيّل الموظفين الإسرائيليين يتظاهرون باللوعة والعجز تجاه منظر «عرب يقتلون عرباً». لقد توقع قائد من «حماس» في جامعة بيرزيت بأن ضمّ الشرطة الفلسطينية إلى الاحتلال الإسرائيلي «سيضاعف اضطهاد الناس». وأشار ستيفان «مع الإسرائيليين، بإمكانك أن تقول ما تريد طالما أنك لا تفعل شيئاً، ولكن عندما تأتي شرطة عرفات، فلن يكون بإمكانك الحديث حتى في البيت» واتفق معه نور وأقر بأن «على ما تبدو عليه الأمور الآن، فإنني أفضل بقاء إسرائيل». هذه العاطفة كانت شبه كاملة (استثناء واحد يجدر ذكره، كان جورج حنا من بيرزيت، واقترح بأن قوة بوليس كبيرة ومسلحة ربما ستكون ورقة المساومة إذاً، وعندما، في نهاية فترة الخمس سنوات من المرحلة

«المؤقتة» من أوسلو، تعرض إسرائيل على الفلسطينيين لا شيء). قال موسى مستذكراً، إن الشرطة التي كانت موجودة قبل الاحتلال الإسرائيلي، كانت تقوم بكسر أجهزة الراديو للفلسطينيين الذين كانوا يوجهونها لالتقاط نشرات أخبار أجنبية. إن طلبات التوظيف المطلوب تعبئتها للخدمة في الشرطة الفلسطينية لا تبشر بالخير بالمستقبل أيضاً. لقد تم توجيه سؤال: «ما هو الأكثر أهمية لديك، حقوق الإنسان أم الدولة؟» وسؤال آخر أراد أن يعرف «لمن ستكون أكثر ولاءً، للقانون أم الدولة؟». من الواضح أن الجواب الصحيح في كلتا الحالتين «الدولة»، كما في عقيدة عرفات: «أنا الدولة».(بالفرنسية بالأصل)

توعد أحد رفاق عرفات في إحدى الليالي من تونس، بأن كل معارضة لحكم «فتح» سوف تسحق بقسوة، في اليوم التالي علّق خياط من الخليل بسخرية سوداء: « بدلاً من تجنيد جيش من الجنود لقمعنا، على عرفات أن يجند جيش من الأطباء النفسانيين لعلاج أمراضنا من الاحتلال»، هذا الخياط، وقد كان ناشطاً في الحزب الشيوعي منذ وقت طويل، أمضى في السجن سبع سنوات: «أنا لم أفكر قط بأن أرفع يدي أمام إسرائيل، ولكنني ربما أجد نفسي مضطراً لعمل ذلك أمام الشرطة الفلسطينية» ثم قال بيأس لاحقاً: «بالطريقة التي تتصرف بها «فتح»، ورغم أن إسرائيل لم تستطع أبداً أن تجبرني على الرحيل عن فلسطين، لربما أجد نفسي الآن مجبراً على الرحيل». حتى أن عضواً في حزب متحالف مع «فتح» قد سلم بأن «بعد أربع سنوات من الآن، ربما سنجد أنفسنا جميعاً في السجن».

«إن أهم أهدافنا في الكفاح مستقبلاً» أخذ اسماعيل يعدد:

«ستكون الديمقراطية، حقوق الإنسان، والحرية». مع ذلك فقد كان خائفاً من أن الثمن الذي على الفلسطينيين دفعه قبل تحقيق تلك الأهداف: «سيكون أعنف من ذلك، الذي دفعوه ضد الاحتلال - وضد بعض الفلسطينيين كذلك» كان موسى متشائماً بالقدر ذاته بصدد التوقعات لما بعد أوسلو: «إذا ساءت الأمور سياسياً، فأنا لست واحداً من الذين يتوقفون عن الكلام، أنا لن أسير مع القطيع، ربما سيحطمونني اقتصادياً، وربما جسدياً. لكن إذا اضطهدونا، فأنا لن أبقى صامتاً».

«أنا أشفق على الفلسطينيين الآن أكثر من أي وقت مضى» أخذت سميرة تتفكر في إحدى الأمسيات: «يبدو أنهم في غاية البساطة والسذاجة، لقد كنت أعتقد بأنهم أكثر تعلماً وذكاءً» ثم استمرت بالكلام بلهجة دفاعية: «أنا لا أحب التحدث عن شعبي بهذه الطريقة، وربما سأندم حتى على ذلك في يوم ما، ولكن من الصعب علي القبول بمدى محدودية الرؤيا التي لدى الفلسطينيين، فبالرغم من كل ما يرون ويسمعون، فإنهم مايزالون يصدقون بأن شيئاً ما سينتج عن أوسلو، ربما كان علي ألا ألومهم، ربما كانوا قد عانوا كثيراً بحيث أصبح كل ما يرغبون به هو التخلص من الأوقات الصعبة، ربما كان العبء كبيراً جداً، ربما علينا ألا نتوقع أكثر، خصوصاً وأن العالم كله ضد الفلسطينيين». وبعد أيام قلائل استذكرت سميرة كلماتها بأسف وأضافت: «ربما كنت شديدة القسوة على الفلسطينيين، أريد أن أصدق أنهم في أحد الأيام سوف يحررون أنفسهم من الأوهام التي يعيشونها الآن، مازال لدي أمل»، ومستدعية ذكر أخويها السجينين، أعادت سميرة برزانة: «طالما كان لدينا جلال وجمال والمئات، والآلاف مثلهم في السجن، مازال لدي أمل». وفي 25 حزيران 1994 أرسلت لي

سميرة ملاحظة موجزة: «جمال وجلال في البيت الآن، لقد أُطلق سراحهما في الخميس الماضي».

* * *

«للمرة الأولى أشعر بالتقدم بالعمر» كنت قد سألت موسى عن التغيير الأكبر في حياته منذ تقابلنا في المرة السابقة قبل سنتين ونصف، «تلك الثمانية وثلاثون سنة الماضية، كان يفترض أن تكون الأحسن في حياتي، مع هذا فأنا بصدق لا أستطيع أن أتذكر يوماً واحداً سعيداً، في الواقع، أجد عندي مشكلة في استجماع أي شيء، فاليوم أجهدت نفسي لمدة خمس دقائق ومازلت لم أتمكن من تذكر ما حدث بالأمس». هل ندم موسى على اختيارات حياته؟ «كان الأمر سابقاً أنني غير مكترث بالاهتمامات الدنيوية: ما يكفي من المال للطعام، للملابس.. ليس أكثر من ذلك، ولكن مازلت أؤمن بالأشياء ذاتها. في إحدى المرات عُرض علي منصب جيد جداً مع مكتب الأمم المتحدة هنا، ولكنني رفضته بناءً على مبدأ، كان ذلك المبدأ ضيق الأفق، ولكنني مازلت ملتصقاً به. أكنت على صواب أم خطأ؟ لم أعد متأكداً». أخذت زوجة موسى، عفاف، تتذكر وقالت: «في بداية زواجنا، لم يكن موسى في البيت أبداً، كان عنده إيمان كامل بالسياسة» واليوم، هي تعتقد، بأن موسى يثق بالناس أقل من قبل: «موسى الآن ينتمي للأسرة» وهنا تدخّل موسى ببرود: «ولكنني مازلت أنتمي للشعب أيضاً».

لقد أظهر موسى القليل جداً من الازدواجية في موضوع الإسرائيليين: «أنا أكرههم، أنا لم أكن كذلك[10]، والآن أنا فعلاً أكرههم، إنهم وحوش» واتفق معه صديق عمره ورفيقه إسماعيل

وقال: «أنـا الآن مقتنـع أكـثر مـن أي وقـت مضـى بأنـه ليـس هنـاك إسرائيلي واحد يفكر بروح إنسانية، إنهم يصبحون بشراً فقط عندما يعطيهم الفلسطينيون كل شـيء يريدونـه، الفلسـطيني الجيـد بالنسـبة للإسرائيلي هو المتعاون فقط».

«التـاريخ» قـال موسـى باكتئـاب: «لـن يتسـامح مـع مـا تم فعلـه لشـعب فلسـطين الـبريء، لـم يكـن الكفـاح متكافئـاً، ولـهذا خسـرنا، الشعوب الأخرى خسرت معارك، حروب، ولكننا خسرنا كل شـيء، لأن كل الناس كانت ضدنا، حتى قياداتها».

III . حُكم التاريخ

من الخصائص الجديرة بالذكر لـ«اهتياج الستينات»، يعلق نعوم تشومسكي، هو ذلك البزوغ للإدراك «الثقافي والأخلاقي» للكثير من مواطني الولايات المتحدة. ربما كان أكثر الأمثلة ظهوراً هـو الإدراك الحالي لما يتعلق بالغزو الأوروبي للأميركيتين، ففي تناقض ظاهر حتى للماضي القريب، فإن القليلين سيجدون عدلاً، دع عنك هذا النبل، في ذلك الفصل من تاريخ العالم. يمكن للمرء أن يتوقع بـأن الإسـرائيليين كذلك، سـوف يأسفون لما تم عمله للسكان الأصليين لفلسطين. فـي الواقع، فقد كان أسلوب وكذلك التبرير للغزو متشـابهاً بصـورة مذهلـة في الحالتين[11].

في كتابه السردي البارز (اكتساب الغرب)، فإن ثيودور روزفلت يمجّد: «انتشار الشعوب الناطقة بالإنجليزية على بقاع العالم المبـددة» بوصفـه «الملمـح الأكثر بـروزاً فـي تـاريخ العـالم» و«الأكثر امتـداداً فـي آثاره وأهميتـه». ليس هنـاك «فـترة من التوسـع العرقـي» كـانت بتلـك

«السعة أو السرعة» ولا يمكن أن تبدو بهذه العدالة. كانت الأراضي بكراً، ولم يكن للسكان الأصليين أي ادعاءات شرعية جوهرية بها، والمستوطنون البيض «قد انتقلوا إلى قفار غير مسكونة.. لم تكن الأرض في الحقيقة ممتلكة من أي أحد.. لم يطرد المستوطن أحداً من الأرض، الحقيقة هي ا، الهنود لم يمتلكوا أبداً حقاً شرعياً بالأرض»[12].

ولكن في تأويل روزفلت، فإن عجلة التقدم وليس العدالة ما يلوح ظاهراً بشكل أكبر، أو بصورة أكثر تحديداً، فإن التقدم كان هو المقياس الحقيقي للعدالة، فلقد كانت «رؤيا قصيرة النظر» أن «يتم الحديث عن كل حروب الفاتحين كشرّ لابد منه» إن «غزواً ما، يمكن أن يكون مفعماً بالشر أو بالخير للجنس البشري، وذلك بناءً على مقارنة قيمة الشعب الغازي والشعب المغزو» وفي حالة أميريكا الشمالية فإن المستعمرين وبصورة مشروعة «طالبوا بالقارة كإرث لهم» و«حاربوا بالنيابة عن مصير العرق» بينما هم يغزونها. «لقد كان مقدراً للقارة أن تكون إرثاً لأبنائهم ولأبناء أبنائهم» لأن ذلك «لمصلحة الجنس البشري» و«الحضارة». لقد كان «من الأهمية بمكان» أن يتم اكتساب أميريكا الشمالية بواسطة «شعب بارع» كهذا.

لقد آمن روزفلت «أنه لأجل خير العالم فإن الشعب الناطق بالإنجليزية بكل فروعه يجب أن يسيطر على أكبر قدر ممكن من سطح العالم» ولقد أقرّ «أن ذلك عنى ابتلاءً بشعاً وتعاسة (للشعوب الأخرى)» ولكن ذلك ثمن التقدم: «كان من الممكن للعالم ألا يتقدم للأمام أبداً، لو لم يحدث عزل وإقصاء الشعوب البربرية والمتوحشة كنتيجة للاستيطان المسلح في أراضٍ غريبة لشعوب تمسك بأيديها مصير الزمان». في الواقع كانت «نوبات اللوعة» من «العرق الأدنى»

هي «بالضبط، آلام المخاض لشعب جديد ونشط» لهذا ففي النظام العظيم للأشياء، لم ترتكب جريمة ضد السكان الأصليين لأميريكا الشمالية. «كانت العدالة في العمق إلى جانب المستوطن الرائد، لأنه من غير الممكن لهذه القارة أن لا تكون أي شيء سوى مسرح صيد لمتوحشين قذرين». لقد كان روزفلت واضحاً بخصوص مضامين الإبادة الجماعية لهذا المبدأ: «إن أكثر الحروب صلاحاً على الإطلاق من ضمن كل الحروب هي الحرب مع المتوحشين، ولو أنها كذلك عرضة لأن تكون الأكثر رعباً ولا إنسانية. إن المستوطن الفظ والشرس الذي يسوق المتوحشين من الأرض، يضع الإنسان المتمدن تحت دَيْن له» وأي ادّعاءات معاكسة هي ثرثرة لا طائل منها:

إنها في الواقع أخلاقيات ملتوية، فاسدة، وسخيفة تلك التي تمنع اتجاه غزو قد قلب قارات كاملة إلى مركز هائل ومزدهر لشعب متحضر. وعلى كل الرجال ذوي العقل والأفكار السديدة، أن يصرفوا بضيق صدر واحتقار كل الحجج بأن هذه القارات كان يجب أن تحفظ لاستعمال قبائل متوحشة مشتتة، والتي لم تكن حياتها إلا أقل معنى وتشتتاً وتوحشاً بعدة درجات، من حياة الوحوش البرية التي اشتركت معهم في ملكية مشتركة.

وبالمجمل «إذا نحن فشلنا بالتصرف بناءً على نظرية «الشعب المتفوق»، ..فإن البربرية والوحشية والعراقيل المشتتة سوف تعم أغلب الكرة الأرضية»[13].

لقد كان تبرير ونستون تشرشل للغزو اليهودي لفلسطين كرجع الصدى لحجج روزفلت، فبمقارنة العرب الفلسطينيين لكلب في مذود، يؤكد تشرشل:

«أنا لا أوافق على أن الكلب في المذود يملك الحق النهائي في المذود، حتى لو كان يضطجع هناك منذ زمن طويل. أنا لا أعترف بذلك الحق. أنا لا أعترف، على سبيل المثال، أن خطأً كبيراً قد حدث بحق الهنود الحمر في أميريكا، أو الناس السود في أستراليا. أنا لا أعترف بأن هناك خطأً قد حدث بحق تلك الشعوب بناءً على الحقيقة بأن عرقاً أقوى، عرقاً من درجة أعلى، أو على أية حال، عرقاً أخبر بشؤون الدنيا، لنصفَهُ لهذا الوصف، قد أتى وأخذ مكانهم»[14].

كان الفضل الأكثر شفاعة، كما يرى روزفلت، هو أن الغزو الذي قامت به الولايات المتحدة كان، بالطبع الأكثر رحمة بين الكل: «ليس هناك شعب غازٍ أو مستعمر آخر على الإطلاق، عامل مالكي الأرض المتوحشين بكرم كما فعلت الولايات المتحدة». ومثال على «كرم» حكومة الولايات المتحدة كان مصير قبيلة الهنود الشيروكي. في الواقع وبسماتها الأساسية، فإن عملية إزاحة الشيروكي تجسد مصير كثير من الشعوب التي تعرضت للغزو، ومن ضمنهم الفلسطينيون. ولهذا السبب فإن تفحصاً مفصلاً لمصير شعب الشيروكي بعلاقاته مع المستوطنين المتاخمين وحكومة الولايات المتحدة، يخدم كمثال موازٍ لمصير الفلسطينيين في صراعهم مع المستوطنين اليهود وإسرائيل. وبالرغم من أن العمليتين متباعدتان جداً بالزمن، والمكان والثقافة، فإن هناك تشابهاً مدهشاً في الخطاب، والتكتيكات، والتبريرات القانونية، وسعة العنف لكلا النظامين الغازيين[15].

عشية الاجتياح الأوروبي، كان تعداد شعب الشيروكي، ربما يبلغ الـ 30.000 واحتلوا ما يقارب 124.000 ميلاً مربعاً، وخلال القرن

التاسع عشر، تضاءل تعدادهم إلى ما يقل عن 13.000 ومناطقهم إلى ما لا يزيد هم 17.000 ميل مربع، وخلال قرن آخر، كان الشعب الشيروكي قد جرّد بالكامل تقريباً، ومازال تعداد سكانه لم يصل إلى مستويات ما قبل الاجتياح[16].

لقد قام الشيروكي بأول اتصال مع مستعمرة إنجليزية في منتصف القرن السابع عشر، وكانت مستعمرة فرجينيا قد أنهت حديثاً نزاعاً مميتاً طويلاً مع شعب البوهاتان، والذي يستبق مصير الشيروكي. وليس من الصعب كثيراً أن نجد أن حرب الإنجليز – البوهاتان الثانية، هي عبارة عن نموذج مبكر للحرب الإسرائيلية – العربية في العام 1948 كذلك الأمر، فمستخدمة لهجوم هندي كذريعة، فإن مستعمرة فرجينيا قد أعلنت الحرب و، بكلمات كيركباتريك سال، «أخيراً، انتهجت سياسة مصادرة كامل الأراضي وترحيل السكان، ولطالما تمنّت أن تنتهجها» وكما يستذكر أحد المستعمرين:

> **نحن، الذين امتلكنا حتى الآن، أرضاً ليست إلا ما لا يستخدمونه وما قمنا بشرائه.. ربما الآن بحق الحرب، ويقانون الشعوب، اجتحنا البلاد ودمرنا اولئك الذين يسعون لتدميرنا: ووفقاً لهذا، علينا أن نتمتع بأماكنهم المحروثة.. ونمتلك نتاج عمل الآخرين. الآن فإن أراضيهم المفرغة في كل قراهم (والتي تقع في أخصب الأماكن على الأرض) سوف تُسكن من قبلنا[17].**

تجنباً للذوبان بالسكان المحليين، فإن المستعمرات الإنجليزية الأولى (بعكس الفرنسية والإسبانية) قد انتهجت سياسة التطوير المنفصل[18]. وبالرغم من الخطاب الرسمي، فإن الأسلوب الأساسي

ذاته قد تمت متابعته من الأميريكيتين قبل وبعد الثورة. وكتب رونالد ساتز، «فعلياً، فإن كل رئيس أميريكي منذ تكوّن الحكومة، قد فكر جدياً في إمكانية نقل الهنود إلى مناطق خارج حدود الولايات المتحدة الجغرافية» وعلى سبيل المثال، فإن جورج واشنطن كان يتخيل «سوراً صينياً» ليبقي البيض والهنود منفصلين[19].

في العام 1721، ومن خلال معاهدة مع مستعمرة كارولينا الجنوبية، فإن الشيروكي قد أُجبروا على التخلي عن أراضي للمرة الأولى في تاريخهم. وما كُتب في هذه المعاهدة وكل المواثيق المتتابعة كان تنويعات على نفس الفكرة الرئيسية «سلام دائم من الآن فصاعداً» بين الولايات المتحدة وأمة الشيروكي. وكما علّق القائد الشيروكي ريتشارد ماك بسخرية ومرارة قائلاً: «كل عبارة عن الصداقة تكون متبوعة بوصف لما تأخذه الحكومة من القبيلة». وتلخيصاً لفترة ما قبل الثورة، يكتب جيمس موني أن «مد الهجرة (من البيض).. اندفع متجاوزاً الجبال بالرغم من كل الجهود لكبحه، وكانت الفترة.. قبل كل شيء، بارزة بعدد من معاهدات التخلي عن الأرض من قبل الهنود، وكلها كانت مساعٍ دون جدوى للاتفاق على حاجز دائم بين أنفسه ومستعمرات البيض التي تتقدم»[20].

لكن التركيز على انتهاكات المعاهدات حصراً، عبارة عن تضييع للنصف الأهم من القصة، لأن المعاهدات نفسها كانت، وكان يجب أن تكون، نتيجة الإكراه. يعلق رونالد ساتز: «إن المفوَّضين الحكوميين قد استعملوا القوة، والرشوة، والخداع، والتهديدات، من ضمن أشياء أخرى، لإقناع القادة الهنود بأن يوقعوا على معاهدات تخلي عن الأرض»، هذه التكتيكات تدل على الحقيقة العامة بأنه باستخدام القوة فقط، استطاع المستوطنون البيض أن ينتزعوا الأرض من

السكان الأصليين، وبكلمات سيردد صداها القادة الصهاينة في فلسطين بعد عقد من الزمان، فإن روزفلت يُقر بأن:

تحت الظروف الفعلية للمستوطنات، فإن الحروب كانت محتومة، لأننا إذا أقررنا بأن أرض الهنود كان يجب أن تأخذ وأن القارة كان يجب أن تُستوطن من قبل رجال بيض، فإنه من الواجب الإقرار كذلك بأنه ما كان بالإمكان للمستوطنات أن تصير إلا بعد الحرب.. ما كان من الممكن باشتراك أية ظروف أن نحرز امتلاك البلاد إلا نتيجة للحرب، أو كنتيجة لسلم يُحرز خوفاً من الحرب.

بناءً على ذلك، فإن روزفلت يؤكد بأن التمييز بين اكتساب الأراضي المتخلى عنها بواسطة المعاهدات، من ناحية، وبواسطة الحرب من ناحية أخرى، كان تمييزاً مصطنعاً. ففي كلا الحالتين، فإن مؤرخي الغرب الأميريكي يقرون بحرية (على العكس من المؤرخين الصهاينة)، بأن ذلك كان فعل غزو:

عند النظر للأمور من زاوية النتائج النهائية، كان هناك فرق ضئيل للهنود، عما إذا كانت الأرض قد أُخذت بواسطة معاهدة أو بالحرب.. ما من معاهدة كانت مرضية للبيض، وما من معاهدة خدمت حاجات الإنسانية والحضارة، إلا إذا أعطت الأرض للأميريكيين، كما يكون الأمر تماماً في أي حرب ناجحة. والأمر الحقيقي، أن الأراضي التي ربحناها من الهنود كانت قد رُبحت بالمعاهدات بمقدار ما ربحناها بالحرب، ولكنها كانت الحرب بالغالب، وإن لم يكن كذلك، فالتهديد واحتمالات الحرب، هو ما أمّنت المعاهدات[21].

كانت مقاومة الشيروكي لتوسُّع المستوطنين تُستنكَر بوصفها «وحشية» - إرهاب الأمس. ويلاحظ ريجينالد هورسمان: «بينما قاتل الهنود بيأس للمحافظة على الأراضي التي عاشوا عليها من تجاوزات البيض، فإن أعمالهم «الوحشية » كانت تستخدم لشجبهم.. إن العنف الذي كان يتولد عن تقدم البيض قد استخدم لشجب الهنود الذين كانوا قد استثيروا كي يقاوموا». إن هيلين هونت جاكسون قد عبّرت عن ذلك مستهجنة استعمال نعت «فظاعة الهنود» في الوثائق الرسمية لوصف مقاومة الشيروكي وقالت: «القلة القليلة ممن قرأوا هذه السجلات قد وجدت أن الهنود الذين ارتكبوا تلك «الفظاعات» كان ببساطة يتم طردهم بالقوة، وفي النزاع الناشىء عن هذا الطرد بالقوة، يقتلون الرجال الذين اغتصبوا وسرقوا أراضيهم.. كيف كانت جماعة من الرجال البيض ستتصرف، لو كان قد تمّ وضعها بالضبط في الموضع الذي كان به الشيروكي؟ «في الواقع، ففي مجموعة ليست غير مألوفة من المصطلحات المحيِّرة، فإن اعتداءات المستوطنين الذين شاركوا في التعديات قد استُحسنت بوصفها «رجولة وبسالة» كما أن «لغة الدفاع عن النفس» التي صاغها مايكل بول ورجن، قد استخدمت بواسطة المستوطنين لكي «يحجبوا نواياهم العدوانية»[22].

عشية حرب الاستقلال، وفي الحين الذي كان بوسع المستوطنين فيه يتتابع بسرعة، فإن أمة الشيروكي قد بنت قضية مشتركة مع البريطانيين، ويقرر روزفلت بصراحة «بالنظر للوراء، من السهل أن نرى أن الهنود كانوا الخصم الطبيعي للشعب الأميريكي، ولهذا فإنهم الحلفاء الطبيعيين للحكومة البريطانية.. فزعين من تعديات البيض، فإن الشيروكي قد تم دفعهم إلى حمل الفؤوس تحت إمرة البريطانيين». وقال أحد المحاربين نادباً وهو يستعد للانضمام

إلى صفوف الملك جورج: إن شعبه «لم يمتلكوا إلا رقعة صغيرة من الأرض تركت لهم ليقفوا عليها، وإنه يبدو أن نيّة الشعب الأبيض هي أن يدمروهم حتى لا يظلوا شعباً»[23].

إن حرب الاستقلال الأميركية، مثل الإسرائيلية، كانت أيضاً حرب غزو قاسية، ولقد احتوت «خصيصة ثنائية» على حد تعبير روزفلت، «لأنه من ناحية، فإن الأميريكيين قد ربحوا بالغزو والاستعمار أراضٍ جديدة لأبنائهم» («وادي أوهايو كاملاً ووادي الينوى كذلك») «ومن الناحية الثانية، وطّدوا استقلالهم القومي عن المَلِك البريطاني». إن المستوطنين الأمريكيين، مستخدمين اندلاع العداء كذريعة، قد شنوا حرباً «بلا رحمة» ضد الشيروكي. وكتب ثيرمان ويلكنز: «لم يكن أي فعل بدائي يعتبر شديد البربرية بالنسبة للرجال البيض لكي يتبنوه، حتى أنهم طوروا تحسينات من صنعهم». ومدعية الفضيلة، فإن السلطات الثورية، وفقاً لما كتب موينى: «قد شجعت رسمياً عادة سلخ جلدة الرأس البربرية» وهو يضيف للأهمية: «وبالرغم من كل المرارة التي أطلقتها الحرب، يبدو أنه لا يوجد في السجلات، أي ذكر لحادثة سلخ جلدة رأس لأي من المحافظين البريطانيين أو أي من البيض الآخرين بواسطة الأميريكيين». (إن ازدواج المعايير العنصري ذاته ثابت على مدار التاريخ الأميريكي، فبالنظر لفظاعات الولايات المتحدة خلال الحرب مع اليابان، فإن جون دوير يعلّق: «إنه في الواقع مما لا يتصوره العقل.. إن الأسنان، الآذان، والجماجم كان يمكن جمعها من قتلى الحرب الألمان والإيطاليين، ثم يتم عرضها في البلاد الأنجلو- أميريكية دون أن يثير ذلك اهتياج غضب»). لقد استثمروا قائد كارولينا الهويغي❖ وليم هنري دريتون: «تجدد أعمال عدائية من فئة قليلة من الشباب» في

العام 1776 لكي: «يعطي تعليمات بالإبادة الجماعية» ضد الشيروكي، وأعطى الأمر للقادة العامين بأن: «قوموا بعمل كامل حين تتقدمون، أي تقطيع كل حقل ذرة للهنود، وحرق كل بلدة هندية». مستذكراً هجوماً مفاجئاً مع حلول الفجر على قرية للشيروكي في العام 1782، فإن الضابط الآمر يتبجّح بأنه وبينما أخذ القرويون بالفرار:

> **انطلق الجنود عموماً في فصائل وطاردوا الهنود مقطعينهم بسيوفهم، وإذا أخطأت ضربة الهدف، فإن ضربة ثانية وثالثة من بعض الآخرين تقوم بالعمل. أحدهم ويدعى ويليام جرين، وهو رجل شديد الضخامة والقوة، وسيفه هائل الحجم، كان يفلع رؤوس الهنود الهاربين وكأنها حبات قرع كثيرة. أما الشاب زاك كلارك، والذي لا يزيد عمره عن 17 أو 18 عاماً.. والذي ميّز نفسه بشكل خاص في مطاردة وقتل العدو.**

إن الشاب الممتاز القاتل، زاك كلارك، قد أصبح لاحقاً حاكماً لفرجينيا، كتب أحد الضباط إلى جون هانكوك وروى كيف تجمّعت جماعات من المستوطنين لينكّلوا حتى بالهنود الأصدقاء في الأراضي التي يصطادون فيها، وكذلك أنه «ليس من غير الشائع أن تسمع حتى أولئك الذين استطاعوا أن يعرفوا أكثر، يعبرون عن رغبة مضطرمة لحرب مع الهنود، بسبب الأراضي الجيدة التي يمتلكها هؤلاء الناس المساكين»[24].

عارضين أنفسهم كضحايا أبرياء يائسين ومستائين من السلام، فإن المستعمرين الأميريكيين قد ادّعوا أن الحرب التي قاموا بها ضد الشيروكي إنما كانت دفاعاً عن النفس. لقد كانت إسرائيل في العام 1948 (وبعد ذلك تقرأ من نص قديم. أثناء تفاوضه مع مستوطني

كارولينا في العام 1777، فإن القائد الشيروكي كورن تاسيل قد تطلع بحقد إلى ادّعاء الأميريكيين بالبراءة: «أنتم تريدون أرضنا فقط وليس صنع السلام». في الواقع فإن الأميريكيين قد ضغطوا لكي يتخلى الشيروكي عن مناطق تم غزوها أثناء حرب الثورة. ولم تستطع أمة الشيروكي مع هذا أن تستوعب كيف أن هروب السكان الأصليين من حرارة المعركة، قد أعطى الأميريكيين حقاً شرعياً بالأرض: «لا أستطيع أن أفهم كيف لهم أن يطالبوا بالأرض لهذا السبب، وكأننا نحن أيضاً سقنا الناس البيض من بيوتهم». ولكن قوة المنطق قد أثبتت أنها لا تكافىء منطق القوة. يلاحظ روزفلت مستذكراً المفاوضات مع بريطانيا والتي أنهت حرب الاستقلال:

> **لقد كان الاحتلال الفعلي والتمسك بالبلاد، هما ما أعطيا دبلوماسيينا موقع الأفضلية. إن سلام عام 1783، بقدر ما أثر على حدودنا الغربية، لم يفعل أكثر من تأميننا بملكية بدون إخلال الأراضي التي ثبت أنه من المستحيل طردنا منها.. لقد حصلنا على ما حصلنا عليه بسبب فوزنا وتمسكنا به فقط.**

إن استراتيجية روزفلت والتي دعاها الصهاينة لاحقاً: «بناء الحقائق» لم تتعرقل بواسطة التمحيص في الأمور الشرعية، ويقول: «ليس هناك على الإطلاق معاهدات تعتبر موجبة على الدوام.. قد تظهر ظروف تجعل ليس فقط من المفيد بل من الحتمي ومحط التقدير، أن نبطلها».

إن الصيغة الصهيونية من تلك العواطف تتلخص بتحذير بن غوريون الشهير بأن «ليس المهم ما يقوله الأغراب، المهم هو ما يفعله

اليهود»، أو كما عبّرت عن ذلك جولدا مائير «الحدود هي حيث يعيش اليهود، وليس حيث هناك خط على خارطة»[25].

كانت المعاهدة الأولى الموقعة بين الشيروكي وحكومة الولايات المتحدة الجديدة، في هوبويل، كارولينا الجنوبية (1775) قد أجبرت الهنود على التخلي من جديد عن أراضٍ واسعة. ووعدت بأن «البلطة» سوف «تدفن»[*] للأبد بين الولايات المتحدة والشيروكي». إن المعاهدة لم تفعل سوى أن دفعت المستوطنين البيض إلى اعتداءات جديدة على منطقة الشيروكي. وبالرغم من أن وزير الحرب هنري نوكس قد استنكر «الانتهاكات المشينة لمعاهدة هوبويل «فإن حكومة الولايات المتحدة كانت ماتزال تطالب بتخليات جديدة من الشيروكي في معاهدة هولستون (1791، «يعلن سلام دائم بين الولايات المتحدة وأمة الشيروكي.. تضمن الولايات المتحدة بجدية للشيروكي كل أراضيهم التي لم يتم التخلي عنها في هذا النص»)، ومع هذا فمرة أخرى في معاهدة تيليكو (1798، «يجدد السلام والصداقة دائمين.. تبقى حدود الشيروكي هي ذاتها، ماعدا ما تم تغييره في هذه المعاهدة. ويتخلى الشيروكي عن.. »). وقد أجريت ما بين عامي 1785 و1835 ستة عشر معاهدة «دائمة» تضمن «سلام وصداقة» والتي «تضمن بجدية» الـ«أراضي التي لم يتم التخلي عنها هنا»، ووقعت هذه المعاهدات بين الشيروكي وحكومة الولايات المتحدة[26].

مستوعبين بسرعة لأعراف وزخارف «التحضر»، فإن أمة الشيروكي قد تطورت بحلول عام 1830 إلى مجتمع تغلب عليه الزراعة وذي هيكل قانوني مما صنع منه «صورة عن الجمهورية الأميركية»،

[*] (دفن البلطة) تعبير يُقصد به دفن الأحقاد. (المترجم).

وعلق المشرف الأميريكي على التجارة الهندية وقال: «إن الشيروكي متقدمون على كل القبائل الأخرى، ويمكن اعتبارهم شعباً متحضراً»، وعند إلقائه خطاباً أمام مجلس الوزراء، فإن جون س. كالهون يوضح أن الشيروكي «كلهم مزارعون، ولهم حكومة تمثيلية، ومحاكم قضائية، ومدارس راقية وملكية دائمة») ومع هذا فإن كالهون قد أوضح تماماً أنه بعيداً عن كون ذلك نعمة، فإن «تطور الشيروكي في الحضارة» كان «صعوبة كبيرة» لأنه بانتباههم للدعوة «بتحضير» أنفسهم، فإن الشيروكي، كما يعلم الجميع، قد أصبحوا أيضاً «مرتبطين بالأرض بقوة». ومع هذا فقد كانت الولايات المتحدة عازمة ليس على استيعابهم، بل على طردهم. من الواضح أن أمة الشيروكي كانت قد تعاطت العلاج الرسمي للولايات المتحدة حرفياً ولكن أكثر من اللازم. وفي نقاش الكونغرس اللاحق بشأن ترحيل الشيروكي، خطب سيناتور رود إيلنر: «أيها الهنود ذوو الحظ السيء! إن البربرية ومحاولة التحضر سيان عندكم، فكلاهما يستبيحان حقوقكم، ولكن محاولة التحضر هي الأكثر استباحة بين الاثنتين»[27].

ابتداءً بجفرسون، فإن كل الإدارات الأميريكية وقادة المعارضة الرئيسيين قد تصوروا أن نقل السكان إلى غرب نهر المسيسيبي هو «الوسيلة الرئيسية» (وهنا نستعير صياغة بيني موريس في السياق الفلسطيني) لحل مسألة الشيروكي. لقد طمعت الولايات الجنوبية بالمناطق الواسعة التي تتوفر بها التربة السطحية، والخشب الخام، والاحتياطات المعدنية (كان الذهب قد اكتشف في نهايات عقد الـ 1820 آت) في منطقة الشيروكي. ولكن الشيروكي تعهّدوا علناً بأنهم سيقفون صامدين ضد أي انتهاكات جديدة. وتُعلِّق هيلين هونت جاكسون: «كان مصير الشيروكي قد

تحدد في اليوم الذي أعلنوا فيه، مرة وللأبد، وبصورة رسمية تامة، بأنهم لن يبيعوا قدماً مربعاً آخر من الأرض». ثم أقر الكونغرس سلسلة من الإجراءات ليسهل عملية ترحيل الشيروكي، تلك التشريعات القانونية تُوّجت بفعل ترحيل الهنود في العام 1830، والذي وإن كان قد صيغ بلغة جعلته يبدو وكأنه إرادي، «كان مفهوماً جيداً» بأنه قصد بأن الشيروكي «ليس لهم خيار». والأكثر من ذلك، أن الإبعاد كان مقدراً له أن يكون شاملاً، فلم تكن أراضي القبيلة المستخدمة في الزراعة ما كان مدرجاً على قائمة الترحيل، بل كذلك تلك القطع القليلة التي كانت مملوكة ملكية خاصة. كان العرض الأخير الذي تقدم به قادة الشيروكي هو أن يذوّبوا الأمة وينضموا إلى الاتحاد كمواطنين منفردين وصغار ملاّك للأراضي، وهكذا يُفسح المجال لعرض أراضي القبيلة الأساسية للبيع، ووقع هذا العرض على آذان صمّاء. ومستذكراً بأنه قد تم نصح الشيروكي بأن «يتصرفوا بطريقة البيض» لمستقبل آمن، فإن وزير الحرب جيمس باربور قد شدّد على نفاق الجهود الجارية لترحيلهم: «إنهم يرون بأن إقراراتنا مُنافقة، وأن وعودنا قد نُكثت، وبأن سعادة الهنود هي تضحية بسيطة من أجل امتلاك أراضٍ جديدة»[28].

يعلّق دي توكفيل، إنه طبقاً لمبدأ «الطرد الكامل» للشيروكي فإن الولايات الجنوبية سنّت إجراءات «مستبدة» وأصدرت مراسيم «اعتباطية». وكان الهدف -كما هو الحال مع حكم إسرائيل القمعي لفلسطينيي الضفة الغربية وغزة- هو «لايصالهم لمرحلة اليأس وإجبارهم على الرحيل». كانت الاستراتيجية الأساسية محكمة وواضحة لاحقاً بواسطة أندرو جاكسون، الذي سعى لطرد الشيروكي

بترخيص من حكم القانون: «يجب أن تزيلوهم بواسطة التشريع، اتخذوا ولاية قضائية على بلادهم، وأشعلوا الحرائق حولهم، وفعلوا بشكل غير مباشر ما لا تستطيعون فعله مباشرة».

مع توسيع قانون جورجيا إلى أراضي القبائل، فقد تُرك الشيروكي -وبكلمات أحد المتعاطفين معهم من الكونغرس- «تحت رحمة مثيري الشغب، وخنجر كل وغد مجرَّد من المبادىء في المجتمع». ثم أخذ المستوطنون البيض «بوضع أيديهم على أراضي الهنود ومواشيهم وتحسيناتهم، وأجبروا الهنود على توقيع عقود بيع، وساقوهم إلى الغابات، وحازوا على منجم من الثراء في أرض خيالية، وكان الهنود المحتجون يجلدون أو يهددون». ويستعرض دي توكوفيل «كان السكان الأصليون ضحايا لإساءة استخدام القوة بشكل يومي». وقال أحد المعاصرين نادباً، بأن الشيروكي «قد أُرهبوا ورُوِّعوا وخُدعوا وأصبحوا يشعرون بأنهم لا يملكون حماية ملائمة في الولايات المتحدة ولا سعة لهم على حماية أنفسهم». وكتب جرانت فورمان في سرده العام: «كان الاضطهاد يُطبّق بلا رحمة لتحطيم أرواح الشيروكي الذين رفضوا ترك بيوتهم» حتى أن ولاية جورجيا قد ادّعت أن لها حقاً شرعياً محصوراً عليها، لاستثمار المصادر المعدنية التي لا تقدّر بثمن والموجودة في أراضي الشيروكي- وبالتحديد، رواسب الذهب المكتشفة حديثاً. وبتحكيم مشابه للحقوق، فإن حقوق تطوير مصادر المياه التي لا تقدّر بثمن في المناطق الفلسطينية المحتلة، قد منحت تقريباً، للإسرائيليين حصراً[29].

بكلمات غنية برنين عصري، قامت أمة الشيروكي والبيض المتعاطفين كذلك بشجب حملة الترحيل علنياً. ورداً على الإنذار النهائي الذي وضعه وزير الحرب جون س. كالهون بأن عليهم أن

يسلموا السيادة على جورجيا أو عليهم الرحيل، فإن الشيروكي أجابوا: «نستأذن بالحديث، ونتبهكم ونذكرهم بأن الشيروكي ليسوا أجانب بل سكان أصليين للولايات المتحدة، وبأن الولايات التي هم محاطون بها قد خُلقت من الأراضي التي كانت لهم في السابق». وفي عريضة رفعوها للكونغرس، تساءل الشيروكي: «ما هو الحق الذي من الممكن لأمة أن تمتلكه في أرض، أحسن من حقها الموروث والملكية منذ زمان سحيق؟ ..ما هي الجريمة التي ارتكبناها والتي تجردنا من وطننا؟». وفي «مذكرة» مقدمة من الشيروكي تستذكر بأن «نحن لم نغزُ أملاك أحد، ولا نحن جرّدنا أي أحد من امتيازاته غير القابلة للتغيير» ثم تتساءل «كيف علينا إذن أن نعترف مباشرة بحق شعب آخر بأرضنا إذ نغادرها للأبد؟» وتضيف المذكرة «لقد دعينا بالمساكين، الجهلة، والشعب الذليل، ولكن ليس هناك رجل في حدودنا شديد الجهل بحيث لا يعرف بأن له حقاً بالعيش على أرض آبائه». كما أن «مذكرة» أخرى تستذكر «الإهانات، والسجن، والتعذيب، وكذلك الموت» التي عانوا منها على أيدي الجورجيين «ومع هذا فإن الشيروكي لم يرتكبوا أي اعتداء على الإطلاق، ماعدا، وباستثناء تلك التي كانت بدافع سعيهم للتمتع بما يتبع لهم، ولرفضهم التخلي عنه لهؤلاء الذين لا يملكون ادّعاء بحق فيه». وقام أحد البيض المتعاطفين بحثّ «شعب جورجيا، وشعب الولايات المتحدة، كي يتأملوا إذا كانوا هم مستعدين لتلقي المعاملة نفسها التي كان الشيروكي مهددين بها، وهل كانوا سيقنعون بالمغادرة إلى المنفى..؟». أو كما عبر عن ذلك الشيروكي وبصورة غير مسبوقة في مذكرتهم الثانية «نحن نتوسل لهؤلاء الذين وجهنا لهم تلك الفقرات السابقة، بأن يتذكروا القانون العظيم للحياة أن (اعملوا للآخرين كما يجب على الآخرين أن يعملوا لكم)». أما

المراقبون الأجانب فقد كانوا متيقظين بصورة خاصة للورع المنافق للحضارة الأميريكية، فهي تطري على أصول الديمقراطية بينما تدوس على رقاب السكان الأصليين. ويقول الرحالة الإنجليزي فرانسيس ترولوب ساخراً، ومشيراً إلى «السياسة الغادرة» في ترحيل الهنود واصفاً إياها كوحي من طبيعة الأميريكيين الحقيقية: «تراهم ساعة يحاضرون في غوغائهم عن حقوق الإنسان غير القابلة للإبطال وفي الساعة اللاحقة، يسوقون أبناء الأرض خارجاً من بيوتهم»[30].

انتهى ترحيل الشيروكي أثناء إدارة أندرو جاكسون، وقد لفّع جاكسون فعل الغزو في ضباب كثيف، وأن يكن مألوفاً، من الإيديولوجية التبريئية[31]. ويزعم جاكسون، «يبدو الآن أنها حقيقة ثابتة» أن الشيروكي «لا يمكنهم أن يعيشوا على اتصال مع مجتمع متحضر وأن يزدهروا»، وحتى يتمكن الشيروكي من السيطرة على فنون الحضارة فإن «الواجب الأخلاقي» لحكومة الولايات المتحدة هو، تبعاً لذلك، أن يقوموا بترحيلهم، وهكذا فقط تستطيع «حمايتهم،.. وأن تصونهم وتحفظهم من الزوال»، وذلك بالرغم من أن مجتمع الشيروكي كان قد امتُدح قبل ذلك بسنوات قليلة فقط، بوصفهم «صورة للجمهورية الأميركية». ويعلق عالِم إنجليزي زائر بالقول: إن الشيروكي قد «تم دفعهم للرحيل، ليس لأنه لا يمكنهم أن يكونوا متحضرين، ولكن بسبب كائنات زائفة التحضر، كانت أقوى منهم كثيراً وأرادت الحصول على أملاكهم»[32].

وفي ادّعاءات ذات صلة بهذا الموضوع، فقد أكد جاكسون على أن الحكومة القومية كانت عاجزة أمام تعديات المستوطنين، وأن الترحيل كان ضرورياً لتجنب العنف الحدودي. كان النزاع قد ظهر في السنوات المبكرة من عمر الجمهورية بين الحكومة القومية

والمستوطنين، ولكن حتى في ذلك الحين، فقد كان التوتر ظاهراً أكثر مما هو موجود بالفعل، إذ أنه قد كان شجاراً على الوسائل وليس على النتائج. وهكذا فإن الموظفين الفيدراليين، وفقاً لما قاله بيرنارد شيهان، «لم يكن لديهم أي تأنيب ضمير بخصوص اكتساب أراضي الهنود في النهاية، ولكن.. لم يروا كيف يمكن لاحتلال عسكري لقارة.. أن يتقدم بتسليم السياسة القومية لمبادرات سكان الحدود». في النهاية، ودائماً، استطاع المستوطنون أن يعتمدوا على دعم الحكومة. ومع أنه كان ينتقد سلبية الحكومة الفيدرالية بقسوة، إلا أن روزفلت يُقر:

> **رغم أن الأمة كانت أحياناً تعوزها الحماسة أصلاً، ومن الممكن أن تأمل بمنع المستوطنين من التجاوز على أراضي الهنود أو الدخول في حرب هندية، إلا أنه عندما كانت الحرب تصبح أمراً واقعاً، وعندما كان يُشك بإحراز النصر، فإن قدرة الأمة كانت بالتأكيد تستعمل لتأييد المدحورين.. من طليعة الأمة في القفار.**

بالنسبة لضحايا انتهاكات المستوطنين، فقد كانت الأعذار الفيدرالية بالعجز عن العمل، تبدو جوفاء. وتساءل الشيروكي «هل هو الكونغرس الذي انتصر على ملك بريطانيا العظمى غير قادر على ترحيل أولئك الناس؟». وعلى أية حال، فحالما شغل جاكسون منصبه، فإن الحكومة الفيدرالية قد عملت مع سكان الحدود يداً بيد، وقد أورد روجن بأن جاكسون «أصر على الطبيعة العفوية والشعبية لتوسُّع البيض» لكي «يحجب الدور الأساسي الذي تقوم به.. قرارات السياسة الحكومية». ونتيجة لذلك، فقد كان جاكسون «يستخدم عنف المستوطنين.. لإجبار القبائل على التخلي عن أراضيهم». ويستنتج

توكوفيل أنه بالرغم من أن الحكومة القومية قد أظهرت «طمعاً وعنفاً أقل» مقارنة مع سكان الحدود، فإنها كانت «تعادلهم بالافتقاد للنية الحسنة». لقد تباينت الأساليب التكتيكية، ولكن كليهما كان «وسائل للنتيجة ذاتها». ويستطيع المرء أن يميز هنا ذلك النموذج من التعارض المتقطع، لكن في النهاية فهناك علاقات التواطؤ بين حكومة إسرائيل القومية (فلتكن ليكود أو عمل) وبين المستوطنين اليهود في المناطق المحتلة، بالرغم من تظاهر كلا الجانبين بغير ذلك[33].

لكن ورغم أنهما قد عملا «للهدف ذاته» وهو الطرد، فإن «الطليعة في القفار» و«قدرة الأمة» لم تكونا دائماً تنبعثان من الدوافع ذاتها، فكونها تحتمل فعلاً عبء مقاومة السكان الأصليين للتوسيع المستمر للحدود، فإن «الطليعة في القفار» كانت تظهر حالة عقلية مرضية باستمرار، وكان التمرد الصلب في أحد الجانبين، يثير نوبة حقيقية من الاشمئزاز لدى الجانب الآخر. أحدهم وقد أصبح لاحقاً حاكماً للمنطقة الشمالية الغربية لاحظ «باندهاش» بأن المستوطنين كانوا «مدفوعين بأكثر أنواع القسوة وحشية، ويرتكبون باستهتار جرائم هي عار على الإنسانية». كذلك فإن وليم هنري هاريسون، وهو ذاته ليس غريباً عن الحرب والعنف، كان يائساً من أن كثيراً من سكان الحدود «يضعون قتل الهنود في أعلى مراتب الفضيلة». كما أورد مراقب إنجليزي أن المستوطنين «لديهم أشد الكراهية الحاقدة على عرق الهنود بكامله، وليس هناك ما هو أكثر شيوعاً من سماعهم يتحدثون عن استئصالهم بالكامل عن وجه الأرض، رجالاً ونساءً وأطفالاً». أما روزفلت فرغم أنه لم يترك جهداً لكي يخفف من الكراهية البربرية التي تدفع المستوطنين، والأفعال البربرية التي يرتكبونها، فإنه مع ذلك قد أقرّ بأنهم «يعتبرون أعداءهم وحوشاً

وليسوا من البشر» و«وصل بهم الأمر لأن يعتبروا حتى أكثر الهنود مسالمة، كوحوش برية نائمة وحسب» و«نظروا إلى الهنود جميعهم بعداء مقيت، ولم يكن من الممكن إقناعهم بأن يميزوا الجيدين من الأشرار» و«احتقروا جميع الرجال الذين ليسوا من لونهم» وإلى آخره[34].كذلك الأمر فإن المذبحة التي وقعت في الخليل في شباط من العام 1994، والتي أطلقت بها النيران على عشرات من الفلسطينيين الساجدين أثناء الصلاة في المسجد، بواسطة مستوطن يهودي، وما رافق ذلك من «ابتهاج واحتفال» في المستوطنات اليهودية، هذه المذبحة تشهد بأن الكراهية العرقية إنما تُهمز وهمزت بواسطة الغزو. وعندما قام أحد الصحفيين بالضغط على الحاخام موشيه ليفنجر «زعيم الحركة الاستيطانية» كي يعبر عن أسفه على جريمة المسجد فقد أجاب: «بجدية تامة»: «أنا آسف على كل شيء تم قتله، أنا لست آسفاً فقط على العرب القتلى، أنا آسف كذلك على الذباب القتيل».

إن القرابة الإيديولوجية بين مستوطني الضفة ومستوطني الغرب الأميريكي يمكن كذلك أن تتحدد بقوة أكبر. فمستذكراً للمعين اللاهوتي الذي لا ينضب، لوجهة نظر مستوطني الحدود، كتب روزفلت:

> **لقد كان الكثير من رجال الغابات من قارئي الكتاب المقدس، ولكنهم كانوا قد نشأوا على العقيدة التي أنشأت أكثر العهد القديم، وركزوا قليلاً على الرأفة والحقيقة والرحمة. لقد نظروا إلى أعدائهم كما نظر أنبياء العبرانيين إلى أعداء إسرائيل. أين هو المقت الذي بسببه تحطم الكنعانيون أمام يوشع إذا ما قورن بمقت المتوحشين الحمر والذين طلب منهم -شعب مختاراً آخر-**

استلام ميراثهم منهم؟ لقد آمنوا بأن الرب هو الملك إلى أبد الأبدين، وآمنوا أنهم ما كانوا إلا ليطيعوا أوامره إذ كانوا يبذلون قصارى جهدهم للوصول إلى ذلك اليوم الذي يفنى فيه الكفار من الأرض.. كان هناك الكثير من المتحمسين القساة على الحدود ممن اعتَبَروا كل الرجال الحمر، سواء كانوا أخياراً أو أشراراً، كذُرة يانعة للقطاف.

وربما من المفيد لعقد المقارنة هنا، أن المستوطنات الحدودية، وفقاً لما يقول روزفلت، قد نزعت لجذب أفسد النوعيات من الناس - «هذه الطبقة.. التي تجدها دائماً معلقة في أطراف الحضارة» «رجال بلا قانون، وروح متوحشة، من الذين تجدهم في كل مجتمع والذين يجتمعون حيث يكون حكم القانون رخواً.. لكي يتبعوا ميلهم في الجنوح من غير رقيب»، «المجرمون العتاة والذين كانوا عادة عبارة عن وحوش كاسرة». في الواقع، لقد نظر موظفو الولايات المتحدة الرسميين إلى مستوطني الحدود عموماً، بوصفهم «نوعية أدنى من الناس». وهذه العاطفة يردد صداها العديد من الإسرائيليين بما يتعلق بالمستوطنين اليهود[35].

إلى جانب تخلف الشيروكي وعدم مقدرة الحكومة الفيدرالية، فإن جاكسون أخذ ينشد خليطاً من خرافات الغزو التقليدية كي يبرر الطرد، وقال أن الشيروكي لا يمكن «أن يُسمح لهم بالبقاء في مناطق واسعة من بلاد لم يستقروا بها أبداً، ولا هم صنعوا بها أية تطويرات» ويقدم جاكسون الحجج «أو لأنهم شاهدوها من الجبال أو مروا بها في ترحالهم فحسب».

وبالتعبيرات الصهيونية، فبقدر ما كان السكان العرب الأصليون بدائيين ومتنقلين «بدو» فإنهم لا يملكون أي حق شرعي

حقيقي بالأرض. لقد توقع جاكسون أن ترحيل الشيروكي «سيخلف عدداً كبيراً من الناس المتحضرين في مناطق واسعة من البلاد والتي هي محتلة من قلة من الصيادين المتوحشين»- وفي الخيال الصهيوني، فإن هذا سيسمح «للصَحراء أن تزدهر». وبسبب ذنوبهم «بقتل النساء والأطفال» فإن الشيروكي، كما هو الأمر مع «العرب الإرهابيين» في الأيديولوجية الصهيونية، يفقدون بالفعل حقوقهم السياسية. ويؤكد جاكسون: «أنهم ليسوا قادرين على حكم أنفسهم بواسطة أي قواعد للحقوق من التي تقوم الحضارة بتعليمها». وبتزويد الشيروكي «بحقهم بالعيش وفقاً لقوانينهم» يجاهر جاكسون، فإن الترحيل سوف يحافظ على سلامة ثقافة أمة الشيروكي. بينما تدّعي الصهيونية أنه بواسطة «تركيز التطوير لحياة أمة» فإن «ترحيل السكان» العرب، أبعد ما يكون عن «شائبة أخلاقية»، ولسوف يلبي «رؤية إنسانية نبيلة». يزعم جاكسون أن الترحيل يتعارض مع مصالح، ليس الشيروكي العاديين، ولكن مع مصالح قادة القبائل الفاسدين فقط، الذين خدعوا وأرعبوا «الجماهير»: «لو أن الهنود -وأعني الهنود العاديين، أبناء الغابات- قد تُركوا ليقرروا بأنفسهم» يجزم جاكسون، فإنهم «سوف يأخذون بهذا الخيار بحرية» ألا وهو الرحيل. وفي الخطاب الصهيوني الرسمي، فإن رأي الحربة في معارضة الاستيطان اليهودي لم يكن «فلاحي الأرض» أو «جماهير العمال العرب» (والزعم الصهيوني كان أنهم «حلفاء طبيعيون») وإنما كان «الأفندية العرب الماكرين». وبالنهاية فبقدر ما كان طرد الشيروكي «يقوي الحدود الجنوبية الغربية ويجعل الولايات المجاورة قوية بما يكفي لصد الاجتياحات مستقبلاً» فإنه، يصر جاكسون، كان حيوياً «للأمن القومي»

لإسرائيل. وإذا كانت «الوطنية هي الملجأ الأخير للأنذال» كما يقول صامويل جونسون في قوله المأثور، فبهذا يكون الأمن هو الملجأ الأخير للدول النذلة[36].

لقد أتت حملة جاكسون المتوافقة مع التهديد والهجوم، أُكُلها في النهاية، وكانت مقاومة الشيروكي قد كُسرت. في الواقع، ما تبع ذلك يستبق الطريق إلى أوسلو حتى في أدق التفاصيل. لقد استسلمت عصبة من قيادة الشيروكي (ولكن ليس جون روس زعيم القبيلة) لجاكسون. ورغم ادّعائهم بأنه لا يوجد بديل («إن ضرورة حديدية لا تني تدلنا على وجوب المغادرة.. هناك طريق واحد للسلامة، طريق واحد للبقاء مستقبلاً كأمة») فقد بدا «جماعة المعاهدة» أنهم كانوا يعملون بدافع من طموحاتهم الشخصية. وعلى أية حال، فقد اختتم ترحيل الشيروكي في العام 1835، كما وقّع «جماعة المعاهدة» على اتفاقية نيو ايكوتا، والتي تقدم الوعد ثانية بأن «الأراضي المنصوص عليها هنا تُضمن للشيروكي ولن يحصل أبداً.. أن تضم إلى حدود أي ولاية قضائية لأي ولاية أو منطقة» وكذلك «السلام الدائم يجب أن يبقى بين الولايات المتحدة والشيروكي». وقد صادق القليل من الشيروكي على الاتفاقية أو حتى دعموها. وكتب وزير الحرب، المسؤول العسكري الأميركي المخوّل بتطبيق الطرد، محتجّاً:

تلك الورقة.. المسماة معاهدة ليست معاهدة على الإطلاق، لأنها غير مصادق عليها من الجسم الكبير للشيروكي ومصنوعة بدون مشاركتهم ورضاهم.. أنا الآن أحذركم وأحذر الرئيس بأن هذه الورقة لو.. والمسماة معاهدة ثم.. المصادقة عليها، فإنكم ستجلبون المشاكل للحكومة وستدمرون أمة الشيروكي أخيراً. إن الشيروكي

أنـاس مسـالمون ولا يسـببون الأذى، ولكنـها يمكـن أن تقودهم لليأس، وهذه المعاهدة لا يمكن جعلها نافذة إلا بالذراع العنيفة للقوة.

بالنسـبة للولايـات المتحـدة (كمـا هـو الحـال للمتعـاونين مـن الشـيروكي) فأحكام الديمقراطيـة كـانت أمـراً جانبيـاً. وأبـدى حـاكم جورجيا رأيه بالقول «أن تسعة عشر من كل عشـرين من الشـيروكي، هم أجهل من أن يُعطى لرأيهم أي وزن أو اعتبار في أمر كهذا». بعد اتفاقية نيو ايكوتا شرع الشيروكي في حملة مقاومة سلمية، مع هـذا فقد استمرت «جماعة المعاهدة» تتغنـى بـالإطراء علـى نيـو ايكوتـا، والتواطؤ مع حكومة الولايات المتحدة على سحق معارضـة الشـيروكي. وثـار كفـاح دموي تضمـن «جرائم قتل واغتيالات وأعمال أخـرى مـن الخروج عن القانون، عادلت تقريباً حرباً أهلية»[37].

مـع بقـاء الشـيروكي جميعـاً، باسـتثناء حفنـة منـهم، صـامدين بثبات، فقد تدخل جيش الولايات المتحدة في العام 1838 لإنهاء المهمة. والمأساة التي تجلّت -«درب الدموع»- والتي كتب عنها مبشّر موريفـي قـائلاً: «قد تتجاوز بعيداً بحجم الأسـى والشـجن أي فصل آخـر مـن التاريخ الأميريكي»، «إنه من المفجع أن ترى كم تمنّع هذا الشعب عن الذهاب بعيداً».

ويستذكر متطوع من جورجيا كان قد خدم مع قوات الاتحاد، «حتى ذوي أقسى القلوب، يغصّون بالدمع عندما يديـرون وجوهـهم للشمس الغارية -وأنا متأكد أن هـذه الأرض سوف تظل مبللة بدموع أمّـة- إن لـم يكـن بدمائـهم»، «لقـد قـاتلت خـلال الحـرب الأهليـة وشـاهدت رجـالاً يصـابون بالرصـاص ويتقطعـون أوصـالاً ويذبحـون بالآلاف، ولكن ترحيل الشيروكي كان أقسى عمل عرفت عنه».

بعد قرن من ذلك، قال نائب الرئيس السابق للصليب الأحمر السويدي، كونت فولك بير نادوت. عن الفلسطينيين الناجين من «مسيرة الموت من اللّد» بعد أمر بالطرد صدر عن رئيس الوزراء ديفد بن غوريون، وتم تنفيذه بواسطة المسؤول عن العمليات اسحاق رابين، قال: «لقد قمت بالاطلاع على عدد كبير من مخيمات اللاجئين، ولكن لم أرَ أبداً منظراً أفظع من هذا الذي رأته عيناي هنا». ما يقارب الخمسة عشرة ألف من الشيروكي ممن أجبروا على الذهاب للمنفى، فقد هلك نصفهم ربما، وعندما نراها من خلال عيني وزير حرب الولايات المتحدة، مع ذلك، فإن درب الدموع كانت «سياسة كريمة ومستنيرة.. تم تنفيذها بمقدرة وحصافة.. بيقظة وإنسانية جديرة بالثناء.. لقد تمت معاملة الشيروكي باللطف ومشاعر الامتنان.. ليس بلا عنف، ولكن بمقدار مناسب لحاجاتهم». كذلك فإن المسؤول عن القضايا الهندية قد شجع بحماس طرد الشيروكي بوصفه «مثالاً مؤثراً على تحرر الحكومة.. لقد تم الحفاظ على المشاعر الطيبة، ولقد قمنا بهدوء ولطف بنقل.. أصدقاء إلى الضفة الغربية للمسيسيبي». أما الرئيس مارتن فان بورين فقد أعلم الكونغرس «بسعادة خالصة» في كانون الأول من العام 1838 عن «الترحيل الكامل لأمة الشيروكي.. لقد هاجروا بدون أي ممانعة ظاهرة». أما ديفد بن غوريون فإنه ببساطة لم يقتحم أرضاً جديدة عندما قال في خطابه أمام مجلس الشعب عن الطرد الوحشي للعرب من فلسطين بأنهم قد تركوا «مدناً.. بسهولة بالغة.. حتى وإن لم يكن هناك خطر من تدمير أو مذابح تواجههم»[38].

مستذكراً بأن ترحيل الشيروكي قد تم تحقيقه خلف واجهة من المعاهدات («بأكبر قدر من المحبة العفيفة للشكليات القانونية») دي

توكوفيل يقول متهكّماً، بأن الولايات المتحدة قد حققت أهدافها «بدون انتهاك أي مبدأ من المبادىء الأخلاقية العظيمة بنظر العالم، إنه من المستحيل تدمير الإنسان بقدر أكبر من هذا الاحترام للقوانين الإنسانية»[39].

وكما يُضرب المثل بالعنقاء التي تنبعث من الرماد، فإن أمة الشيروكي قد انبعثت من جديد بعد درب الدموع، وكان هذا هو المأثرة الأكثر بروزاً إذا ما أخذنا بالاعتبار الآفاق المعتمة أمام الشيروكي تحت «الحكم الذاتي» الذي عرضه جاكسون. في الواقع، إذا استعرضنا خرائط «الحكم الذاتي» الفلسطيني، فإن إسرائيل ستبدو تقريباً وكأنها سرقت صفحة من كتاب جاكسون. إن وطن الشيروكي الجديد، بعد أن وُضع فيما يسمى الآن شمال شرق أوكلاهوما، كان بالكامل تقريباً، وبكلمات المسؤول الفيدرالي، «غير مناسب للزراعة.. ولا قيمة له على الإطلاق». لقد كان الحكم الذاتي الموعود للشيروكي مطوقاً من كل الجهات، فلقد كان «وجود العملاء الفيدراليين والروابط العسكرية» و«القهر الاقتصادي» متضمناً ما لحكومة الولايات المتحدة من «تحكم في خيط كيس المال» للأرصدة الحيوية للشيروكي، وأسبقية قانون الولايات المتحدة «في كل القضايا التي تجمع هنوداً وبيضاً». وقد تضافر كل ذلك «لإضعاف سيادة القبيلة» كما أن أمة الشيروكي قد تحطمت أيضاً بواسطة «حرب أهلية دموية» تخللها «اعتمادية الاغتيال وإشعال الحرائق» وقد حصلت بين الزمرة التي دَعمت وتلك التي عارضت اتفاق نيو ايكوتا. وإذ وصلت أخبار النزاع الداخلي للشرق (الأميريكي)، فقد كانت «الفكرة الرئيسية الشائعة» للصحف، والتي كانت قد ادّعت التعاطف مع الشيروكي هي أن «القبيلة الأكثر تحضراً في أميريكا» قد «ارتدّت إلى البربرية». وعلّق

وليام ج. مكلوفلن أن الحرب الأهلية بين الشيروكي «تنطبق ببساطة شديدة، على الصورة المتداولة والمفترضة عن وحشية الهنود الفطرية التي لا يمكن استئصالها ولصوصيتهم». وإذ يفتح اتفاق أوسلو حتماً الطريق لنزاع أهلي عنيف بين الفلسطينيين، فإن «صحف الساحل الشرقي» ذاتها، سوف تأخذ بلا شك الحالة ذاتها من اليأس بسبب «بربرية» العرب[40].

في وجه نصف قرن من «الجهود المتواصلة» من قبل الولايات المتحدة من أجل «ترحيلهم»، فقد استنتج الشيروكي، وفقاً لما كتب مكلوفن، أن «الأمل الأصلي هو إمكانية إدماجهم على أساس التساوي.. كان مستحيلاً».

وأنهم في أحسن الأحوال «قد كتب عليهم أن يصبحوا مواطنين من درجة ثانية» ولم يكن هناك خيار سوى «الاعتماد على قادتهم ومواصلة حكمهم الذاتي». ووفقاً لذلك فإن الشيروكي «قد استخدموا المفهوم الأوروبي لمعنى الأمة للدفاع عن حريتهم وعن قاعدتهم من الأرض». وبالرغم من ضعف سيادتهم ومن العقبات المثبطة التي كانت تنثر في طريقهم، فإن أمة الشيروكي قد تدبرت أمر بقائها، وحتى ازدهارها، ولو كان بصورة مؤقتة. في الواقع، فخلال عقد الـ 1850 آت فإن أمة الشيروكي كانت تزدهر كما لم تزدهر من قبل، وكانت «مثالاً يعرض على الزوار الأجانب لتوضيح مقدرا التقدم الذي استطاع الهنود تحقيقه في «التحضر» و«التنصّر» ووُصِفت أمة الشيروكي باستحسان على أنها «أثينا الغرب» وتمتعت «بمستوى معيشة يساوي، إن لم يكن أعلى، من مستوى معيشة جيرانهم في أركنساس، وكنساس، ومسيوري» كما كان مستوى معرفة القراءة والكتابة «متفوقاً بلا شك». وإجمالاً،

فإن الشيروكي «قد أظهروا بأنهم مجتمع متقدم.. كأحسن ما يمكن العثور عليه» في أي مكان على الحدود.

ومرة أخرى، مع ذلك، تم سحقهم تحت قوة «السياسة الإمبريالية» التي «لم يكن من الممكن إيقافها» عند انتصاف القرن. وكان دي توكوفيل قد تنبأ أصلاً عشية ترحيل الشيروكي من فرجينيا بأن «من دون شك فخلال سنوات قليلة، فإن السكان ذاتهم الذين يضغطون من حولهم، سوف يكونون في أثرهم من جديد». وفي واقعة سابقة لمصير الفلسطينيين أثناء وبعد «حرب» الخليج، فقد تم الزعم بأن الشيروكي «غادرون» إذ أن دعمهم للكونفدرالية قد استخدم كذريعة لانتزاع امتيازات كانت أصلاً موضع طمع قبل الحرب الأهلية (من مصالح سكة الحديد، مضاربي الأراضي، والمستوطنين العاديين). في الواقع، سياسة التعديات التي تجددت كانت قد استهلت بواسطة الرئيس لينكولين. وبواسطة نصوص معاهدة فورت سميث في العام 1866، فإن الشيروكي قد أُجبروا على تسليم أراضٍ أكثر وعلى فتح المتبقي أمام سكك الحديد. وقامت الولايات المتحدة طبعاً كذلك «بضمان ملكية خالصة وسلمية للشيروكي في وطنهم» وإلى آخره[41].

حددت إطلالة هذا القرن بداية النهاية لأمة الشيروكي. فقد تراكمت الضغوط بدءاً من سنوات الـ 1870 آت لفتح كل منطقة الشيروكي للمستوطنين البيض. وعندما كانت شركات سكك الحديد التي تغتصب الأرض تتقدم، فقد كان مدٌّ من المستوطنين البيض يتبع أثرهم، وهكذا ابتدأ تشظي الفضلة الأخيرة من وطن الشيروكي. ومع استبصار التاريخ الفلسطيني الحديث، يقرأ المرء تلك الأحداث بحس من المعرفة المسبقة.

يورد مكلوفن أن «بعض المستوطنين البيض» قد استولوا على «أراضي كانت موقوفة للشيروكي أصلاً، وعندما قام الشيروكي بالاحتجاج، فإن المتطفلين، وببساطة، ساقوهم خارجاً باستخدام القوة.. لقد اعتبر الحدوديون البيض أن أراضي الهنود التي لم تكن مستوطنة بعد، كأراضي مفتوحة لمستوطناتهم». لقد آمن المستوطنون، على حد قول ضابط في جيش الولايات المتحدة، بأن «كل الأراضي غير المحتلة، والتي تخص الهنود، هي غنيمة مجانية أو يجب أن تكون كذلك». وكما في عهد جاكسون، فإن الحكومة الفيدرالية «رفضت القيام بواجبها لترحيل» المستوطنين «حتى أصبح عددهم كبيراً جداً وسلوكهم مما لا يمكن السيطرة عليه، بحيث قوضوا كل الجهود لحفظ النظام». وبالمقابل فإن مقاومة المستوطنين قد خدمت الحكومة الفيدرالية كذريعة لهدم المزيد من سيادة الشيروكي. وفي المناسبات القليلة التي تم فيها ترحيل المستوطنين، فقد كانت فقط «لكي يتمكن الكونغرس من تطوير هيكل أكثر تنظيماً لفتح الأراضي أمام مستوطنات البيض»، ولم يكن الشيروكي يحملون أية أوهام بصدد الخطط الجارية بالفعل، فمقارناً مصير أمته بالطروادبين («لقد كانت محتويات الحصان الخشبي التي أُفرقت داخل أسوار طروادة ما مكّن الإغريق من الاستيلاء على المدينة القديمة») ربط أحد قادة الشيروكي المستوطنات غير القانونية والمصادق عليها بالفعل من قبل الحكومة الفيدرالية بسياسة «الامتصاص والتفسيخ والتي أصبحت على ما يبدو بديلاً عن المذهب القديم، الإبادة»[42].

وأخيراً، رُفع نداء لتقسيم قسم من الممتلكات المشاعية بين الأفراد أعضاء القبيلة، وفتح ما يُسمى بالفائض (وقد قدّر بثلثين كاملين من المجموع) لمستوطنات البيض. أما «الخيّرين» و

«الإنسانيين» في الشرق الأميريكي فقد كانوا على الأخص متصلبين على أن يبطل الشيروكي الملكية القبلية وأن يؤسسوا ملكية فردية: «الملكية العامة والتحضر» هكذا قيل، لا يمكنهما «التعايش». و«الأنانية» هي «في قلب التحضر». مع انعطافة القرن، أذعنت أمة الشيروكي على توزيع حصص من أراضيها لكي تمتلك من الأفراد وبدون شركاء، وبعد فترة ليس طويلة، وقعت حتى أصغر القطع التي أعطيت لكل شيروكي في أيدي البيض. وتلاحظ، أنجي ديبو، في سردها الكلاسيكي أنه حالما تم تقسيم الأرض المشاعية للشيروكي، فقد نشأ «انغماس في الاستثمار» وكان «تقريباً عصياً على التصديق، أنه خلال جيل فإن هؤلاء الهنود الذين امتلكوا وحكموا منطقة أكبر بالمساحة وبالإمكانات المادية من كثير من الولايات الأميريكية، كانوا قد جردوا من ممتلكاتهم تقريباً، وأنه تم إنقاذهم من الموت جوعاً من خلال الأعمال الخيرية العامة فحسب» تستذكر ديبو «يمكن للمرء أن يكون متأكداً إذا اقترب من مستوطنة هندية، من أنه سيجد أرضاً لا قيمة لها قط». إن سلب أراضي الشيروكي والتدمير النهائي لأمة الشيروكي كان قد تم تسهيله بصورة حاسمة، للمصادفة، بواسطة المتعاونين، والذين بمعية طبقة صغيرة من المقاولين من الشيروكي «قد استمروا بالإثراء في الظروف الجديدة»[43].

إن أمة الشيروكي، وبعد أن جُرِّدت من قاعدتها من المناطق، خُسرت بمدى قصير آخر مظاهر سيادتها، ووسّعت حكومة الولايات المتحدة بسرعة نطاق سلطتها على حساب دور القبيلة، وعندما أصبحوا «قلة عددية بشكل ميئوس منه» بين المستوطنين البيض، فقد تم إدماج الشيروكي في الجمهورية الأميركية

كمواطنين في الولاية الجديدة أوكلاهوما، (عشية إدخالهم في ولاية أوكلاهوما 1907، كان الشيروكي يؤلفون خمسة بالمئة فقط من عدد السكان) ويعلق اثنان من المؤرخين بالقول: «إذا قيست بأي مقياس عملي فإن حادثتي توزيع الأراضي على شكل حصص، وإدماجهم في ولاية، كانتا كارثتين ماحقتين» بالنسبة للشيروكي. ابتداءً بالقصة وحتى الوقت الحاضر، يستنتج مكلوفلين: «إن الشيروكي اليوم لا يملكون قاعدة أرضية.. وبالرغم من أنهم يملكون اعترافاً بهم كقبيلة، وينتخبون زعيمهم، فإنهم يفتقرون للسيادة. لقد تركوا سجلاً مثيراً من كفاحهم ضد قوى كاسحة لكي يبقوا كشعب ذي سيادة». إن المرء يأمل بأن نقش الأضرحة هذا لن يكتب لشعب فلسطين(44).

في كتاب (قرن من العار)، وهو دراسة ملفتة للنظر نشرت في الوقت الذي كانت فيه أمة الشيروكي تجابه آخر دروبها الفاجعة وتنبأت به هيلين هونت جاكسون بأنه «سوف يأتي وقت في المستقبل البعيد» و«سجل.. الغدر» لما قامت به حكومة الولايات المتحدة تجاه الشيروكي «سوف يظهر قريباً جداً مما لا يمكن تصديقه». في الواقع، قليلون اليوم من سيرغبون بالدفاع عن سجل الولايات المتحدة. وربما الإسرائيليون كذلك سوف ينظرون للخلف في أحد الأيام بتشكك لما تم فعله للفلسطينيين(45).

* * *

قبل أن أغادر بيت ساحور سألتُ سميرة عما إذا كان لديها أية كلمات أخيرة، فأجابتْ بعد دقائق من تفكير مركّز ظاهر للعيان: «أرغب بسرد قصة لك:

قبل ثلاث أو أربع سنوات، زارت شابة لبنانية بيت ساحور. وتحدثنا عن الوضع في لبنان، واستذكرتْ التجربة المخيفة عام 1982 عندما اجتاح الإسرائيليون جنوب لبنان، لقد فقدتْ بعضاً من أقاربها وعانتْ الكثير، وأنا شعرتُ بالخجل من نفسي، شعرتُ بطريقة ما كوني فلسطينية يعني أنني كنت مسؤولة عن معاناتها، وخصوصاً عندما قالتْ: «لقد كنا نعيش بسلام في أرضنا، ثم أتى والإسرائيليون و الفلسطينيون واقتتلوا على أرضنا، وكان علينا أن ندفع الثمن». والآن أنا متأكدة تماماً بأن الفلسطينيين لم يقصدوا أن يسببوا المعاناة للبنانيين، فهم أيضاً كانوا ضحايا، لقد كانوا هناك بسبب قضية نبيلة، يقاتلون كي ينهوا الاحتلال. ولكن أنا أعتقد أنه بغض النظر عن مدى نبالة قضيتك، فإنه لا يتوجب عليك إنقاذها على حساب الآخرين. أنا متأكدة جداً من أن الجيل القادم من الإسرائيليين سيكونون خجلين كذلك، الإسرائيليون يعتقدون بأنهم يخدمون قضية نبيلة، إنهم يدافعون عن دولتهم، يريدون السلام، ولكنهم يضطهدون آخرين. سيأتي الوقت عندما يقرأ الإسرائيليون عن تاريخهم، كيف احتلوا الأرض، وكيف أسسوا دولتهم، لن تبدو قضية نبيلة، أنا أعتقد بذلك، وآمل بذلك. وإذا كان لديهم أي أخلاق، فسوف يكونون خجلين مما فعلوا.

غادرتُ فلسطين قبل الفجر في منتصف كانون الثاني 1994. رافقني موسى بالنزول على طول الشارع الجانبي المنحدر إلى الطريق الرئيسي. لقد أراد الأطفال أن يروني أثناء مغادرتي، ولكننا قررنا ألا

نوقظهم، وفي منتصف الطريق نزولاً سمعنا وقع خطى سريع خلفنا، وبان شكل عروة ذو الستة أعوام قاطعاً خلال ضباب الصباح الكثيف. وقف موسى جانباً، صامتاً ومنحنياً قليلاً مع ابنه بينما تجهّزت سيارة الأجرة لتقلّني إلى المطار، وبينما كنا نتبادل تحيات الوداع، تبينتُ من التعبير اليائس على وجه موسى أن السؤال ذاته كان يدور في ذهنه كما في ذهني، هل سأعود يوماً ما، أم كانت هذه هي نهاية صداقتنا؟ في الواقع، هل هذه كانت نهاية فلسطين؟

«ما هو التاريخ سوى النعي لأمم؟»

ممثل جورجيا في الكونغرس، 1830 مدافعاً عن ترحيل الشيروكي.

«بعضهم سوف يموت، ومعظمهم سيتحولون إلى غبار إنساني ونفاية للمجتمع..»

وزير خارجية إسرائيل حوالي العام 1948 مدافعاً عن النفي الدائم للاجئين الفلسطينيين.

ملاحظات وهوامش فصل الختام

(1) للاطلاع على خلفيات القرار رقم 242، راجع:

Nornan G. Finkelstein, Image and Reality of the Israel – Palestine Conflict (London, 1995): Chap. 5.

وللاطلاع على دراسة موضوعية بخصوص حقيقة «العملية السلمية» -في مقابل ما ابتكرته وسائل الإعلام-، راجع:

Noam Chomsky, The Fateful Triangle (Boston, 1983), Chap. 3.

وللاطلاع على مراجع حديثة، راجع: Chomsky في الملاحظة 4 اللاحقة.

لقد أيدت الولايات المتحدة، وذلك لغاية أوائل السبعينات، التفسير الإجماعي لقرار رقم 242 الذي ينادي بانسحاب إسرائيلي كامل، راجع:

(Chaps. 5-6 of Image and Reality).

وكذلك من الواضح أن الولايات المتحدة لم «تستثني مبدأ قيام دولة فلسطينية» أثناء تلك السنوات.

(DAG 1\5 . 2. 2. 1 , appendix 6, box 3, H 63).

«سجل اجتماع مع زوير الخارجية روجر عقد في مبنى الأمم المتحدة في 16 تشرين الأولى 1970» (أرشيف الأمم المتحدة)

(2)Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (New York, 1951), Chap. 9.

للاطلاع على تأكيد من مصدر غير متوقع حول موضوع أن المواطنة والسيارة هما «الخياران الديمقراطيان الوحيدان» راجع كتاب (شاهد عيان) لمؤلفه إيبا إيبان (نيويورك، 1992)، 599-600. وللاطلاع على المفهوم الصهيوني للدولة والمواطنة راجع:

Finkelstein, Imag and Reality, Chap. 1.

إن صيغة «الصهيونية المعكوسة» مأخوذة من نقاشات مكثفة أجراها المؤلف مع أحد قادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في الضفة الغربية. للاطلاع على أدلة موثقة، راجع:

Noam Chomsky, Towarads a New Cold War (New York, 1982), 430 n. 2.

للاطلاع على مجريات اجتماعات الجزائر ورد الفعل الإسرائيلي راجع:

Norman G. Finkelstein, «Israel and the (Scourye) of Palestinian Moderation», New Politics (Summer, 1989).

(3) إن الموقف الجوهري لحزب العمل جذور عميقة في الصهيونية، فلقد كان بن غوريون قد طرح في العام 1956 بأن: «الضفة الغربية يجب أن ترتب كمنطقة حكم ذاتي للعرب، مرتبطة اقتصادياً بإسرائيل بينما تتدبر إسرائيل أمر الدفاع عنها وسياستها الخارجية».

(Finkelstein, Image and Reality, 221 n. 59;

وللاطلاع على صيغ مشابهة نوعاً ما، وإن تكن مبهمة، في الأعقاب المباشرة لحرب عام 1984، راجع:

Avi Shlaim, Collusion across the Jordan (New York, 1988), 382, 497-98; For Post 1967, See Reuven Pedatzur, «Coming Back Full Circle», Middle East Journal (Spring, 1995): 269-91).

حتى التيار الإسرائيلي السائد يشبهون «العرض الذي يعطي الفلسطينيين العرب حكماً ذاتياً ضمن مجال محدود، بينما يحرمونهم من المشاركة الكاملة في النظام البرلماني الإسرائيلي» بوصفه «نموذج بانتوستاني» (معازل عرقية)

(Eban, Personal Witness, 619).

في الواقع، وبما أن الحكم الذاتي يدل عملياً على حقوق خاصة بالإضافة إلى، وليس بديلاً عن، المواطنة فإن ما تسميه إسرائيل بعروض الحكم الذاتي ما هو إلا اسم مزيف. راجع:

Zbigniew Brzezinshi, Power and Principle (New York, 1983), 120.

(4) أكثر التحليلات معقولية من التي اطلعت عليها. بخصوص اتفاقية أوسلو هي:

Shlomo Avineri, «Sidestepping Dependency» Foreign Affairs (July-August 1994): 12-15:

ومقالين كتبهما ميرون بنفينستي هما «اتفاقية استسلام» و«اتفاقية طابا المؤقتة، اتفاقية استسلام أخرى من قبل عرفات» هاآرتز، 12 أيار 1994 و6 حزيران 1995.

Intimate Enemies (New York, 1995), Chap. 6; Noam Chomsky, World Orders, Old and New (New York, 1994), Pt. 3; idem, Powers Prospects (Boston, 1996), Chap. 6; Baruch Kimmerling, «The Flood after the Rainbow», Haaretz, 1 August 1995; Sara Roy, «Separation or Integration», Middle East Journal (Winter, 1994): 11-30; Edward Said, The Politics of Dispossession (New York, 1996), introduction and epilogue; idem, Peace and Its Discontents (New

York, 1996); Haydar Abd al-Shafi «The Oslo Agreement», Journal of Palestine Studies (Autumn 1993); and Israel Shahak, «The Real Significance of Oslo Agreement», September 1993 (Xerox).

فيما يلي فإنني أستشهد غالباً بهذه الآراء. وللاطلاع على قدر أكبر من وجهة نظري بهذا الصدد، راجع:

«Whither the (Peace Process)?» New Left Review 218 (July-August 1996).

(5)Benvenisti, Intimate Enemies, Chap. 6. Passim.

لاحظ المحللون دقيقي الملاحظة مثل (بنفينستي وشاحاك) أن استسلام عرفات لإسرائيل، ذهب أبعد كثيراً من استسلام مصر في كامب ديفيد ومحادثات «الحكم الذاتي» اللاحقة. مع هذا فحتى كامب ديفيد، وهذا متفق عليه بشكل واسع، كان قد أخفق في حماية حقوق الفلسطينيين الأساسية. وفيما يتصل بهذا الأمر، فإن تقييم الرئيس السابق جيمي كارتر للعرض الإسرائيلي «بالحكم الذاتي» يستحق أن نستذكره:

«إذا كان لديك حاكماً عسكرياً، وإذا تم السماح للسكان بحكم أنفسهم طالما أحسنوا التصرف، بإمكان الحاكم العسكري أن يعيد السيطرة الإسرائيلية عندما يشاء، بذلك يكون كل هذا بدون معنى». في الواقع، فقد أورد كارتر أنه: «لو أنني كنت عربياً، فإنني سأفضل الاحتلال الإسرائيلي الحالي» على عرض كهذا. ومع هذا فإن هذه الشروط بالتحديد هي ما اتفق عليه عرفات. وفيما يتعلق بعرض ما يقارب اللاشيء على الفلسطينيين في كامب ديفيد، راجع:

William Quandt Camp David (Washington, 1986), 255, 323, 326; and Shimon Shamir, «Israel Views of Egypt and the Peace Process», The Middle East, ed. William Quandt (Washington, 1988),

198. On Cartter's assessment, See Jimmy Carter, Keeping Faith (New York, 1982), 377, Quandt, Camp David, 157; and Curus Vance, Hard Choices (New York, 1983), 200.

(6) Jean – Paul Sarter, Anti – Semite and Jew (New York, 1965).

(7) Benvenisti, Intimate Enemies, 160.

(8) أورد بينفينستي في كتابه (Intimate Enemies, 181) «إن الخسارة الاقتصادية لسكان المناطق المحتلة (من جراء الإغلاق) كانت ما يقارب 100 مليون دولار شهرياً، وثلثا ذلك بسبب خسارة العمل في إسرائيل (والذي كان قبل الإغلاق يشكل ثلث الناتج القومي الإجمالي للمناطق».

(9) أرسل لي عدنان لاحقاً دعوة غير عادية لحفل زواجه:

«أنا وصديقتي قد اتخذنا قراراً نهائياً بأن نتحدى كل العادات والتقاليد في مجتمعنا، وبأن نكسر حاجز التمييز الديني، يجب أن يتم تثوير الحب في مجتمعنا، ونحن قررنا بأن نكون الثائرين. سوف نواجه الكثير من المشاكل، ولكننا اتخذنا القرار وانتهى الأمر، وسوف يتم الزواج في الصيف، على ما آمل» وفي واقع الأمر، فإن ذلك لم يحدث.

(10) هذا صحيح،راجع ملاحظة رقم (7) أعلاه.

(11)Noam Chomsky, Year 501 (Boston, 1993) 288.

(12)Theodore Roosevelt, The Winning of the West (New York, 1889) 1: 17-18, 21; See 1: 117-18, 273, See also Theodore Roosevelt, Thomas Hart Benton (New York, 1926), 38:

«ولأن الحقيقة البسيطة هي أنه لم يكن للهنود أي حق شرعي

بمعظم الأراضي التي أخذناها، ولا حتى الحق بواسطة الإقامة بها، وفي أكثر الحالات كانوا يمتلكونها بمقتضى أنهم ذبحوا السكان الذين قبلهم». ومنكراً حقيقة «أننا سرقنا من الهنود المقيمين الأصليين أرضهم» يشير روزفلت أيضاً للمبالغ السخية التي زعم أنها أعطيت لتعويضات. (Benton, 111-12)

(13)Roosevelt, Winning, 4: 200, 65, 7, 2d; 1: 118-19, 4: 54-56; See 1: 121.

الاقتباسات «إنه لصالح العالم..» و«إذا نحن أخفقنا بالقيام بـ..» مأخوذة من:

Elting E. Morison, ed., The Letters of Theodore Roosevelt (Cambridge, 1951), respectively, 2: 1176-77 and 8: 946. See also Roosevelt, Benton, 28.

ولقد استعان روزفلت بحجج مماثلة لتبرير غزو تكساس وأخذها من المكسيك:

> **لم يكن موضع سؤال: أن نقبل بخضوع تكساس لسيادة عرق أضعف، من الذين كانوا قد حلوا محل.. ومن الممكن كذلك أن نقر بصراحة بأن سلوك سكان الحدود الأميريكيين خلال هذا الصراع كله لا يمكن أن يُبَرر بأي حجة ممكنة من الأخلاقيات الدولية أو القانون. ومع هذا، فلا يمكن لنا أن نحكم بواسطة المعايير ذاتها التي من الواجب تطبيقها في أمور التعاطي بين قوى عالية التحضر ولها القدر ذاته تقريباً من الفضيلة والذكاء.**

(Benton, 114-15; See Letters, 2: 1233-34).

يتضح أن روزفلت قد عنى حرفياً بأن الهنود كانوا مخلوقات متوحشة، لهذا بهو يصف «البراري» بأنها «مبتلاة بالبدائيين».
(Winning, 2: 121).

وهو يتكلم بنفس الروح عن «الحملة التي لا تنتهي ضد الرجال المتوحشين والحيوانات المتوحشة» (المرجع السابق)، والأكثر إدهاشاً، أنه كان يجاهر بأن «كلاب الصيد وكلاب الحراسة الأخرى» التي كان يستخدمها سكان الحدود كانت «كلها معتادة على الصراع مع الوحوش البرية، وبواسطة الغريزة والتدريب فإنها كانت تكره الهنود بشدة» (المرجع السابق، 4: 261، وراجع 2: 276 إذ قال: «كل الحيوانات الأليفة كانت تخاف من رؤية أو رائحة الهندي مثلما كانت تخاف من الوحوش البرية، وبواسطة خوفها هذا، فإنها كانت تقوم بتحذير المستوطنين، وهكذا تنقذ حياتهم»).

إن نظرة روزفلت هذه، وللمصادفة، تحل التناقض الظاهر بين وصفه لأميريكا الشمالية بأنها «كونها مسيطراً عليها من قِبَل قبائل هندية قوية ومتحالفة» هذا من ناحية، وبوصفها «قفراً ضائعاً» من ناحية ثانية (Benton, 6, 171). وطالما أن الهنود كانوا «وحوشاً برية» فإنهم ما كانوا يحتلون الأرض إلا كما تحتلها بقية حيوانات المنطقة. مستجيباً لمراسل صحفي قلق من أنه وبسبب «الرأفة النسبية للحروب الحديثة.. العرق الأدنى لن يستأصل أو يجرَّد بالجملة من قبل العرق الأعلى» أجاب روزفلت الذي يبدو بأن لديه أملاً خالداً، مؤكداً أنه إذا كانت التجربة الأميريكية تعد دليلاً، فإن «العرق المتفوق» ما يزال قادراً على الإبادة الجماعية:

الا تعتقد أن هذه الرأفة ستختفي للتو إذا بدأ أي من الأعراق الأدنى بالتعدي على حدود العرق المتفوق؟

«إن ما يحدث في ولاياتنا الجنوبية لدى أقل إشارة على الحرب العرقية بين السود والبيض، يبدو لي بأنه ينذر بما قد يحدث على نطاق أكبر بكثير إذا ما قام أي شعب أسود أو اصفر بتعريض البيض لخطر حقيقي. إن أية حركة عصيان مسلح للسود في أي من ولاياتنا الجنوبية، يتم إجهاضها على الدوام.. وأي إشارة لأي عصيان معرض أن يترافق مع بعض الوحشية، إنه وعلى الفور، سيثير البيض لغضب شديد ورعب، ويقومون بإخماد العصيان بلا رحمة على الإطلاق. وبالطريقة ذاتها فإن نشوب ثورة هندية على الحدود، سوف تعني حتى هذا اليوم، شيئاً قريباً من حرب إبادة». (Letters, 1: 376077)

للاطلاع على بيان روزفلت العنصري حول أسباب الغزو عموماً، ولأميريكا الشمالية على الأخص، راجع:

Thomas G. Dyer, Theodor Roosevelt and the Idea of Race (Baton Rouge, La., 1980).

إن أنظمة الحكم الغازية الحديثة، قد شبّهت السكان الأصليين بالحياة الحيوانية في كل ما في الكلمة من معنى، بحيث أن اللجنة الملكية المسؤولة عن تصنيف الحياة الحيوانية والنباتية في تسمانيا في دولة جزيرة استراليا، على سبيل المثال، قد ادّعت أن لها الحق بجثث الذكور البدائيين الذين يتعرضون للتصفية، حتى آخرهم. راجع:

Robert Travers, The Tasmanians (Melbourne, 1986), 220-21.

(14) Citedin Clive Ponting, Churchill (London, 1994), 254.

كذلك الأمر فإن اللورد بلفورد قد اعتبر أن المستوطنات الصهيونية «متجذرة في العادات القديمة وفي الحاجات الحالية

وبالآمال المستقبلية، ولها معنى أكبر بكثير من رغبات وتحيز الـ 700.000 عربي الذين يقيمون في تلك الأرض القديمة».

(Christopher Sykes, Crossroads to Israel (Bloomington, Ind., 1965).

كان الرئيس الإسرائيلي الأول ورجل الدولة الصهيوني الأكثر تبجيلاً، حاييم وايزمان، قد علّق مداهناً أن البريطانيين قد أعلموه بأن في فلسطين «هناك بضع مئات الآلاف من الزنوج، ولكن هذا أمر ليس له أي أهمية».

(Noam Chomosky, Deterring Democracy (New York, 1992), 435).

إن روزفلت، وكما قد يتوقع المرء، قد أيّد بقوة، الغزو اليهودي لفلسطين

(See Letters, 8: 1350, 1372).

إن روزفلت وتشرشل، على أية حال، عبد معاصريهم الأكثر «مثالية» مثل وودرو ولسون، وبوجهة نظر روزفلت، هو أنهم أقل نفاقاً بقليل:

> **إنهم يحتفظون بأجزاء من ضمائرهم في أقسام منفصلة ومعزولة ويتمنون أن يتملكوا جزءاً بحيث يحتفظون بداخلة بكل العبارات حول «تقرير المصير الكامل لكل الشعوب». وفي جزء مختلف تماماً يحتفظون بالحقائق الواقعية حول معاملة أولئك الناس، والذين وجدوهم، وبغض النظر عن عدالة هذا الأمر، غير صالحين لتقرير مصيرهم. إنهم يحبون اللغة الرقيقة، ويعلمون أنه من غير الممكن ترجمتها إلى واقع، ولهذا فهم يستحسنون الوعود المنافقة، والنكران**

الهازىء للوعود. أن تعرض على الأفارقة البدئيين، بأي حسن واقعي، أي شيء أكثر من حصة استشارية وتابعة في قضاياهم الخاصة حالياً، هو ببساطة مجرد سخافة. كذلك، فهناك عدد من الناس ومن ضمنهم ولسون في كثير من المرات، ولويد جورج أقل قليلاً، ممن يحبون استعمال لغة تعني، إما هذا أو لا شيء. و في هذه الطريقة ذاتها، وفي هذه اللحظة فإن الولايات المتحدة قد حرمت ومازالت تحرم هاييتي وسانتو دو مينيغو من حق تقرير المصير. لقد دُمِّرت الديمقراطية في هاتين الجمهوريتين السوداوين، والدملين الصغيرتين. إنها تحكمهما بواسطة المارينز، ولكنك لا تجد، ولا أحد آخر بإمكانه أن يجد، كلمة واحدة منشورة من الرئيس (ويلسون) حتى تشير إلى ما تم فعله.

(Letters, 8: 1400-1401).

(15)Roosevelt, Winning, 4: 54.

(16)William L. Anderson, ed., Cherokee Removal (Athens, Ga., 1991) Vii; Russell Thornton, «The Demography of the Trail of Tears Period», in Anderson Cherokee Removal, 77; Jams Mooney, Historical Sketch of the Cherokee (Chicago, 1975), 155.

(17)Charles C. Royce, The Cherokee Nation of Indians (Chicago, 1975), 10; Kirkpatric Sale, The Conquest of Paradise (New Yorke, 1990), 292-93.

للاطلاع على الأهداف الصهيونية عشية حرب عام 1948، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chap. 3.

(18)Roosevelt, Winning, 1: 28-29.

(يقارن روزفلت سياسة الإنجليز المتمثلة في «قتل وإبعاد السكان الأصليين» مفضلاً إياها على سياسة «الإسبانيين الذين استقروا ببساطة في وسط سكان بدائيين أكثر عدداً بكثير»)

Mooney, Historical Sketch, 89.

(19) يعتبر توماس جيفرسون عموماً كاستثناء وحيد، على أنه متنور ومتحرر من الأحقاد القومية، والأمر المفترض أنه كان ملتزماً باستيعاب الهنود عندما يصبحوا «متحضرين». إن السياسة الرسمية لجيفرسون قد اعتنقت فعلاً فكرة الاستيعاب، ولكن إذا حكمنا من خلال بيانات غير التصريحات العامة، فإن «التحضر» -أي تحويل الهنود إلى مزارعين ومستهلكين للبضائع المصنعة- قد عنى به أن يسهّل تجريدهم من ملكيتهم وليس استيعابهم. وعلى أية حال فإن تصريحات جيفرسون الرسمية، لم تؤثر على سير الأمور على الإطلاق. فباستخدام افتقار الهنود «للتحضر» كذريعة، فإن الطرد قد استمر كسياسة سارية. ولكن من الصحيح كذلك أنه طالما كانت العقيدة الرسمية للولايات المتحدة تمنع صراحة استيعاب غير الأنجلوساكسونيين، فإنه كان بإمكان الهنود العمل من خلال الهيكل الإيديولوجي المهيمن، لكي يجعلوا من الاستيعاب سياسة عملية، كما فعل مثلاً الأميركيون الأفارقة في النهاية. في الواقع، حتى روزفلت كان بإمكانه أن يتصور الشروكي «يصبحون مواطنين تدريجياً بالولايات التي يقيمون بها». ومن هذه الناحية فإن الحالة الأميريكية تختلف جوهرياً عن الحالة الإسرائيلية: فالاقتصاد العرقي ليس انحرافاً عن الهدف وإنما هو الهدف ذاته في الإيديولوجية الصهيونية.

For Jefferson, See Reginald Horsman, Race and Manifest

Destiny (Cambridge, 1979), 104-8, 114-15, 191-92; Michael Paul Rogin, Fathers and Children (New Yorke, 1975), 179; Ronald N. Satz, Amirican Indian Policy in the Jacksonian Era (Lincoln, Neb., 1976), 2, 6; Bernard W. Sheerban, Seeds of Extinction (New York, 1973), 168, 244; Ronald T. Takaki. Iron Cages (Seattle, 1979), 55, 60-63. The Roosevelt quote is from Benton, 38. For the Zionist Versus the democratic ideal, See Finkelstein, Image and Reality, Chap. 1.

(20)Royce's Cherookee Nation is the authoritative study of the treaty – making process. The quote from Bettis is on P. X: of Royce's book. Mooney, Historical Sketch, 35-36.

(21)Saltz, American Indian Policy, 1; Roosevelt, Winning, 4: 32, 53; See 1: 116; 4: 52; and Idem, Benton, 37.

للاطلاع على دور الفساد في صنع المعاهدات مع الشيروكي، راجع:

Thurman Wilkins, Cherokee Tragedy (New York, 1970), 35-43, 94, 142; See also Mooney, Historocal Sketch, 36.

للاطلاع على ما يسلم به القادة الصهاينة من أن «المطالبات والرغبات بكلا الفئتين كانت متناقضة» والأطروحة المضللة للتاريخ الرسمي الصهيوني بأن القوة لم تكن في صميم الاستيطان اليهودي، راجع: Finkelstein, Image and Reality, Chap. 4.

ويمكن للمرء أن يضيف أن حقائق الغزو الأساسية والتي أقرّ بها روزفلت، تنطبق على عموم الحالات. ولهذا، فإن Thomas Pakenham يورد في دراسته عن الغزو الأوروبي لإفريقيا بأن «المستوطنات الجديدة والانتداب قد اكتُسبا بواسطة حق الغزو.. أو أنها انتُزعت بواسطة التهديد بالقوة.. لقد عنت الصيغ المربكة للمعاهدات الشيء القليل للأفارقة، وخصوصاً عندما كانوا ينظرون من خلال ماسورة بندقية الرجل الإنجليزي».

(The Scramble for Africa (New York, 1991), 581.

(22)Horsman, Race, 114-15, 111; See 204; Helen Hunt Jackson, Acentury of Dishonor (New York, 1881),265; Rogin, ,Fathers and Children, 133.

إن عبارات مشحونة إيديولوجياً كهذه، تشكل السلسلة الكاملة من التاريخ الرسمي الإسرائيلي، وهكذا ففي كتاب:

Israel's Border Wars, 1949-1956 (Oxford, 1993).

فإن المؤرخ بيني موريس الذي «يعيد قراءة التاريخ» يعتبر «القتل والتعذيب والضرب والاغتصاب» من قبل الإسرائيليين لآلاف من اللاجئين الفلسطينيين العزّل، والجائعين عادة، والذين كانوا يسعون لحصد محاصيلهم التي كانوا قد زرعوها أو لإنقاذ ممتلكاتهم الضائعة، أو العائدين لبيوتهم، أو الزائرين لأهلهم، يعتبر ذلك «كرد فعل دفاعي». ويعتبر أن القتل الإسرائيلي الجماعي للمدنيين الفلسطينيين الأبرياء بدون تمييز «كسياسة قصاص» أو ردعاً «لتغلغل اقتصاد الفلسطينيين»، أو ثأراً من الهجمات الفلسطينية المسلحة، وحتى عندما كانت أهداف الهجمات الإسرائيلية -والتي ازدادت منذ منتصف العام 1954- أبعد ما تكون عن «القصاص» بل لتحريض مصر على دخول الحرب. ومقابل ذلك، فإن الفلسطينيين الذين كانوا يقتلون إسرائيليين بدافع الانتقام أو حتى دفاعاً عن النفس (كانت إسرائيل قد تابعت سياسة «أطلق النار للقتل» و«لا تأخذوا أسرى» على حدودها) كانوا يوصمون على الدوام بأنهم «إرهابيين» من قبَل بيني موريس. للاطلاع على أطروحات بيني موريس وأطروحات الأكاديميين «معيدي قراءة التاريخ»، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chap. 3.

وللاطلاع على «لغة الدفاع عن النفس» كغطاء للعدوان، راجع أيضاً:

Image and Reality, Chap. 4.

(23)Tom Hatley, The Diving Paths (New York, 1993), 217-28; Samuel Carter III, Cherokee Sunset (Garden City, N. Y, 1976), 10; Roosevelt, Winning, 2: 77, 74.

(24)Roosevelt, Winning, 2: 37, 280; See also 2: 70; Mooney, Historical Sketch, 41, 43; Wilkins, Cherokee Tragedy, 9; John Dower, War without Mercy (New York, 1986), 66; Hatley, Diving Paths, 192-93, 202; Horsman, Race, 110; James M. O'Donnell, Southern Indians in the American Revolution (Knoxville, Tenn, 1973), 52.

موبخاً البريطانيين لاصطفافهم مع الهنود، فإن روزفلت يتهمهم بأنهم:

> **انخرطوا في ما كان أساساً جهداً لإفناء الحدوديين، وأنهم ما كانوا يسعون لهزيمة المسلحين من أعدائهم فحسب، ولكنهم وبصراحة كانوا يتحينون الفرصة.. لكي يدفعوا الحدوديين خلفاً وليطردوا المستوطنين من البلاد.. وهذا يظهر بوضوح، الحقيقة بأن حرب الثورة في الغرب كانت جهداً من جانب بريطانيا العظمى لإيقاف نمو العرق الإنجليزي باتجاه الغرب في أميريكا، ولحفظ منطقة ما وراء جبال الإلجانيز، كمنطقة يمكن للمتوحشين فقط أن يستوطنوها. (Winning, 2: 140)**

لهذا، فإن البريطانيين كانوا في موقع الشجب لدفاعهم عن السكان الأصليين ضد تعديات الأغراب، بينما لم يكن سعي المستوطنين البيض «لدفع الحدود للخلف ولطرد» الهنود على ما يبدو

«انخراطاً بما كان أساساً جهداً لاستئصالهم». إن هذا المنطق يبدو خالياً من العيب إذا ما تذكرنا بأن «امتداد العرق الإنجليزي (من الأميريكيتين) باتجاه الغرب» يفوق بأهميته بشكل كبير ما رافق ذلك من إبادة جماعية للهنود -والذين، على أية حال، ما كانوا سوى «متوحشين فقط». في الواقع، نجد روزفلت يتلفظ بوضوح بهذه المحاججة في الفقرة التالية: «ما كان نجاح البريطانيين ليتواءم مع خير الجنس البشري عموماً، وخير العرق الناطق بالإنجليزية بالأخص. لأنهم بمحاولتهم مساندة الوحشية، وإعاقة مسيرة جماعات المستوطنين باتجاه الغرب، والذين كان قدرهم أن يجهزوا القارة للتحضر.. وتشجيع الهنود على الصمود بوجه الأميريكيين، وإبقاء المستوطنين خلفاً، ما كان كل ذلك إلا أن يعني تشجيع حرب من الوحشية ضد طليعة حضارة البيض على الحدود»-

(Winning, 4: 228-29)

للاطلاع على الفظاعات الإسرائيلية في حرب عام 1948، ومن ضمنها تلك التي كانت ضد القرى العربية «المسالمة»، راجع:

Chaps. 3-4 of Finkelstein, Image and Reality;

وللاطلاع على السجل الإسرائيلي المروع خلال حرب عام 1956، راجع:

Morris, Israel's Border Wars, esp. 166-72.

(25)Hatley, Dividing Paths, 221-219; Roosevelt, Winning, 3: 283, 289; 4: 54; Amnon Kapeliouk, Israel: La fin des mythes (Paris, 1975220. 21.

يورد Morris ملاحظة بأنه في أعقاب حرب عام 1948 مباشرة، فإن إسرائيل سعت لتوسيع حدودها بأن أوقفت قطعاً من الأراضي

الحدودية لتأسيس مستوطنات جديدة. وكان المبدأ الساري هو أنه «أينما كانت المستوطنات الإسرائيلية، فستكون هناك مناطق إسرائيلية، وأينما انتهت المستوطنات الإسرائيلية، ستكون هناك حدود البلاد» (Israel's Border Wars, 121). للاطلاع على مسألة تفضيل إسرائيل للأراضي التي تم غزوها على السلام في أعقاب حرب عام 1948 وعام 1967، راجع:

Chaps. 3 and 6 of Finkelstein, Image and Reality.

إن مذهب روزفلت القائل بأنه يمكن احترام المعاهدات وفقاً «الظروف» كان قد تم إقراره من قبل هتلر في توضيحه لمبادرته للحرب العالمية الثانية في أيلول 1939: «يجب المحافظة على الاتفاقيات طالما كانت تخدم هدفاً محدداً فقط»

(Ann Tusa and John Tusa, The Nuremberg Trial (New York, 1984), 152).

(26)Mooney, Historical Sketch, 43-45 (the quote from knox is on 58); Royce, Cherokee Nation, 21-46.

(27)Douglas C. Wilms, «Cherokee Land Use in Georgia befor Removal», in Anderson, Cherokee Removal; and Anderson's introduction to Cherokee Removal, X; Wilkins, Cherokee Tragedy, 185-96; the quote from Calhoun is in Horsman. Race, 195-96; de Tocquevill, Democracy in America (New York, 1976), 335; Sheehan, Seeds of Extinction, 259.

(28)Hunt Jackson, Century of Dishonor, 272; Satz, American Indian Policy, 54 (for the stromly debate surrounding the Indian Removal Act and the Text, See Chap. 1 and 296-98 of Satz's Book); Ronald N. Satz, «Rhetoric Vs, Reality», in Anderon, Cherokee Removal, 41; Horsman, Race, 193-95, 201 (quote from Barbour on 199); Rogin, Fathers and Children, 211, 214-15; Carter, Cherokee Sunset, 127, 153, 168; Royce, Cherokee Nation, 152.

إن الرئيس أندرو جاكسون، حتى عندما كان رأيه مستقراً عل الطرد الجماعي، قد أكد بمكر على أنه «يمكن للهنود أن يرحلوا.. أو أن يظلوا، حسب ما يرغبون» أي أنه كان بإمكان الشيروكي أن يختاروا «الامتثال لقوانين الولايات، ويتمتعون بالخماية مثل المواطنين الآخرين لأشخاصهم وممتلكاتهم، .. وسرعان ما يصبحون مندمجين في جماهير سكاننا» وإلى آخره.

(Louis Filler and Allen Guttmann, eds., The Removal of the Cherokee Nation (Lexington, KY., 1962), 52, 17).

وبالمناسبة، فإن الولايات المتحدة التي كانت طامعة في أراضي الشيروكي لم تكن تعاني من الكثافة السكانية أو شح الموارد الطبيعية، بل على العكس من ذلك.

(See de Tocqeville, Democracy in America, 335; and Royce, Cherokee Nation, 95-96).

للاطلاع على الصيغة التي وضعها Benny Morris لـ«ترحيل العرب خارجاً» بوصفه «الوسيلة الأساسية» التي تصورتها الحركة الصهيونية من أجل «الحفاظ على استقرار و«يهودية» الدولة اليهودية المقترحة». وعلى مناقشة لتلك الطروحات، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chaps. 3-4.

(29)De Tocqeville, Democracy in America, 335, 334; Royce, Cherokee Nation, 175; Wilkins, Cherokee Tragedy, 202-3; Rogin, Fathers and Children, 219-20; Grant Forman, Indian Removal (Norman, Jackson, Century of Dishonor, 277.

للاطلاع على استخدام مصادرة الأراضي، التقييدات على النمو الاقتصادي، إنكار الحقوق الأساسية، وإلى آخره، من أجل «إشعال الحرائق حول» الفلسطينيين في المناطق المحتلة، راجع:

Raja Shehadeh, Occupier's Law (Washington D. C., 1985).

يورد رجا شحادة في كتابه بأنه «خلال ستة عشر عاماً من الاحتلال، فإنه لم يتم إعطاء أكثر من خمسة تصاريح لسكان فلسطينيين من أجل حفر آبار»(154). وحالياً، «فإن إسرائيل، وعلى جانبي الخط الأخضر تستهلك ما يزيد عن ثلاثة أرباع مصادر المياه في الضفة الغربية» (Benvenisti, Intimate Enemies, 68) في أوائل الـ 1950 آت، تابعت إسرائيل بالمثل «سياسة إرهاب ورعب» (وفقاً لكلوب باشا) لكي تدفع الأقلية العربية إلى المنفى. وقد أورد أحد المستشارين الأميريكيين في ذلك الوقت أن: «إسرائيل هي لليهود. وإسرائيل تنوي جعل الأمور غير مريحة لجميع العرب الموجودين الآن في إسرائيل بحيث سيرغبون بالهجرة في النهاية».

(Morris, Israel's Border Wars, 157-58, 163-64;

ويلاحظ Morris، مستشهداً بديان من ضمن آخرين كثيرين حول «ترحيل» الأقلية العربية في إسرائيل كانت شائعة نسبياً» وكانت مدعومة من «الأمة بكاملها» تقريباً).

(30)Citation from Wilkins, Cherokee Tragedy, 154-55, 207; de Tocqueville, Democracy in America, 338; Filler and Guttmann, Removal of the Cherokee Nation, 47; Royce, Cherokee Nation, 155; Satz, «Rhetoeic Vs. Reality», 43.

(31) لقد كانت الوسيلة الأساسية لجاكسون من أجل التنصل من التهمة هي ببساطة أن يقلب الحقائق. وهكذا فقد أورد Rogin بأن جاكسون «احتاج أن يسند الرغبة بالتملك على أساس أخلاقي، وكلما ازدادت بشاعة الفعل، كلما انخرط أكثر في تزوير الذاكرة والإنكار والتبجح بالاستقامة الأخلاقية وإسقاط دوافعة هو على الآخرين». وفيما يتعلق برفض جاكسون للتفاوض على تسوية بخصوص المناطق

المتنازع عليها مدّعياً بأن «الهندي.. سيدّعي بحقه في كل شيء وأي شيء» فإن Rogin يعلق «لقد كتب جاكسون أنه إذا خضعتَ لهم وأعطيتهم هذه القطعة من الأرض، فإنهم سوف يبدؤون بالمطالبة بالأرض المجاورة. هنا يستعيض جاكسون بعملية وهمية من التوسع الهندي عن التاريخ الفعلي لتوسع البيض، وهذا كان إسقاطاً محضاً. إن كل شهادات جاكسون وكل ادّعائاته القانونية تنم عن شهية لا حد لها للأرض لدى البيض، وغير مستندة على حق شرعي، وهذا الجوع غير المحدود خلق الخيالات حول المطالبات الهندية غير المحدودة، والتي أطلق جاكسون لها العنان». وفي مرة ثانية يقول Rogin: «أخذ جاكسون، مخفياً دوافعه، باتهام الهنود بالإعداد لخطط هي في الواقع خططه.. أنه.. قد فضل الحرب. لقد اجتاح سكان الحدود الذين يتوسعون الحدود الهندية، وقد رغب البيض بالحرب بقدر ما رغب بها الهنود، ربما أكثر.. من هم إذن «القبيلة المتوحشة التي لا تلتزم بالمعاهدات ولا بقانون الأمم» الشيروكي أم الأميريكيين من الأصول الاسكتلندية و الإيرلندية؟ إن لغة جاكسون تصور الهنود بهوية متوحشين، وبها ينسب لهم خصائص شعبه هو، لقد كان يتحدث عن نفسه».

(Rogin, Fathers and Children, 171-72,133)

في الفصل الرابع من كتابنا Image and Reality أوضحنا أن هذه الآليات ذاتها، بتحويل واقع الاعتداء القذر إلى صورة شفوقة من الدفاع عن النفس، قد كانت قيد الاستخدام على مدار الغزو الصهيوني لفلسطين. ولكي نستشهد بمثال حديث وموثق، نورد ما أظهرته دراسة Benny Morris بعنوان Israel's Border Wars، ففي أوائل الـ 1950 آت أكدت إسرائيل علناً بأن الدول العربية عاقدة العزم على

الحـرب، ولكن الواقـع أن مصـر والأردن قـد كانتـا قـد فعلتـا كـل مـا بوسعهما لتفادي النزاع إلى أن أصبحت الاستفزازات لا تحتمل. في الواقع، فإن «الجنرال المفضل» لبن غوريون، وهو رئيس هيئة الأركان موشيه دايان (إلى جانب رئيس الوزراء نفسه وكذلك قادة كبار آخرون) من كـان قـد «أراد الحـرب وبصـورة منتظمـة.. متـأملاً بـأن هجومـاً انتقامياً سوف يورط أو يثير الدول العربية التي هوجمت إلى الانتقام، مما يعطي إسرائيل سبباً لتصعيد إطلاق النار حتى تحدث الحرب، حـرب تمكّن إسرائيل من تحقيق أهداف استراتيجية أساسية كغـزو الضفة الغربية أو سيناء أو لتدمير الجيش المصري».

(Morris, Israei's Border Wars, 178-79, 229; See also Shlaim, collusion across the Jordan, 444-45, 570-72).

(32)Carter, Cherokee Sunset, 192; Satz, American Indian Policy, 43. See William G. Mcloughlin, After the Tril of Tears (Chapel Hill, N. C., 1993) 3; and Horsman, Race, 192.

(33)Sheehan, Seeds of Extinction, 269; Roosevelt, Winning, 5: 130; See 1: 118; 4: 116, 118; 5: 21, 97, 126, 127; 6: 65; Hunt Jackson, Century of Dishoner, 263; See 268; Rogin, Fathers and Children, 220; See 131, 222; de Tocqueville, Democracy in America, 337; See 334, but see also 335 for a Fedral Policy; Se also Horsman, Race, 105, 114, 193, 200.

رداً على انتقادات المنتقدين من سكان شرق الولايات المتحدة حـول تعدياتهم، فـإن سكان الحدود قد ذكّروهم بأنه وفقاً لما يقـول روزفلت، فإن «جميع المستوطنات في أميريكا قد.. توسعت» بالطريقة ذاتها. (Winning, 4: 199). وهذا يذكرنا برد رئيس الوزراء السابق بيغن على المنتقدين الإسرائيليين، حـين قـال أن المستوطنات في الضفة الغربية وغزة لم تكن أكثر أو أقل أخلاقية من المستوطنات الصهيونية الأصلية التي توّجت في إيجاد إسرائيل.

See Geoffrey Aronson, Greating Facts (Washington, D. C., 1987), 301-2.

للاطلاع على مسألة التوحد المطلق للأهداف بين حكومة إسرائيل القومية (أكانت ليكود أو عمل) والمستوطنون اليهود في الضفة الغربية وغزة، راجع دراسة Aronson؛ وراجع أيضاً:

Eban, Personal Witndess, 470, 583; and Golda Meir, My Life (New York, 1975),405.

(34)Sheehan, See de of Extinction, 267 (Citing Harrison), 266; Horsman, Race, 110, 112; Roosevelt, Winning, 1: 126; 4: 57, 3: 11-14; 2: 129-30; 1: 115-17, 218-19, 122.

لاحظ روزفلت أن تأثيراً آخر «لحرب الحدود المستمرة والمقلقة» هو:

أنها أعطت شكلاً عسكرياً مميزاً للطريقة التي ينظر بها المستوطنون إلى المناطق التي لم تكن تابعة لهم، .. طريقة مولعة بالقتال، وبكلام أكثر تحديداً، طريقة قرصنة.. والتي كانت في جذور المذهب القائل «بالمصير الواضح».. لقد نظر المستوطنون إلى كل الأراضي التي تحيط بالولايات المتحدة بوصفها مناطق يجب أن يرثوها أو يرثها أبناؤهم في يوم ما، لأنهم عرق يتميز بروح السيطرة، ومعتادين على التسامح مع أي شيء، إلا الخروقات الفاضحة للقانون.

(Benton, 12-15)

إن تصور روزفلت مناسب بالمثل للمستوطنين اليهود في فلسطين. ولكي يضع روزفلت واجهة حسنة لفظاعات المستوطنين، فإنه أشار إلى وحشية الأعداء:

لم يكن الهنود شديدي التوحش في المعركة فحسب،

فلقد كانوا قساة بصورة لا تصدق عندما ينتصرون كذلك، والتاريخ القائم لحروب الحدود ملطّخ بأحلك الألوان، لأنها حرب عانى فيها الأطفال والنساء الذين لا حول لهم، ومن المصير البشع الذي كثيراً ما ألمّ بالآباء والأزواج. لقد كانت حرباً شنّها المتوحشون ضد مستوطنين مسلحين كانت عائلاتهم قد تبعتهم بالقفار. إن حرباً كهذه ستكون دموية وقاسية حتماً؛ ولكن الحب غير الإنساني للقسوة من أجل القسوة ذاتها، والذي يميز الهنود الحمر عن كل المتوحشين الآخرين، جعل تلك الحروب أكثر رعباً من أية حروب أخرى، ذلك بسبب التعذيب الشنيع الذي لا يمكن تصوره أو التفكير فيه، والذي مارسه الرجال الحمر على من يمسكون به من خصمهم وعلى زوجات خصومهم الرقيقات وعلى أطفالهم الذين لا حول لهم، حيث لم يحدث مثل هذا في أي صراع آخر.. لقد كان مما لا مفر منه -بل إنه كان من المناسب في كثير من الحالات- أن مثل تلك الأفعال كانت توقظ روحاً قاسية ووحشية للانتقام والكره في صدور البيض.

(Winning, 1: 115-17; See 1: 124; 3: 10-12, 109; 4: 124-25, 201; Letters, 2: 991).

يجدر بالمرء أن يضيف هنا أن وحشية رجال الحدود كانت، بالنسبة لروزفلت، علامة، وإن تكن سلبية، على صحة عرقية، لقد كان مصدرها فتوة وقوة أصلهم «البربري».

(See Winning, 5: 119; Letters, 2: 1100; 5: 139-40; Benton, 115).

إن التعذر بالظروف الاستثنائية وظلم الخصوم الاستثنائي

لتبرير الفظاعات هو أمر شائع في أنظمة الحكم الغازية. لهذا نجد لجنة لاندو الإسرائيلية تقر التعذيب المنهجي للفلسطينيين السجناء باسم «الحاجات الفريدة للكفاح ضد النشاطات الإرهابية المعادية».

(للاطلاع على مسألة لجنة لاندو، راجع الفصل الثالث، الملحق رقم 2 مما سلف).

وفي الواقع، أشارت منظمة العفو الدولية إلى «القتال ضد الإرهاب» بوصفه «تعبيراً مناسباً لتبرير جميع الأفعال» والذي «يوفر الغطاء للتعذيب.. ولكل أمر يشل سلوكاً غير مقبول في الحالات الطبيعية».

(See Duncan Forest, ed., for Amnesty International, A Glimpse of Hell (London, 1996), 127).

كما وقد بررت بلجيكيا فظاعاتها في الكونغو على أرضية أن السكان المحليين «يحترمون قانون القوة فقط، ولا يعرفون أية طريقة للاقتناع سوى الرعب» وكذلك «لا قيمة بالنسبة لهم، للحياة الإنسانية.. فالسلب والقتل والوحشية كانت متأسسة حتى الأمس القريب في حياتهم اليومية».

(Edmond D. Mord, King Leopold's Rule in Africa (New York, 1905) 144).

وفي حالة النازيين، تم تبرير الفظاعات على الجبهة الشرقية بواسطة القول بالقتال ضد «البربرية الآسيوية» -«إن الجندي الروسي.. مستعد لارتكاب أي فعل شرير، حتى لو كان القتل أو الغدر»- وهذا ما أجبر الألمان على تبني «إجراءات قاسية». وكما علّق المؤرخ عمر براتوف: «لم يكن بإمكان أي قدر من الأدلة التي تدل على عكس ذلك، أن تقوّض هذا المنطق، والذي أزاح براحة، المسؤولية عن

السياسات النازية الإجرامية في الشرق إلى ضحاياهم».

(Hitlers Army (Oxford, 1991) 130, 32).

(35)Roosevslt, Winning, 3: 21; See 2: 84.

للاطلاع على مسألة اجتذاب سكان الحدود «لأسوأ ممثلي مجتمع الرجل الأبيض» راجع أيضاً:

Sheehan, Seeds of Extinction, 266.

للاطلاع على تداعيات مذبحة الخليل، راجع:

Israel Shahak, «The Background and Consequences of the Massacre in Hebron», 11 March, 1994 (Xerox).

للاطلاع على مسألة عنف المستوطنين اليهود غير المقيَّد، وتواطؤ «كل فروع الحكومة الإسرائيلية والجهاز القضائي» في العنف، راجع:

B'Tselem, Law Enforcement Vis-a-Vis Israeli Civilians in the Occupied Territories (Jerusalem, March 1994).

للاطلاع على رد الفعل المتحمس في المستوطنات الإسرائيلية على مذبحة الخليل، راجع «من الصحافة العبرية» ترجمة إسرائيل شاحاك، نيسان / أيار 1994. «الابتهاج.. » كان العنوان الرئيسي لصحيفة يدعوت أحرنوت، 27 شباط 1994.

الاقتباس من Levinger مأخوذ من العدد ذاته. الفقرة من «الحركة الاستيطانية.. » مقتبسة من:

Robert I. Friedman, Zealots for Zion (New York, 1992), 3.

وفقاً لما تشير التقارير فإن النصف كاملاً من سكان كريات أربع، (المستوطنة التي انهمر منها القاتل باروخ جولد شتاين) قد

وافقوا على «الصنيع الجيد في الخليل» بينما «كان استنكار المذبحة يُعتبر كخيانة هناك». أما الحاخام الأكبر لكريات أربع، فقد أشاد بجولد شتاين مقارناً إياه بشمشون، ووصفه بأنه «شهيد». كذلك رئيس المستوطنة هيسيدار ياشين فقد أشاد به بوصفه «رجلاً ممتلئاً بالحب الأخوي، وقد فعل كل شيء لأجل شرف اليهود وقداسة اسم الرب» (يوراشليم، 4 آذار 1994، دافار، 4 آذار 1994؛ معاريف، 27 شباط 1994؛ يدعوت أحرونوت، 18 آذار 1994).

مع هذا ففي داخل إسرائيل نفسها، تم شجب جولد شتاين بوصفه «دكتور فاشستي.. من بروكلين» والذي تربّى «ليس على تعاليم الحاخام كاهانا فحسب، ولكن على تعاليم دكتور مانفيل كذلك» وهو جدير بالانضمام إلى «النادي الدولي للنازيين»، وكذلك تم شجب مستوطنة كريات أربع بوصفها «المدينة التوأم لذلك الجزء من بروكلين في نيويورك حيث أسس بلطجية اليهود الأميريكيين عاصمة لهم». وبالمناسبة، فإن كريات أربع كانت، كما وصفته صحيفة دافار (27 شباط 1994): «ذرية حزب العمل.. وكما أراد لها أن تكون تماماً، أحد قادة الحزب التاريخيين إيغال إلوان». وللاطلاع على تفاصيل أكثر، راجع كتاب فريدمان (متعصبون لصهيون) 16-17. في الواقع، فإن التعليقات الإسرائيلية كانت على الدوام تستخف بمستوطني الضفة الغربية وغزة بوصفهم حثالة المجتمع اليهودي -وبالتحديد اليهود الأميريكيين- وكذلك «حمقى كاهانا» و«اليهود العصابيين من بروكلين» و«اليهود النازيين» و«الموتورين» و«المهووسين بالحرائق» و«حفنة مجانين» و«بلطجية» و«مدبري مذابح من اليهود» وإلى آخره. للاطلاع على موضوع الكراهية العنصرية التي تم إنعاشها وعلى الفظائع التي صاحبت ذلك التلفيق التبريري الذي أحاط بهذه الفترة

من التاريخ الصهيوني من قبل الباحثين الإسرائيليين شبه الرسميين، راجع:

Chap. 4 of Finkelstein, Image and Reality.

(36)Filler and Guttman, Removal of the Cherokee Nation, 17, 49; Rogin, Fathers and Children, 213, 181-83, 224; Satz, American Indian Policy, 126.

مؤكداً على الاستخدام الهازئ لحجة «الأمن» في التاريخ المبكر للولايات المتحدة، فإن Albert Weineberg يلاحظ:

لقد كانت الإمبريالية الأميريكية.. منقادة بفلسفة الحق الطبيعي في الأمن. ومن الواضح أن الأميريكيين قد اعتبروا أنه لا يمكن هضم أي حق طبيعي لآخرين إلا في حالة واحدة -وهي حيث يتعارض ذلك الحق مع حقوق الأميريكيين أنفسهم والتي لا يمكن التخلي عنها.

(Manifest Destiny (Baltimore, 1935), 37)

وباسم الضرورات الأمنية الإسرائيلية المزعومة، كذلك الأمر، ينتظر من الفلسطينيين أن يفقدوا «حقهم الطبيعي للحرية والمساواة». لقد أثار النازيون كذلك، مسألة الأمن لكي يبرروا حملة الإبادة العرقية في الشرق. وعلينا أن نلاحظ بما يتعلق بهذا الأمر، أن حججاً لامذهبية وعقلانية سامية بل أخلاقية وإنسانية، يمكن لها أن تبتكر، وكانت قد ابتكرت بالفعل بصورة نموذجية لتبرير حتى أشنع الأفعال الجنونية. ويعلق Lother Kettenacker: «إن التشريع العقلاني لشيء غير عقلاني فطرياً، كان قد لعب دوراً مهماً في ترجمة البروباغاندا اللاسامية إلى واقع الإبادة الجماعية». ويعلق Hans Hommsen بالمثل

«أن تبريراً أخلاقياً زائفاً كان قد استلزم كشرط مسبق للتطبيق المنهجي للحل النهائي. وكان من اللازم إعلان اللاإنسانية بوصفها «إنسانية» أولاً قبل أن توضع موضع التنفيذ الفني، حيث يتم اختزال الوازع النفسي بعد ذلك إلى الحد الأدنى».

(Lother Kettenacker, «Hitler's Final Solution and Its Rationalization», 79-81, 87-89, and Hans Hommson, «The Realization of the Unthinkable». In The Policies of Genocide, ed. Gerhard Hirschfeld, (London,, 1986), 110, 112, 122-23, 125-26).

وهنا يستذكر المرء التعليق الساخر لبنجامين فرانكلين: «إنه من المريح للغاية أن يكون المرء كائناً عقلانياً، لأن ذلك يمكنه من إيجاد أو صنع سبب لأي شيء كان قد عقد العزم على فعله». للاطلاع على مسألة الصورة النمطية «البدوية»، راجع:

Finkelstein, Image and Reality, Chap. 4;

وللاطلاع على مسألة الطرد الجماعي بوصفه «رؤيا إنسانية نبيلة» وكون الأفندية العرب خلف المعارضة للصهيونية، راجع: Chap. 3.

(37)Carter, Cherokee Sunset, 175, 189, 196; John R. Finger, «The Impact of Removal on the North Carolina Cherokee», in Anderson, Cherokee Removal, 100; Forman, Indian Removal, 266-69; Mooney, Historical Sketch, 115, 130, 145; Theda Perdue, «The Conflect Within», in Anderson, Cherokee Removal, 70; Royce, Cherokee Nation, 126, 156, 162-63; Satz, American Indian Policy, 99; Wilkins, Cherokee Tragedy, 230-33, 239, 259-60.

مردداً مشاعر حاكم جورجيا، فإن قائداً من «جماعة المعاهدة» قد قال:

إذا كان هناك مئة شخص يجهلون وضعهم الحقيقي وعميان بشدة لدرجة أنهم لا يرون ما ينتظرهم من

تدمير، فإننا سنرى سبباً قوياً ليبرر عمل أقلية تبلغ خمسين شخصاً لتفعل ما كانت الأكثرية ستفعله لو أنهم فهموا وضعهم، من أجل أن تنقذ الأمة من عبودية سياسية، وانحطاط أخلاقي.

باستطاعة المرء أن يتصور بأنه بالمثل، كان هذا بتبرير قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عشية أوسلو.

(38)Carter, Cherokee Sunset, 211, 262 (Citing Van Buren); Royce, Cherokee Nation, 124; Thornton, 80, 93; Folke Bernadotte, To Jerusalem (London, 1951), 200, For the «Ludda Death March», and Ben-Gurion, See Finkelstein, Image and Reality, Chap. 3.

استنتج روزفلت أنه، بالرغم من أن الترحيل «حمل مشقة في حالات فردية» فإنه «كان ضرورة على الأرجح» و«بالمجمل.. لم يعق تحضر القبيلة بتاتاً، والتي تم الدفع لها بالكامل مقابل خسائرها».

(Benton, 111; See 38)

(39)De Tocqueville, Democracy in America, 339.

(40)Mcloughlin, After the Trail of Tears, 37, 42,-43, 55, 266; Satz, American Indian Policy, 142-45, 229-30,; Rennard Strickland and William M. Strickland. And William. «Beyond the Trail of Tears». In Anderson, Cherokee Removal, 113; Morris L. Wardell, A Political History of the Cherokee Nation, 1838-1907 (Norman, Okla., 1948), Chap. 3; Wilkins, Cherokee Tragedy, 322-23.

كان قادة «جماعة المعاهدة» من ضمن أوائل الذين تم اغتيالهم. وكانت «وجهة النظر الشعبية»، وفقاً لما يقول Wilkins، إنهم كانوا خونة ويستحقون «الإعدام».

(Cherokee Tragedy, 326)

للاطلاع على التقيدات المشابهة التي فرضت على «الحكم

الذاتي» للفلسطينيين في أوسلو والاتفاقيات الإسرائيلية الفلسطينية اللاحقة راجع المصادر الواردة في ملاحظة رقم (4) أعلاه.

(41)Mcloughlin, After the trail of Tears, Xiii, 6, 68, 202; Royce, Cherokee Nation, 214; Strickland, «Beyond the Trail of Tears», 114-17; de Tocqueville, Democracy in America, 336; Wardell, Political History, 110, 116, 187.

الاطلاع على موقف الشيروكي المتأرجح في الحرب الأهلية، راجع:

Mcloughlin, After the Trail of Tears, Chaps. 6-8, and Wardell, Political History, Chaps. 7-10.

يستنتج Wardell أن أسوأ ما يمكن قوله عن التلكؤ الوجيز لقائد الشيروكي جون روس بما يتعلق بالموقف من الكونفدرالية (إذ أن الحياد قد أخفق) هو أنه «كان انتهازياً، ولكن ليس بسبب دوافع خفية» ما عدا «إنقاذ شعبه وحفظ أمته بأي ثمن».

(Political History, 133, 135; See Mcloughlin, After the Trail of Tears, 181, 190).

وهو حكم ينطبق على عرفات تقريباً في أزمة الخليج.

(See Philip Matter, «The Plo and the Gulf Crisis», The Middle East Journal (Winter, 1994): 31-46).

(42)Angie Debo, And Still the Waters Run (Princeton, N. J., 1940), 29; Mcloughlin, After the Trail of Tears, 256, 272-73, 284-87, 363-74; Strickland and Strickland, «Beyond the Trail of Tears», 118-120; Wardell, Political History, 256-72, 288.

(43)Debo, And Still the Waters Run, X, Xii, 22-23, 94, 126, 353, 376 (for the robbery of Cherokee allotments, See esp. Chap. 4); Mcloughlin, After the Trail of Tears, 40, 237, 280, 363, 376; Rogin, Fatherrs and Children, 181; Strickland and Strickland, «Beyond the

Trail of Tears», 122, 126; Takaki, Iron Cages, 188-91; Roosevelt, Letters, 4: 812.

(44) Debo, And S till the Waters Run, 63f, 170, 258; Mcloughlin, After the Trail of Tears, 368, 380; Wardell, Political History, 320, 333, stricklana and stricklana, Bey and the Trail of Tears, 122, 125.

(45) Hunt Jackson, Century of Disonor, 270.

لقد أبدى روزفلت سخريته من «المؤرخين العاطفيين الأقحام» والذين «لم يأخذوا بالاعتياد المصاعب التي مررنا بها، ولا الإساءات التي لا تحصى والاستفزازات التي عانينا منها». وهكذا تكون طريقة أي مدافع عن الغزو في الندب: نحن أيضاً عانينا! ويدخر روزفلت تقريعاً خاصاً ليوجهه لكتاب هيلين هونت جاكسون (قرن من العار): «والأسوأ من أنه لا قيمة له، ... أنه غير موثوق بتاتاً من الغلاف إلى الغلاف».

(Winning, 1: 277 – 78).

إن حكم روزفلت نفسه، واللافت للنظر، على مصير سكان أميريكا الأصليين يستحق الذكر:

كأمّة، فإن سياستنا تجاه الهنود مُلامة، بسبب الضعف الذي أظهرته، واتكائها أحياناً على سياسة الإنسانيين العاطفيين، كما أننا كثيراً ما قطعنا وعوداً كان من المستحيل تنفيذها، ولكن لم يكن هناك ارتكاب للإثم بصورة متعمدة.

(Winning, 1: 286; see Benton, 38 – 39; for Roosevelt's ruefulness about the Cherokee, see Winning, 1: 273 and 6: 63 – 64; also Dyer, Theodore Roosevelt, 70 – 71, 78 – 79).

حوار مع : نورمان فنكلستين

من السهل على المرء أن يندد ويشجب ويستنكر، لكن من الأصعب اتخاذ موقف نقدي يقوض الأسس الفكرية والأخلاقية لحرية ودولة بأكملها بعمق وبفصاح، والاستعداد لدفع الثمن مادياً وحياتياً. ويكتسب الأمر صعوبة مضاعفة حين تكون، هذه الحركة الصهيونية، والدولة إسرائيل، ويكون المنبر مكاناً ما في الولايات المتحدة. فكيف إذا كان الصوت الناقد من عائلة يهودية - أمريكية وكان والداه قد ذاقا أقسى أشكال التعذيب في معسكرات النازيين؟ الدكتور نورمان فنكلستين، واحد من أبرز وأشجع الأصوات المناصرة لفلسطين في الولايات المتحدة، وقد نشر ثلاثة كتب وعدداً من المقالات وألقى عشرات المحاضرات عن القضية الفلسطينية. هذا الحوار أجرته مع د. فنكلستين مجلة الدراسات العربية بعد إلقائه محاضرة في جامعة إنديانا.

م د ع: هل من الممكن أن تحدثنا عن تكوينك الثقافي والسياسي؟ ما هي العوامل أو الظروف التي ساهمت في اهتمامك بالقضية الفلسطينية ودفاعك عنها؟

فنكلستين: العامل الأكثر أهمية هو شخصي، فوالداي كانا من

المعتقلين في معسكرات النازيين. والدتي كانت في معسكر ميداكن، ووالدي كان في معسكر أوشفتز. وقتل كل أفراد عائلتيهما في المعسكرات. فخرجا من الحرب وحيدين، فقدا بيتهما وأموالهما وكل شيء في هذا العالم. أذكر أن والدتي سُئِلت ذات مرة عن تجربتها في معسكرات الاعتقال النازية. وبعد الحديث عن مآسي المعسكرات والتعذيب والقتل الجماعي. سألها المحاور عن مشاعرها يوم قام الروس بتحريرها من المعسكرات. وتوقع أن يكون يوم التحرير أسعد يوم في حياتها. لكنها قالت بأنه كان أسوأ يوم في حياتها. «كنت وحيدة ولم يكن هناك أحد لي في العالم» هذا ما قالته. فالمرء يتعلم. هناك أناس يمرون بنفس التجربة ولكنهم يخرجون بأفكار وآراء متعاكسة. البعض نجا من معسكرات الاعتقال النازية، وأنا هنا أشير إلى اليهود بالذات، ولم يفهم أي شيء وما ازداد ذكاؤه ولا قل. الآخرون مروا بنفس التجربة وشعروا بأن العالم لم يعمل أي شيء لهم في محنتهم ولذلك فلن يقوموا بأي شيء من جانبهم وسيهتمون بأنفسهم فقط. ثم هناك آخرون خرجوا بحكمة ذهبية مفادها: لم يكن هناك من أتكيء عليه عندما عانيت، لكني كنت أتمنى أن يكون هناك شخص ما. لذلك، عندما يعاني إنسان آخر، يجب علي أن أقف معه في محنته، وكانت والدتي مزيجاً من النوعين الثاني والثالث. كانت تعيش حياتها على أساس أن لا أحد عمل شيئاً من أجلها، لذلك، فلن تعمل هي شيئاً، لكن من خلال القيم التي غرستها فينا وما قالته لنا، كانت، في الواقع، من النوع الثالث وضد اللامبالاة إزاء معاناة أي شخص آخر. هناك التزام أخلاقي يحتم التضامن. لذلك حاولت أن أتعلم مما قالته والدتي. وكان جو البيت سياسياً وكانت هناك دائماً نقاشات حول المواضيع السياسية. كان والداي متعاطفين مع الاتحاد

السوفييتي لأنه انتصر على هتلر. وكانا مع الأفكار الاشتراكية ولم يكونا مع المثل الرجعية والولايات المتحدة. فهناك ثلاثة عوامل: أولها أن أكون على وعي بالمعاناة الإنسانية، وثانياً كون والداي يساريين وأنني نشأت في بيت مسيسٌ. كنت مهتماً بالشؤون السياسية وحتى في أيام الدراسة الثانوية كان اهتمامي منصباً على حركة الحقوق المدنية للسود وحرب فييتنام. وكنت دائماً مهتماً بالشرق الأوسط، لكن دخولي في معترك الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بدأ بعد الغزو الإسرائيلي للبنان. كنت نشطاً جداً ولدي الكثير من الذكريات عن تلك الفترة. كنت أتظاهر أمام القنصلية الإسرائيلية في نيويورك كل يوم لمدة ثلاثة أشهر وكنت أرفع لافتة كتبتُ عليها: «ابن الناجين من معسكرات أوشفتز وانتفاضة غيتو وارسو لن يسكتَ.. أيها الإسرائيليون النازيون. أوقفوا الهولوكوست في لبنان». يمكن لك أن تتخيل بأنه لم يكن لدي الكثير من الشعبية يومها. وكان المتظاهرون الآخرون يقولون لي: «علِّ اللافتة ودعهم يروها. إنها لافتة عظيمة». وأذكر أنني كنت أستمع إلى الراديو في أحد صباحات أيلول وكانت هناك إشاعات عن مجزرة في بيروت. كان صباح يوم سبت وأدركتُ بأن أمراً رهيباً قد حدث. فكتبت على لافتة جديدة: «مجزرة أخرى في لبنان.. إلى متى يظل اليهود صامتين؟» وذهبت إلى تقاطع شارع برودواي و72 وهي منطقة تغص باليهود من الطبقة الوسطى في مدينة نيويورك. وأذكر أن الكثيرين صرخوا قائلين: لماذا تفعل هذا في يوم السبت (اليوم المقدس عند اليهود)؟ وكنت أرد قائلاً: «ولماذا تقتل إسرائيل الفلسطينيين في يوم السبت؟ وأذكر لك هذه الواقعة لأن تلك الشائعات كانت صحيحة وارتُكِبَت مجزرة صبرا وشاتيلا في ذلك اليوم. بعد ذلك، قررت أن أكتب رسالة الدكتوراه عن الصهيونية.

ولذلك بدأت بالقراءة عن موضوع الصهيونية بشكل منظم. ثم انصبت ثلاثة جوانب في شخصيتي: فكرياً، كتبت أطروحة الدكتوراه عن الصهيونية. سياسياً، بعد غزو لبنان، بدأت بالعمل السياسي في قضية فلسطين، وفي الجانب الشخصي، أنا يهودي أساساً، وللصراع الفلسطيني الإسرائيلي أهمية ومعنى خاصين لليهود. لستُ متديناً على الإطلاق، كما أني لا أؤمن بالنقاء العرقي أو ادينى. أنا، بالطبع، نتاج لعائلة ووسط معينين.

م د ع: وماذا عن فترة ما قبل 1982؟

فنكلستين: عندما تكون على اليسار، فإن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي هو موضوع مهم جداً. لكن اهتمامي الرئيسي حتى بدايات السبعينات كان فيتنام. بعدها كنت مهتماً بالماوية والاشتراكية والماركسية. وكنت على استعداد للتضحية بحياتي من أجل دكتاتورية البروليتاريا. لكن، للأسف، لم تتفجر الثورة الاشتراكية.

م د ع: والآن؟.

فنكلستين: لست ضمن هذا التيار أو ذاك، ولكن المُثُل الاشتراكية تؤثر على تفكيري أكثر من أية مثل أخرى. اتجاهي هو على نهج نعوّم تشومسكي فهو يخوض معارك حول القضايا الأخلاقية الأساسية في عالمنا ويأخذ موقفاً أخلاقياً بسيطاً وهو، بصراحة، لا يتطلب الكثير من التنظير للتفرقة بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح. أغلب الأمور التي تهمني ليست معقدة نظرياً. من حرب الخليج إلى توفير السكن للمتشردين وللعوائل أو غيرها. ليس من الضروري أن يقرأ المرء ماركس ليدرك الظلم الموجود في هذا العالم وليحاول أن يقلل من المعاناة بقدر الإمكان. ولذلك لا أدعي أي

التزامات نظرية معقدة. إن العمل السياسي يتطلب مواقف قيمة وشجاعة وليس نظريات معقدة. لو كانت هناك ثورة اشتراكية غداً لكنتُ في المقدمة. لكن، للأسف، هذا لن يحدث. ما أدركه الآن أن النضال ضد الظلم هو مسيرة طويلة تأخذ عمراً بأكمله. لا يمكن أن تستيقظ لتجد الجنة على الأرض. لذلك ستكون هناك خيبات أمل. وبالرغم من حصول الكثير من الأمم على الاستقلال وحق تقرير المصير، فلم يتغير الكثير.

م د ع: هل من الممكن أن تحدثنا عن الأفكار الرئيسية في كتبك؟.

فنكلستين: كتابي الأول، الحقيقة والصورة في الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي (Image and Reality of the Israel – Palestine Conflict). هو كتاب صعب للغاية. هذا ما قاله لي القراء. حاولت أن أتصدى فيه لأصعب القضايا، مثلاً، إدعاء إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية، أو ادعاءاتها الأخلاقية في حروبها. مثلاً، ادعاؤها بأنها كانت مهددة بالتدمير إبان حرب 1967 وأمور كهذه. فأنا أُخضع هذه الادعاءات للمقاييس العقلية والفكرية التي تستخدم في أي بحث تاريخي آخر، لكي أرى ما إذا كانت رواية إسرائيل أو تفسيرها لهذه القضايا في خطابها وفي إعلامها يمكن أن تصمد أمام دراسة فكرية جادة. وكانت استنتاجاتي بأن موقف إسرائيل ضعيف جداً. والأمر لا يختلف عن الحقائق في أي غزو آخر. ففي أي غزو هناك أعمال تشريد واضطهاد لا يمكن تبريرها أخلاقياً بأي شكل من الأشكال. ومن أجل تحقيق أهداف هذا الغزو. يتم استخدام أساليب عنف لا إنسانية. ولا يمكن لأحد أن ينكر هذا. كتبت في مقدمة كتابي الثالث جملة قالتها والدتي. ذات مرة، تحدثنا، أنا وهي، في جامعة ما، هي

تحدثت عن النازيين واليهود وتحدثت أنا عن اليهود والفلسطينيين وكان الأمر مقصوداً. اهتم الناس بما قالته والدتي، لكنهم، طبعاً، صُدموا لما قلته أنا. وفي النهاية، سأل أحد الحضور والدتي عن رأيها في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. فقالت ببساطة: ما هي الجريمة التي اقترفها الفلسطينيون سوى أنهم ولدوا في فلسطين؟ الأمر ليس معقداً كما يحلو للبعض أن يتصوره، فيصوره على أنه صراع كوني بين اليهودية والإسلام أو بين اليهود والعرب. القضية الأساسية هي قضية غزو واستلاب ومقاومة. طبعاً، إن المعاناة التي تعرض لها اليهود في معسكرات الاعتقال النازية ساعدت في تبرير إنشاء دولة إسرائيل. لكن في السيّاق الفلسطيني – الإسرائيلي، المسألة هي مسألة استعمار وغزو.

لا أعتقد بأن أياً من ادعاءات الإسرائيليين يمكن أن تصمد أمام تمحيص فكري. وهذا كان الهدف من كتابي الأول. وهو تحطيم إدعاءات إسرائيل. وبالذات تلك التي يظن الإسرائيليون أنها الأقوى والأحق. أما الكتاب الثاني، صعود وسقوط فلسطين: سنوات الانتفاضة (The Rise & Fall of Palestine: A Personal Account of the Inifada Years)، فهو مبني على تجربتي في معسكرات اللاجئين في الضفة الغربية. فمنذ أول عام من الإنتفاضة في 1988 وحتى خمودها في 1994، كنت أذهب كل صيف إلى فلسطين. في السنة الأولى كنت عضواً في وفد المنظمة العربية – الأمريكية لمحاربة التفرقة العنصرية ADC. وأصبحت أول يهودي تمنعه دولة إسرائيل من دخولها (يضحك). «دولة يهودية» لا تسمح ليهودي بالدخول (يضحك).

م د ع: ولماذا منعوك من الدخول؟

فنكلستين: لا أعرف بالضبط. ولقد أثّر فيّ ذلك الترحيب وتلك الحفاوة (يضحك). وآخر ما قالوه لي قبل إلقائي في الصحراء هو: من الأفضل لك أن تذهب إلى المعبد وتصلّي وتتوب، خصوصاً في يوم كيبور! (يضحك). في 1989، درّست اللغة الإنكليزية في مدرسة ثانوية في قرية صغيرة بالقرب من بيت ساحور. وفي المرة الثالثة وصلت إلى فلسطين في الثاني من آب من عام 1990. نفس يوم وصول صدام إلى الكويت! وصوله، طبعاً، كان أهم بكثير من وصولي (يضحك) وعدت في نهاية آب. أدركت آنذاك أن الحرب قادمة لا محالة. ولقد غادرت وفي نفسي شيء من الإحساس بالذنب. فبإمكاني أن أترك منطقة الحرب بينما هناك الآلاف من الفلسطينيين وغيرهم الذين لا يمكن لهم أن يغادروا وإن أرادوا ذلك. وعدت في آب 1991 لأكتب فصلاً مهماً في كتابي أناقش فيه سبب تحمس الفلسطينيين للصواريخ العراقية التي سقطت على إسرائيل. وكانت هناك زيارة أخرى في 1993 بعد اتفاق أوسلو الأول. وأثناء تلك الزيارة كتبت الفصل الأخير بعنوان: «نهاية فلسطين؟» وعدت مرة أخيرة في كانون الأول من عام 1995 أثناء الانتخابات. كان ذلك بعد وفاة والدتي مباشرة وكنت ما أزال متأثراً بوفاتها وكانت فلسطين مكاناً حزيناً جداً. كانت الأمور قد بدأت تتدهور مادياً وأخلاقياً بسبب سياسات عرفات والفساد الذي خلفته وكان اليأس يعم في النفوس.

م د ع: ماذا عن الصعوبات التي جابهتها في نشر كتبك وتلك المتأتية من مواقفك السياسية هنا في الولايات المتحدة؟

فنكلستين: أود هنا أن أمارس حق الفيتو الذاتي هنا. فليس من اللائق أن أتحدث عن معاناتي الشخصية إزاء حجم المعاناة الإنسانية التي نتكلم عنها. كنت أتمنى أن يكون الوضع أفضل، ولا أقول أسهل،

مما هو عليه الآن وأن يكون لدي وقت أكثر أكرسه للقضايا المهمة. فأنا أنفق الكثير من الوقت بحثاً عن عمل دائم أو في الجدال حول الفواتير التي لم أدفعها.. إلخ. كل ما أريده هو عمل مستقر لكي لا أضطر للبحث عن عمل جديد كل أربعة شهور. فأنا أعمل كأستاذ مؤقت منذ عشر سنوات. كل ما أريده هو العيش بشرف. ولكن لو كان ثمن قول الحقيقة بخساً لوجدت الجميع يقولون الحقيقة (يضحك). يجب أن تدفع الثمن.

م د ع: ما هي مشاريعك المستقبلية؟.

فنكلستين: لم أقتنع مطلقاً بأن شر هتلر لا مثيل له في الحضارة الغربية. فأنا لا أقول بأنه لم يكن شريراً، لكنه، كما كانت والدتي تقول، لم يكن مخترعاً. لذلك، أفكر بعمل يضع هتلر ضمن سياق الحضارة الغربية. فإذا ما نظرنا إلى التوجه العام للحضارة الغربية. لن يكون هتلر ذلك الانحراف الهائل الذي يصوره البعض، بل هو محصلة شبه طبيعية. تحضرني الآن عبارة رائعة قالها غاندي عندما سُئِل عن رأيه في الحضارة الغربية. وكان ردّه بعد أن صمت للحظات: «إنها فكرة عظيمة». لا أريد أن يساء فهمي. فهناك الكثير من الإيجابيات في الحقل الثقافي والأخلاقي. لكن هناك دائماً الجانب السيء في كل شيء. ويجب أن نكون صريحين. فالحضارة الإغريقية، مثلاً، أنتجت الكثير، لكنها كانت مبنية على الظلم واستعباد الآخرين. والحضارة الغربية، أيضاً، بُنيت على كاهل ومعاناة الغالبية من البشر الذين يعيشون حياةً مريرةً بسبب الغرب. ومهما قيل، فهذا هو العالم الذي خلقه الغرب.

م د ع: فماذا يمكن للذين يريدون أن يقاوموا هذا العسف والظلم أن يفعلوه إذا ما شعروا بأن لديهم دور يلعبوه في هذه الحياة؟.

فنكلستين: أولاً، هناك مبرر لشيءٍ من الأمل. فالإنسان العادي قادر على امتلاك الالتزام الأخلاقي الذي يمكّنه من تصحيح الأخطاء طالما توفر التضامن والدعم والقدرة على التضحية وكذلك الذكاء والقيادة. يمكن أن تتغير الأمور ببطء. شخصياً، لا يمكن لي أن أسكت على الظلم.

* * *

المحتوى

صدر حديثاً عن دار كنعان لعام 2000

1- قضايا وشهادات / سعد الله ونوس	مجموعة باحثين
2- الجنرال (رواية)	ت. عبد العزيز العروس
3- العقلانية العملية	ت. د. عادل العوا
4- بابل والكتاب المقدس	ت. روز مخلوف
5- الرقص مع الذئاب	ت. فجر يعقوب
6- البحث عن السيد جلجامش (مسرحية)	محمد سيف
7- السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 + ج2	خالد آغة القلعة
8- وعليك تتكئ الحياة (شعر)	ممدوح عدوان
9- وحوش العاطفة (شعر)	لقمان ديركي
10- بيان ضد الأبارتايد - اللاجئون الفلسطينيون وعملية السلام	د.محمد حافظ يعقوب
11- القيمة والمعيار (مساهمة في نظرية الشعر)	يوسف سامي اليوسف
12- من دولة الإكراه إلى الديمقراطية	عماد شعيبي
13- القلم والسيف	ت. توفيق الأسدي
14- بين الإسلام والغرب	مكسيم رودنسون
15- من قريب ومن بعيد	كلود ليفي شتراوس
16- شعرية التمرد - جان جنيه	إعداد. د. مالك سلمان
17- شتاء البحر (قصص)	غزالة درويش
18- زمن يحترق (قصص)	غزالة درويش
19- جمهورية التلفزيون	فجر يعقوب
20- اعترافات عربي طيّب	يورام كانيوك
21- رائحة الأنثى	أمين الزاوي



من السهل على المرء أن يندّد ويشجب ويستنكر، لكن من الصعب اتخاذ موقف نقدي يقوّض الأسس الفكرية والأخلاقية لحركة ودولة بأكملها بعمق وتعرية.. وبالتالي الاستعداد لدفع الثمن مادياً وربما حياتياً. ويكتسب الأمر صعوبة مضاعفة حين تكون تلك الحركة هي الحركة الصهيونية، والدولة هي إسرائيل.. ويكون المنبر مكاناً ما في الولايات المتحدة الأمريكية حيث الإدمان على قبول الصوت الصهيوني وتأييده بمعزل عن التاريخ والأخلاق.

الدكتور نورمان فنكلستين واحد من أبرز وأشجع الأصوات المناصرة للقضية الفلسطينية في الولايات المتحدة، وقد نشر ثلاثة كتب وألقى العديد من المحاضرات في هذا المجال.

هذا الكتاب وصف محكم لوقائع فصل استثنائي من التاريخ الفلسطيني المعاصر، الثورة على الاحتلال الإسرائيلي المعروفة بالانتفاضة، من البداية المتألقة إلى الانكفاء المر.

يقول إدوارد سعيد:

"إنه لشيء نادر هذا الكتاب الذي يتصدى لتجربة إنسانية عبر بحث تاريخي رصين، وتحليل سياسي مفصل على نحو مذهل وحكمة استثنائية. أنا لا أعرف كتاباً آخر من حيث التعامل مع المأزق المأساوية للوضع الفلسطيني بكل هذه الحميمية وكل هذا الوضوح".

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية